

رواية

عذراء شفشاون

أحمد جبريل

"لستُ مَريَم ..
إنما أَختَ هارون"



عذراء شفشاون



الكتاب: عذراء شفشاون

الكاتب: أحمد جبريل

تصميم الغلاف: كريم آدم

تدقيق لغوي: د. سيد الشريف

رقم الإيداع: 2017/23751

الترقيم الدولي: 978-977-778-188-2

الطبعة الأولى: 2018



20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة

ت:35860372 02 -27772007 011

Noon_publishing@yahoo.com



عذراء شفشاون

(أخت هارون)

رواية

أحمد جبريل







إهداء ..

إلى مَن كان بيني وبينهُ كُتبٌ وقهوة،
لم يكُن ما بيننا هَيّنٌ .. فبربك مِن أين تعلمت القطيعة؟!.





أي تشابه بين أحداث الرواية والواقع
هي حقيقة فادحة لا أستطيع إنكارها.





«اسمها حسيبة»





(1)

قبل مائة عـام مـن الآن، داخـل الضواحـي الشـعبية لمدينـة ((دبلـن)) عاصمـة ((أيرلنـداً))، كتـب العـم ((جـورج برنـارد شـو)) مقولتـه الشـهيرة : ((الحقيقـة هـي أن الـكل سـيؤذيك بطريقـة مـا، عليـك فقـط أن تجـد مـن يسـتحق أن تعـاني مـن أجلـه)).

وصلتنـي مقولتـه، قرأتهـا وكنـت صغـيرة، لم أكـن قـد تجـاوزت وقتهـا العشر سنوات، لكنها ثَبُـتت في عقلي كنقش فرعوني فريد من الصعب أن يُـمحى، تذكرتهـا كثيرًا .. أنكرتهـا أحيانًـا وآمنتُ بهـا أحيانًـا أخـرى، لكنـي لسنوات طـوال حرصـت في البحـث عـن إجابـات مُقنعـة، إن كان ((برنـارد شـو)) مـُحِقًّا فيـما قالـه، والجميـع سـوف يؤذينـي بطريقـة مـا، أو أنـهُ كان عـلى خطـأ!! .. وإن كان الجميـع سـوف يصيبُنـي بـأذى، فمـن سـيكون سـندًا ومتكئًـا في أيـام الشـدائد والصعـاب؟!.

لسـنواتٍ عديـدة لم أكُـن أدرك أن الإجابـة عـن تسـاؤلاتي تركهـا العـم ((باولـو كويلـو)) في نفـس العـام الـذي ولـدتُ فيـه، تركهـا مـع الراعـي ((سـانتياغو)) عنـد شـجرة الجميـز، داخـل روَاق الكنيسـة القديمـة في ((غرناطـة)) .. المؤسـف في الأمـر، أن الإجابـة وصلتنـي مُتأخـرة عـشرون عامًـا، لكـن .. يبقـى دائِـمًا الوعـي المُتأخّـر خـيرٌ مـن الحماقـة المسـتدامة.

***



لم تكُن البداية قبل مائة عام من الآن، عند العم ((جورج))، كانت أبعدُ من ذلك قليلًا .. تحديدًا في نهايات القرن الخامس عشر الميلادي، فعندما كانت الأندلس تزدهر وتنير ما حولها بالعلم والتقدم، كانت أوروبا بأكملها تعُج وتغوص في وحل الجهل والظلام وسفك الدماء، عندها اتحدت مملكة ليون ومملكة قشتالة، مع مملكة أراجون، واستطاع الملك ((فيرناندو)) بمرافقة الملكة ((إيزابيلا)) غزو وإسقاط ((غرناطة))، آخر مُدن المسلمين في الأندلس، و كان ذلك في العام 1492م.

وقتها .. لثلاث ليال لم تنم ((غرناطة)) ولا ((حارة البيازين))، كانت ليالي حزينة، شعر الناس فيها بالوحدة والضجر بعد أن نُزع عنهم ثوب الأمان .. اجتمع الرجال الأشداء برفقة كبار السن من ذو الحكمة في المساجد وبيوت العلم وأيضًا الشوارع .. تحدثوا جميعًا بلا انقطاع عن الهزيمة وضرورة الهجرة .. قالوا :

- فلنحمل ما نقدر عليه من متاع ونرحل، فبلاد الله واسعة، أو نبقى مُسلّمين أمرنا لله والأسياد الجدد ونعيش طوعًا لهم.

على عكس ما تحدثوا وفكروا، كان العجوز ((أبو جعفر)) صانع أغلفة الكُتب، يفكر في شيء آخر، حيث انشغل عقله بالكتب والمخطوطات والكثير من علوم الفلك والطب والكيمياء الاسلامية، كان يعلم أنّ القشتاليين حتمًا سوف يبحثون عنها ليحرقوها كما فعلوا في المدن التي دخلوها قبلهم، فهما ما دخلوا مدينة إلّا وأحرقوا تراثها.. لذا ما أن ألاحت لهُ الفرصة إستغلها .. لأسابيع عمل بكدٍ على جمع الكتب والمخطوطات الثمينة من المساجد والمكتبات وبيوت الحُكماء والمُعلمين من الفُقهاء، كان بحكم عمله كصانع للأغلفة يعرفهم جيدًا فقد تعامل



معهم مرارًا، بعد الجمع أخفاها جيدًا في بيته الثاني المنزوي بجبل ((عين الدمع))، بعيدًا عن الأعين.

بعد أسابيع من سقوط ((غرناطة)) حدث ما حسبه ((أبو جعفر))، اقتحم القشتاليين المساجد وبيوت الحكماء والعلماء، لم يتركوا مكانًا إلَّا و بحثوا فيهِ عن الكتب والمخطوطات، و في كل مرة ارتدوا خائبين .. لم يجدوا إلَّا أشياء قليلة للغاية، ليست ذات أهمية، فبعضها إن لم يكن جميعها مُجرد نُسخ ليست أصلية، أمّا الأصول فقد اختفت تمامًا .. جمعوا الكتب والمخطوطات في ساحة المدينة، وأمام أعين المسلمين قاموا بحرقها، كانوا موقنين أشد اليقين من أن هذه ليست جميع الكُتب، موقنين أن أحدًا ما قد سبقهم بخطوة و أخفى النسخ الأصلية منها، وفعل ذلك عن عمد، لذا ضمروا في أنفسهم الشر لمن يجدوها عنده.

لم يحتمل ((أبو جعفر)) ما شاهده في ساحة المدينة من حرق الكتب، فالكتب كانت أحب اليهِ من نفسه، ظن أن الله قد تخلى عنهم جميعًا، و أن القشتاليين لن يرحموا أحدًا منهم .. ليلتها .. عاد للبيت، أستلقى في فراشه، شعر في نفسهِ أنه سوف يغادر الحياة، كان قد وصل نهاية السبعينيات من عمره، وحلّ عليهِ الوهن والضعف وتمكن منهُ المرض، وكانت محرقة الكتب القشة التي قسمت ظهر البعير، فقد قُتلت روحه التي كانت تحيّا في الكتب، فما فائدة أن يحيّا الإنسان بلا روح .. لذا قرر ليلتها أن يُقسِم أملاكهُ، فأورث بيته الثاني القائم في جبل ((عين الدمع)) إلى ابنه ((حسن)) والكتب والمخطوطات إلى ابنته ((سليمة))، على أن يبقى بيته الأول في حارة ((البيازين)) لزوجته ((أم حسن))، شريطة أن يعيشوا جميعًا فيهِ، ويظل بيت ((عين الدمع)) مغلقًا .. و كان ذلك بدافع حرصه على الكتب.



كان ((أبو جعفر)) رجل حكيم للغاية، يعرف جيدًا من الذي يستطيع حماية الكتب ويتولى الحفاظ عليها ويصونها كأمانة كبيرة، كان يعلم بأنّ ((سليمة)) مِثله تمامًا، تعرف قيمة الورق وما يحويه من علوم وأسرار وتقدر أهميتهُ، لذا أورثها الكُتب، وأوصاها بحمايتها مهمًا كلفها الأمر.

ظلّت ((سليمة)) لشهور طوال بعد وفاة والدها، مُحتفظة بالكُتب والمخطوطات في مكانها، دون الإفصاح عنها لأحدٍ غير ((حسن)) الذي كان يعلم بأمرها مُسبقًا من والده، و كانت بين حينٍ وآخر تتسلل بحرصٍ شديدٍ إلى بيت ((عين الدمع))، تجلس بين الكتب والمخطوطات على ضوء شمعة صغيرة تدرس ما تدرسه، وتأخذ ما تبحثُ عنه من معلومات في الطب والكيمياء ثم تعود مرة أخرى في وسط الليل إلى منزل حارة ((البيازين)).

بعد وقت ليس بكثير .. أصدر القشتاليين مرسومًا وزع على العامة، ينص على ضرورة تسليم كافة الكتب العربية لفحصها ومن يتخلف عن التسليم يُعاقب بشدة، وبدأوا مُجدَّدًا في تفتيش البيوت والمكتبات بحثًا عن الكتب والمخطوطات، كانت ((سليمة)) تُدرك أنَّ ((حسن)) سيدفعهُ خوفه عليهم إلى تسليم الكتب لفحصها، وكانت تُدرك جيدًا أن فحص الكتب يعني مصادرتها، ولن تستطيع فعل شيء لمنعهم، لذا .. لجأت إلى زوجته ((مريمة)) صديقة روحها المقربة .. طلبت منها المشورة والمساعدة .. فأقنعتها الأخيرة بضرورة نقل الكتب من بيت ((عين الدمع)) المغلق إلى بيتهما الذي يعيشون فيه في حارة ((البيازين))، قالت لها :

- إنه المكان الوحيد الآمن الذي لن يشك ((حسن)) أن الكتب نُقلت إليه، فمن غير المعقول أننا سنخفيها عنه تحت أقدامه، خاصة إذا ما أغلقنا عليها صندوقًا ووضعناهُ في غرفة نومه.



عند مُنتصف الليل، وسط سكون الشتاء الباردة، و تحت ضوء الشُّعْل الخافت، خرجتا من المنزل مُتسللتين إلى شوارع ((غرناطة)) الحزينة وقد حرصتا على ألّا تلاحظهم ((أُم حسن)) و التي كانت تغط في نومٍ عميق .. كانت الفرصة قد لاحت لهم عند غياب ((حسن)) الذي خرجَ للتجارة وسوف يتغيب لعدة ليالي، بعد أن توشحتا ملابسٍ سوداء ثقيلة تقيهم شدة البرد وأيضًا تساعدهم على التخفي وسط الظلام أمتطيّ حِصان ((حسن)) وتسللتا بهِ إلى بيت ((عين الدمع)) .. داخل البيت قامتا برَصِّ الكُتب داخل صندوقٍ كانت ((مريمة)) حصلت عليهِ خصيصًا لحفظ الكتب والمخطوطات فيه، كان مصنوعًا من خشب الزيتون، لونه زيتونيّ جميل، يحمل نقش غصون وزهور وعصافير، كل عصفورين متقابلان متلامسان، تشعر أن بينهم أُلفة، صندوق يليق بالكتب.

حملتا الصندوق فيما بينهم بحرصٍ وعناية شديدين ثم خرجتا من المنزل بإتجاه الباحة الأمامية للمنزل حيث كان الحصان مربوط في شجرة الجميز العملاقة، وضعوا الصندوق فوق ظهر الحصان وقامتا بتغطيته جيدًا ببعض الأغطية السوداء، ثم عادتا بهِ مُتسللتين مرة أخرى إلى بيت ((حارة البيازين))، وبنفس الطريقة، حملتا الصندوق بحرصٍ وعناية ثم تسللتا به إلى داخل البيت، وفي غرفة نوم ((حسن)) وضعوا الصندوق أسفل سريره، وظلّت الكُتب آمنة في مكانها لوقتٍ ليس بقليل.

***

مارست ((سليمة)) الطب سرًا، عملت على مداواة الناس بما تعلمته، أستخدمت الكيمياء أيضًا في بعض الصناعات بغرض مساعدة المسلمين في غرناطة، إلى أن وشَى بها أحد كارهي المسلمين في ((غرناطة)) إلى الحاكم الجديد، أبلغ القشتاليين بأمرها، فتوجهت سرية صغيرة مكونة



من عدة جنود وضع على رأسهم مسؤل عنيد غليظ المعاملة حاد الطباع، له صوتٌ أجش يرعب العامة، عُرف عنه كرهه المفرط للمسلمين، إذ أنهُ أشتهر بقتلهم لأتفه الأسباب أو بدونها .. إقتحموا المنزل .. نشروا الرعب في أرجاءه وهم يفتشونهُ مرة بعد مرة وفي كل مرة يحصدون الخيبة، كادت العجوز ((أم حسن)) أن تموت من شدة الخوف والقلق على أفراد عائلتها .. كانت ((مريمة)) قبل أيامٍ من هذه الحادثة قد إستشعرت بشيءً من القلق فأخرجت الصندوق ودفنته أسفل شجرة الجميز الموجودة في الباحة الخلفية للمنزل دون أن تخبر ((سليمة)) بذلك.

ليلتها .. رفضوا أن يرتدوا خائبين .. فبعد أن فشلوا في إيجاد أيًّا من الكتب والمخطوطات ألقوا القبض على ((سليمة)) بطريقة مُهينة للغاية، فقد تطاول عليها قائد السرية بالسب والضرب أمام والدتها العجوز ((أم حسن))، كان يحاول أشاعة الرعب أكثر في قلوبهم على أمل ان يضعف أحدهم فتخرج منه كلمة واحدة تدل على وجود الكتب .. إلَّا أن أحدًا ما لم يتفوه بحرفٍ واحد .. كانوا يضاعفون الإهانات يقينًا منهم أنها تمتلك الكتب اللازمة لتتعلم هذه الأشياء، وكرروا عليها السؤال :

- كيف وأين تعلمتي كل هذا ؟! أين الكتب؟!.

لم يكتفوا بالقبض عليها .. أمروا بتفتيش بيوت أهلها واحدًا تلو الآخر في محاولة بائسة منهم أن يحصلوا على الكتب .. عندها تسرب مُجدَّداً إلى قلب ((مريمة)) شيئًا من القلق والخوف علي ((سليمة))، والتي أدركت جيدًا أن الأمور تتجه إلى الأسوء عندما سمعت أن القشتاليين وجهوا لها تُهمة ممارسة السحر، وقرروا حرقها حيّة، إن لم تخبرهم بمكان الكتب .. خشت أن تعترف تحت وطأة التعذيب والتهديد بالحرق أن الكتب لديها .. لكن شيءً من هذا لم يحدث.



تحملت ((سليمة)) ويلات التعذيب لأسابيع مُتتالية، وأمام عنادها وقوة تحملها يأس القشتاليين من الحصول على أعتراف منها بمكان الكتب والمخطوطات فإتخذوا فيها قرارًا .. أطلقوا مُنادٍ يصيح في الناس بأن يجتمعوا في ساحة المدينة، ثم بدون شفقة أو إنسانية وبجبروت ليس له مثيل، قاموا بحرقها حيّة أمام أعين الناس، كجزاءً لها لأنها لم تشِ بمكان الكُتب ولتكون عبرة لمن لديهم كتب ومخطوطات ..

ظلّ الصندوق مُختفيًا لعقود بلغت فيهم ((مريمة)) من العمر أرزلهُ، وهنت وازداد ضعفها هي الأخرى ثم شعرت بأقتراب نهايتها، كان لها مِن أبنتها ((عائشة)) شابًا مُقاتلًا يُدعى ((عليّ)) تتوسم فيه الخير وبخبرة السنوات الطوال التي عاشتها، كانت تعرف أنهُ شهم، يُعتمد عليهِ، لذلك طلبت أن تجتمع بهِ، أخبرته بقصة صندوق الكتب والمخطوطات من البداية إلى النهاية، وما كان في الماضي بسببها وكيف أفنت جدتهُ ((سليمة)) حياتها من أجل الحفاظ على وصية جده الأكبر ((أبو جعفر)) وكل ذلك في سبيل الحفاظ على الكتب والمخطوطات، بعد ذلك أوصته عليه وأستحلفته بالله وبالأرض أن يصون الوصيَّة .. كان يافعًا من المحاربين الأقوياء، عرف عنه شجاعته وبسالته في قتال القشتاليين، وكان يدرك جيدًا معنى أن تختاره الجدة دون أيًّا من أخوته، في نهاية الأمر أخبرته وصيتها وهي تعطيه بعض أكياس النقود، قالت له أن لديه مهمةٌ ثقيلةٌ للغاية، عليه أن يكُف عن قتال ((القشتاليين)) فقد إنتهت الأندلس ولن تقوم لغرناطة قومة أخرى، لذا عليهِ أن يجاهد بطريقة مختلفة، هذه الطريقة تكمن في إستخدامه للنقود التي اعطتها إليهِ في السفر بالصندوق للمكان الأكثر أمنًا على الأطلاق، مسجد الأزهر الشريف في القاهرة ((مصر)).

❋❋❋



رحلت ((مريمة)) إلى السماء، تركت الصندوق أمانة مُعلقة في رقبة حفيدها، الذي ظل محافظًا عليه داخل ((غرناطة)) لبعضُ الوقت حيث كان يقوم بتجهيز حاله والإعداد للرحلة الطويلة .. ما إن أتم إعداداته خرج من ((غرناطة))، وعبر الجبال الحادة والمنحدرات الصعبة تسلل حاملًا صندوق جدته، لكن قطيعًا من القشتاليين التقوا به، وشكوا في أمره فهاجموه، أثناء هروبه منهم فقد أمواله كاملة، لكنه في النهاية نجا منهم بالصندوق ووصل إلى الشاطيء .. ثم وقف منتظرًا اقتراب السفينة، وأمامه الصندوق، مغلق على الكتب والمخطوطات وشيء من رائحة غرناطة والبيازين وعين الدمع، وقف يحدق في موج البحر، يعلو ثم يهبط، ويدنو ليلامس الأرض في رفق لحظة اللقاء، تشرد عيناه في المدى، يقول في نفسه، أخيرًا سأُحقق وصيّة الجدة ((مريمة)) وأنقل الكتب.

***

تحركت السفينة من فوقها ((عليّ)) الذي أتكأ بكلتنا يديه على الصندوق يحتضنه ويحتضن رائحة آخر ما تبقى له من أحبابه، كان ينظر إلى الشاطيء وهو يبتعد بعينين لامعتين بالدموع، مودعًا غرناطة والبيازين وعين الدمع، يتذكر كل درب وشارع وحانوت، تاركًا خلفه قبر جده ((أبو جعفر)) وجدته ((سليمة و مريمة))، وكذا أصدقائه من المجاهدين في جبال الأندلس، كانت السفينة تبتعد عن الشاطيء وهو يتمتم في نفسه :((اليوم .. لا وحشة في قبر مريمة)).

***

نزل في المدينة الجديدة، كانوا قد أطلقوا عليها ((شفشاون))، وكانت قد تأسست سنة 1471م، على يد ((علي بن راشد))، يقال عنه واحد



من الأولياء الصالحين، أسس المدينة بغرض ايواء مسلمي ((الأندلس))، بعد طردهم من طرف القشتاليين.

كان في احتياج شديد للعمل بعض الوقت، بغيَّة جمع أموال بديلة للتي فقدها، كي يستطيع أن يُكمل رحلته الطويلة إلى ((مصر))، أثناء بحثهِ عن العمل عرض عليه أحد من تعرف عليهم فوق ظهر السفينة فرصة عملٍ في الشمال من ((شفشاون))، وافق على الفور وذهب برفقتهِ .. ظل هناك لشهور طوال، عمل حدادًا في ورشة لتصنيع السيوف والخناجر كانت تصدر أسلحتها للمجاهدين في الأندلس، أثناء هذه الشهور لم ينسى جدته ووصيتها مُطلقًا إلى أن حلّ عليه الحب، فقد وقع مُغرمًا في أبنةُ صاحب الورشة، أُعجب وتعلق بها دون أن يشعر، كان صاحب الورشة من قبيلة هي الأكبر في المدينة، قبيلة ((بني حسان))، وهي واحدة من أكبر وأعرق القبائل العربية، التي تسكن شمال ((شفشاون))، حيث يعود أصلهم و نسبهم الي الجعافرة، نسبة إلي ((جعفر بن أبي طالب)) رضي الله عنه.

بعد شهور كان قد صارح والد الفتاة بما حمله في قلبهِ تجاه أبنته، كان الرجل مريض يعاني من الآم مفرطة ويشعر أن نهايته وشيكة، ولم يكن لديه من الأبناء سوى الفتاة نفسها، وكان قلقه عليها ق بلغ منه مبلغه، ولَمَّا رأى في ((عليّ)) الشهامة والقوة التي تجعله يأتمنه عليها، زوجها له.. ولم يعش بعدها كثيرًا، مات وتركهُما معًا، فورثاه وورث ((عليّ)) حملًا ثقيلًا يكمن في إكمال مسيرة صهره بتصنيعه للأسلحة وتوريدها للمقاتلين في الضفة الأخرى، وأمام ما وجد نفسه فيه أخذته السنين .. شغلته عن مهمتهُ مهمة أُخرى، لكن ما هون عليه الأمر هو أعانه أبناء القبيلة له على العمل، أعتبروه واحدًا منهم، مما جعله يرى فيهم الأصالة والعراقة،



كان يُعزي نفسه بالقول أن الصندوق بما يحويه من الكُتب والمخطوطات عندهم في أمان، لذلك لم يكمل رحلته. ظلَّ بينهم لسنوات طوال، رزق فيهم بثلاثة من البنات، وأصبحت له عائلة ومكانة كبير بين أهل زوجته في القبيلة.

بعد سنوات .. مات ((عليّ)) في شمال ((شفشاون))، وبقي الصندوق بما يحويه من الكتب والمخطوطات لدى زوجته التي أوصاها قبيل موته بالمُحافظة عليه ومحاولة إكمال مهمته وإرساله إلى ((مصر)) بعد أن قص عليها القصة كاملة كما حكتها له جدته ((مريمة)).

كانت الزوجة أصيلة وزكية للغاية أيضًا.. فلم تحافظ على الكتب والمخطوطات داخل الصندوق فقط، إنَّما أخرجتهم وجعلت بناتها الثلاثة تقرأهم، وتحفظهم عن ظهر قلب، ثم في نهاية حياتها أورثتهم الصندوق بما يحويه، وأوصتهم أن يفعلوا بالصندوق والكتب ما فعلته معهم، ومن وقتها أصبحت مُهمة لدى النساء في قبيلة ((بني حسان))، أن يتوارثوا الصندوق وما يحويه من كتب ومخطوطات بجانب أن يجعلوا أبنائهم يدرسونها .. وظلّ الصندوق طوال خمسة قرون كاملة متوارثًا بين نساء القبيلة إلى أن وصل إليها .. إلى الجدة.. عجوز الدار.

***

اسمُها ((حسيبة))، معناه بالمغربية الغالية الكَريمة ذات الشَّرَف الثابِت و الأصل العريق .. قصيرة القامة، مُمتلئة قليلًا، بيضاء بشرتها كالثلج، قلبها نقيٌ كاللبن، لها عينان زرقاوان تشبهان زرقة البحر، كانت شديدة العافية رغم أنها قد وصلت منتصف الستينيات من عمرها.

تَنَفَّس الصُّبْحُ .. دقت الساعة معلنة تمام الثامنة .. عندها أسرعت بالخروج من المنزل وقد حملتني برفقٍ ولطفٍ بين يديها واضعةً إيَّايَ فوق



قلبها مباشرةً، وقد اعترتها حالة من البهجة والسعادة الواضحة تمامًا على وجهها، توجَهَت برفقة والدي السيد ((جمال الدين)) صوب مكتب توثيق المواليد الخاص بالمدينة، وكان يبعد مسافة قليلة تُقطَع مشيًا على الأقدام في دقائق معدودة.

سارت في الشارع توزع الصدقات والإبتسامات على الفقراء والأغنياء، حتى وصلت مكتب التوثيق .. في الداخل .. بيد موظف مرتعشة وصل نهاية الخمسينيات من عمره، بدت في ملامحه آثار المشيب قبل أوانها بأوان، دُوِّن في شهادة ميلادي أني أُحضرت دون رغبة مني لهذا العالم في اليوم الأول مِن إبريل للعام 1988م، وقد كانت ليلة شتوية قارصة البرودة تمامًا كهذه الليلة.

دُوِّن أيضًا في ذاكرتي بعشيَّة مثيلتها من الليالي للعام 2000م،أنني قد أتممت اثنى عشر ربيعًا من العمر وقد كانت ليلةٌ حافلةً للغاية، تقاسمت فيها شيئًا من السعادة مع ((جميلة)) شقيقتي التي سبقتني للحياة بثلاث سنوات، وبينما مَرَّ الوقت سريعًا وخَيَّمَ الظَّلَامُ عَلَى المنزل أوى كل شخص منا إلى غرفة نومه، وما إن ساد السكون وبدا لي أن الجميع دخلوا في نوم عميقٍ اطمأن قلبي أن أحدًا ما لن يمنعني عمَّا أُريد فعلَهُ، فنهضت عن السرير أتسلل ببطءٍ وحذرٍ خشية أن تلاحظني ((جميلة)) النائمة على سريرٍ آخر في نفس الغرفة.

خرجت من باب الغرفة إلى ممرٍ صغيرٍ يفصل بين غرف المنزل، أكملت تسللي بحرص في اتجاه السطح المطل على البحر مباشرةً، حيث كانت عجوز الدار ذات الأيدي المجعدة والعينين الزرقاوين التي تبدو لي دائمًا كماسات بلورية مشعة، تجلس كعادتها وحيدة، تبدو خائبةٍ كخيال ظلٍ مُنْزَوٍ في أرض بور لا يدخلها بشر أو طيور، كعادة لياليها تضع إلى



جوارها بعض الكتب والروايات القديمة التي تخرجهم من الصندوق، تقرأ فيهم تارة وتترقب تحركات النجوم في السماء تارة أخرى، تسللت نحوها ببطء ثم آويت إلى حُضنها، التفتت إليَّ مبتسمة وكانت تعلم مُسبقًا بحضوري إن لم تكن تنتظره كعادة كل ليلة، وبينما مدت يدها ورَبَّتَت على شعري بلطفٍ سألتها هامسةً في براءة:

- أراكِ خاللتي النجوم يا جدتي، فما السبب؟!.

فَتَبَسَّمَت وردتْ قائلة :

- كنت صغيرةً عندما سمعتُ أحدهم يُردِّدُ أن من يموت تتحول روحُه إلى نجمة تسكن سماء الله إلى يوم الحساب، وقد عاهدت جدك منذ زمنٍ طويلٍ أن أظل قربه حياةً وفناءً، لذا منذ رحيله عكفت كل ليلة أن آتي هنا لأكون معهُ، رحم الله جدك كان شهمًا لا يُنسى.

كنت أنصتُ إليها بشغفٍ عندما تنهدت وهي تنظرُ نحو السماء قبل أن تتابع حديثها بعينين ترقرق فيهما الدمع وقالت:

- منذ رحل جدك عني بهت لون الحياة في عيني، فشعرت بأنني غريبة في هذه الحياة، والأرض!! الأرض أصبحت ضيقةً عليَّ بدونهِ، رحيله كان أشبه بجلمود صخرٍ حطَّهُ السيلُ على صدري فأهلكه وجعًا وحزنًا وتركه في وحدةٍ موحشة.

لثوانٍ قليلةٍ..شردت بعينيها الزرقاء اللامعة بالدموع، تنظر إلى البحر تارة وإلى السماء تارة أُخرى، بدت لي وكأنها تبحث عنه بين أمواج البحر أو وسط النجوم في السماء، تبحث عنه لعلها تراه.

شردت لدقيقة كانت فيها صامتةً ثم عادت مجدَّدًا تتحدثُ إليَّ مرة أُخرى، في هذا المرة لم يكن الحديث عن جدي أو إحدى قصصها



القديمة المحببة إليَّ، إنمَّا عن ذكرى ليلة ميلادي، بدت لي كأنها تهرب من ذكرياتها الموجعة نحو ذكرياتها المبهجة، بدأت تسرد عن ليلة الأول من »إبريل« للعام 1988م، تكلمت متنهدةً تسترجع شريط الذكريات في رأسها بصوتٍ ملأه الشجن وبدت فيهِ جرعات حُبٍّ مُضاعفة وهي تقول :

- كان يومًا غريبًا.. غريبًا للغاية.. كنُا في بداية إبريل وقد حلَّ الربيع ورحلت شتاءٌ كانت الأقسى من ضمن سنواتٍ سبقتها، أمَّا عن نهاره فقد كان حارًا تزينه الشمس كأنه يوم صيفٍ قائظ من شهر يوليو، لكن سرعان ما حَلَّ ليلُه وتبدل الطقس فتراكمت الغيوم الداكنة المحملة بالأمطار وسط السماء، ثم بدأت الأجواء تتغير رويدًا رويدًا.

توقفتْ قليلًا عن التحدث .. رفعت رأسها ببطءٍ تنظر تجاه السماء الصافية تتأملها قبل أن تغمض عينيها للحظات بدا فيها أنها تسترجع شريط الذكريات ..ثم تنهدت وهي تقول:

- هبَّت رياح صرصر عاتية، انهالت معها أمطار غزيرة مصحوبة بهزيم رعدٍ تجزع له الأبدان، ثم ازدادت برودة الهواء ورطوبة الجو .. أجواء جعلت أهل المدينة جميعًا يفزعون داخل منازلهم، هزيم الرعد كان مدويًا يشق السماء.. كان مخيفًا .. مخيفًا للغاية.. يتزايد ويتردد كل بضع ثوانٍ، وامتزاج البرق بالرعد مع أصوات اضطراب الأمواج على الشاطيء كان جديرًا بخلع القلوب، مما جعل الجميع يحبسون أنفاسهم خوفًا، ما نامت السماءُ ليلتها مَطَراً أَو بَرْقًا، وما زاد الأمر صعوبة علينا أنه وفي وسط تلك الأجواء المربكة كانت والدتكِ تعاني من آلام الولادة حيث اللحظات الأخيرة قبل ميلادك، وبرحمة الله كان الأمر يسيرًا للغاية فما احتجنا لطبيبٍ أو معينٍ غيره سُبحانه، فوضعتكِ أُمُّكِ ((فطوم)) عند



الفجر آمنـةً في سـلام، جئتِـي وجـاء معـك الهـدوء، فمـع أول صرخـةٍ بـكاءٍ منكِ في الدنيـا توقـف الرعـد وغابـت الريـاح لمستقر لهـا، تضائلـت الأمطـار رويـدًا رويـدًا إلى أن تلاشـت تمامًـا فشـعرنا برحمـة الله ومَنَّـهُ علينـا فأسـميتك ((منـة الله)) ولقبتـك بـابنة السـماء، فـوالله بـدا لي ليلتهـا كأن السـماء هـي التـي تعـاني آلام المخـاض وليسـت ((فطـوم)).

رحـم الله الجـدة عجـوز الـدار ((حسـيبة)).. كانـت رفيقـة للكتـب مُتيمـة بالقـراءة، وكانـت صداقتهـا للكتـب قـد جعلتهـا تتجمـل بقلـبٍ مـليءٍ بالمحبـة والسـلام، وروحٍ مليئـةٍ بالبهجـة.. كانـت تخبرني دائـمًا :

– أنـتِ شَـفَّافَة كجنـاح فراشـة، أليفـة كقطتـك، فـلا تجعـلي قلبـك الصغـير يحـترق قبـل الأوان.

فابتسم ببراءةٍ غير مبالية ..

فتعود وتقول بحزنٍ ممزوجٍ بالأسف :

– مـع امتـداد سـنوات العمـر، سـيتحول الانسـجام إلى تنافـر، وسـيحل الأسـى محـل الفـرح، وستمسـين وحيدةً..ستمسـين وحيـدةً حتـى إن ذرات الرمـل منكِ تسـخر وتقـول إليَّ تعوديـن، ولـن تجـدي رفيقًـا صالحًـا إلا الـورق.

كنت أسألها :

– أَجَيِّدٌ ذلك أم سيءٌ يا جدة !!.

فترد :

– ربك وحده أعلم يا ابنتي .. ربك وحده أعلم.

لم أفهـم أبـدًا سـبب نبؤتهـا.. كانـت تظـن فيَّ دائـمًا خـيرًا، كانـت موقنـةً طـوال سـنوات عاشـتها معنـا أنني بريئـةٌ لا أصلـح لهـذه الحيـاة، كأنني قديسـة وسـط مدينـة بربريـة ممتلئـةٍ بالهَمَـجْ، وعـلى عكـس مـا كانـت تـراه فيَّ



كانت تشعر بالخوف والقلق دومًا من ((نزار)) ابن العم الأصغر ((زين الدين)) والذي قد سبقني بمجيئه للحياة بعدة أشهر.. لم يكن يشبه لنا في شيء بخاصة الملامح، فقد اشتهرت عائلتنا بأنهم أصحاب البشرة البيضاء الثلجية والعيون الزرقاء، فنحن منحدرون من أصول إسبانية، نحن أبناء غرناطة الأندلسية، بينما كانت له بشرة سوداء وعيونه أيضًا، ربما يميل في الشكل إلى والدته وعائلتها، كانت الجدة دائمًا ما تقولُ عنهُ :

- إنه نزير شُئم وبلاءٍ على ((منة الله)).

وما كنا نُلقي لها بالًا، فنتلقى حديثها إما ضاحكين أو ساخرين من ((نزار)) ظنًا مِنَّا أنه ظِل ((منة الله)) ودرعها الذي يحميها في الحياة متناسين أن بعض الظن إثم إن لم يكن أغلب الظن إثم في هذا الزمان.

***

ولأن الحزن كائن لا مادي، تراه تافهًا وجبانًا، دائمًا ما يسلب مِنا روعتنا وبهائنا، يحتجزنا و يكبلنا، يصنع منا وجوهًا محدقة عاجزة عن التصرف، فقد هاجمنا عندما أُصيبت الجدة بمرضٍ خبيثٍ، أعجزها عن التحرك لفترة ليست بقليلة، قبل أن يتمادى ويهلكها تمامًا، فشحُبت عيناها الزرقاء وانطفأ لونها، ثم انخفض وزنها أكثر من الثلث، كان المرض يأخذ بها يومًا بعد يوم نحو الفناء، بينما اكتفينا جميعًا بمشاهدة ما يحدث في عجزٍ تامٍ عن فعل شيء، كانت أوقاتًا عصيبةً للغاية فلا شيء يفوق ألمه ألم أن ترى محبوبًا لقلبك يصارع المرض وحده بينما تكتفي أنتَ بدور المشاهد العاجز.

ظنَّت الجدة ((حسيبة)) في أواخر أيامها أن حياة الطيبين انتهت، والعالم تحول لغابةٍ كبيرةٍ يتلاشى فيها الأمان رويدًا رويدًا، بينما آمنت بالعكس، بأن هناك خيرًا وفيرًا، وكيف لا أؤمن بالخير وقد ولدت في



مدينة مغربية عظيمة كالمدينة الزرقاء، مدينة السماء ((شفشاون))أرض الأبطال، بتاريخها وروعة مظهرها، تلك المدينة الساحرة من أقصاها في الشمال إلى أقصاها في الجنوب، والتي تتزين شوارعها، ومتاجرها، ومدارسها ومساجدها باللون الأزرق المبهج وما كان الأزرق في شيء إلا زانه، غير أنها مُطلةٌ على البحر المتوسط بساحلٍ طوله يفوق 120كم مما جعلها تتشابه كثيرًا بقطعةٍ من السماء الصافية..ثم أنني انتسبُ إلى قبيلة ((بني حسان)) وأصل عائلتي بين ((غرناطة الأندلسية)) أرض التاريخ والعراقة، و ((شفشاون)) أرض الأبطال ذات التضاريس الصعبة والانحدارات المفاجئة والأودية المنخفضة والانكسارات الحادة التي تصنع منا نحن أهلها أشداءًأقوياء لا نهاب شيء، ويكفينا فخرًا أن ((شفشاون)) تاريخيًا رَحَبت بالإسلام والمسلمين دون حربٍ معهم، فقد فتحت أبواب حصونها المنيعة منذ مئات السنين للفاتحين العرب كالقائد الإسلامي العظيم ((موسى بن نُصير)) و الذي بنى مسجدًا له بقبيلة ((بني حسان)) شمال غرب ((شفشاون)) ، وكذا القائد البطل ((طارق بن زياد)) الذي لا يزال هناك مسجدًا يحمل اسمه بقرية الشرفات حتى اليوم.

غير أنني كنت أحيا في هناءٍ وأمانٍ، ورغم صغر السن إلا أنني كنت وريثة صندوق الجدة وشبيهتها في محبة الكتب، كنت متيمة بالقراءة، أرافق الكتب والروايات القديمة، أتعلم من الأدب العالمي والمحلي ولا أكتفي من قراءة الكتب والمخطوطات في الصندوق، لم يكن لدي شغفٌ بالعلاقاتِ والاصدقاءِ أو الألعاب كباقي الأطفال، كنت أرى أصدقائي الحقيقيين هم الكتب وقطتي الصغيرة ((منكوشة)).

كل هذه الأصالة في العائلة وهذا الجمال في المكان ومرافقة الكتب،



كانـوا دافعًـا قويًّـا لِأَنْ أعشـق الحيـاة وأتفـاءل بـأن هنـاك الكثـير مـن الملـذات والطيـب كفيلـين بـأن نعيـش في سـعادة وهنـاء، لكـن كل هـذه المزايـا وكل هـذا التاريـخ لم يكـن ليقـف أمـام القـدر، خطـة الله المرسـومة لنـا، فنحـن شـئنا أم أبينـا سـوف نواجـه الكَبَـد، هـذا وعـد الله، سـوف نواجـه الصعوبـات وبعـض مـن الأشـياء المقـدرة التـي لـن نفهـم أسـبابها في وقتهـا، ربـما نتفهمهـا لاحقًـا وربـما لا نتفهمهـا أبـدًا، لكـن تبقـى الخـيرةُ دائـمًا فيـما يقـدره الله لنـا .

***

مضـت ثلاثـة شـهورٍ صعبةٍ، قبـل أن يأتـى أمـرُ الله، ليلـةٍ بمثابـةٌ البدايـة لتدابـير القـدر، كنـتُ و ((جميلـة)) بمرافقـة الوالـدة ((فطـوم)) والجـدة ((حسـيبة)) قـد اجتمـع أربعتنـا في رواق المنـزل نشـاهد برنامـج المسـاء، نتبادل أطـراف الحديـث كعـادة كل ليلـة وخاصـةً الليـالي الأخـيرة، كنـا قـد اعتدنـا مجاورة الجـدة نحـاول تسـليتها وتخفيـف حـدة المـرض عنهـا فقـد أحضـر لهـا والـدي فراشًـا إضافيًـا خاصًـا بهـا، وضعنـاه في رواق المنـزل لتكـون نهـارًا بالقـرب مِنَّـا دائـمًا ثـم في الليـل نقـوم بنقلهـا إلى غرفـة نومهـا ونتبـادل المبيـت معهـا لمراعاتهـا، كانـت الجـدة قـد طلبـت مـن والـدي أن يحضـر حطـب التدفئـة ثـم يَرُصُّـهُ متسـاويًا أسـفل فراشـها في الـرواق ويضـع بجـواره صنـدوق الكتـب والمخطوطـات، تقـول: هـو مـيراث ((منـة الله)) فـلا يقـترب منـه أحـد سـواها، وتوصينـا مهـمًا حـدث ألَّا نتخـلى عـن الصنـدوق والمنـزل.

لم نكـن نفهـم مغـزى قولهـا، كنـا نظنهـا تهـزي، كنـت لحظتهـا قـد انزويـت في ركـنٍ مـن الـرواق محتضنـةً قطتـي ((منكوشـة))، وإذا بالوالـد ((جمـال الديـن)) يدخـل علينـا، وجهَـهُ مُتهلِّـلٌ كأَنَّـهُ بُـشِّرَ بزيـارةٍ للَجنَّـة، كان قـد عـاد لِتَـوِّهِ مـن أقـصى جنـوب المدينـة حيـث مقـر عملـه، و قبـل أن نتسـاءل عـن سر ملامحـه الممتلئـة بالبهجـة الشـديدة، بـدأ يـزف لنـا خبرًا عَلِـمَ بـه قـد أَسـعدهُ،



لقد اختارته الشركة التي يعمل بها للسفر إلى ((مصر))، أرض الله كما كان يقول عنها دائمًا، حيث تم تعيينه مرافقًا للبعثة الاستكشافية في منطقة الأهرام الأثرية، وأمام شغفه ومحبته لعمله كجزء من فريق يبحث عن الآثار القديمة ويكشف أسرار التاريخ بدا موافقًا مستعدًا لذلك، تهلل وجه الجميع فرحًا لفرحته لكن للأسف ((ليس كل ما يتمناه المرء يدركه)) لم تفرح ((فطوم)) معنا، ولم تعطهِ فرصةً ليفرح كثيرًا بالأمر، حيث كان لها رأيٌ آخرٌ، وبدا ذلك في الوجوم الذي حلَّ عليها بعدما سمعت الخبر، وتأكد بوضوح عندما انسحبتْ من الغرفة متوجهةً نحو غرفتهما الخاصة وهي تطلب منهُ برفقٍ و ابتسامةٍ لطيفةٍ قد بدت مصطنَعَةً للغاية أن يلحق بها لتبديل ملابسه، بدوره لم يتأخر عن تلبية طلبها، سعى خلفها إلى غرفتهما، علمت بعد ذلك أنها أبلغته برفضها وأنها أردفت تسأله :إن رحلنا فماذا عن والدتك المريضة لمن سنتركها؟! وإن اصطحبناها فكيف لها أن تتحمل مشقات السفر!! وابنتينا!! وتعليمهما!! وأخاكَ الذي يُعاني مع زوجته بعد أن تعرضت لحادث أدى لاحتجازها في المستشفى منذ أكثر من شهر!!.

كان الأمرُ مستحيلًا، وقد أدرك والدي ((جمال الدين)) ذلك جيدًا بعد المناقشة مع زوجته، فارتد خائبًا بعدما سمعه منها، بدا الضيق متمكنًا منه لكونه لا يستطيع التخلي عن كل هذه الأشياء في سبيل محبته لعمله، أو مغامرته بالذهاب إلى حلمه، لكن علينا جميعًا أن نتفهم أن للقدر طرقًا شتى يتخذها ليتمم مشيئة الله، فلم تمضي أسابيع قليلة وأشتد مرض الجدة، ولكرم الله لم يستمر الأمر طويلًا، فغادرت الجدة ((حسيبة)) عالمنا بسلام، رحلت لأنها كما قالت :

- الأرض أصبحت ضيقةً عليها، والسماء وطن الطيبين.



فارقت الحياة تاركة خلفها جرح كبير في صدر الجميع، كل من شعر بغيبتها تألم،غادرت ولم تترك لنا جميعًا اختيارًا غير الـمُضِيِّ مع أقدارنا، أصبحتُ بعدها وحيدةً تمامًا، لم يتبقَ لي سوى صندوق المخطوطات ومكتبة الكُتب الكبيرة، والقطة الصغيرة ((منكوشة))، التي أصطحبها كل ليلة إلى السطح، حيث كانت تجلس الجدة، أجلس بمرافقتها أقرأ الكُتب تارة وأُراقب النجوم تارةً أُخرى، بينما في الحالتين تتقاطر دموع الفراق على وجنتيَّ حزنًا على رحيل الجدة.

بعد عدة شهورتأخرت الحالة الصحية لزوجة العم ((زين الدين))، لكن الأمر لم يطل، فقد نفذ أمر الله سريعًا وفقدناها، فتضاعفت الأحزان التي اجتاحت عائلتنا الصغيرة.

بعد أيام ..أُتيحت فرصة سفر السيد ((جمال الدين)) من جديد، وأمام هذه الأحزان المتتالية، لم تكن هناك صعوبة في اتخاذ القرار بالموافقة على الرحيل إلى ((مصر))، لكن هذه المرة الأمر أصبح مختلفًا، فلن نرحل مسافرين برفقة الوالد لعدة شهور، أو سنوات من العمل، إنما سنرحل مهاجرين إلى أن يشاء الله، أيضًا لن نكون بمفردنا فقد اتخذ والدي قرارًا باصطحاب عمنا ((زين الدين)) وولده ((نزار)) معنا، لنصبح بذلك عائلة صغيرة مهاجرة نحو أرض الله.





(2)

شـيئان ترافقهـما دون أن تنـدم أبـدًا، كتـاب وحيـوان أليـف، فـالأول يعلمـك الصبر ويعطيـك حياةً أُخـرى فـوق حياتـك، ويعلمـك ألا تخـون، فمـن يقـرأ لا وقـت لديه ليغـدر، والآخَـرُ لا يخون أبـدًا فالحيوانـات الأليفـة أوفيـاء تصـون اليـد التـي تُطعِمُهـا.

همست في نفسي بهذه الكلمات، وأنـا عـلى متـن طائـرة الخطـوط الجويـة المغربيـة، بعـد رحلـة شـاقة بـدأت بقطـع مسـافة 150 كـم مـن مدينـة السـماء ((شفشـاون)) إلى مطار((ابـن بطوطـة / بوخالـف الـدولي)) في ((طنجـة))، قبـل أن نستقل الطائـرة المتوجهـة إلى ((مـصر))، التـي قضينـا فيهـا مـا يقـرب مـن أربـع سـاعات كاملة قبل دخـول الأجـواء المصرية، كانـت رحلـة مُرهقـة للغايـة، هونتهـا علـيَّ الصغيرة ((منكوشـة))، التـي احتَضَنتُهـا طـوال رحلتـي، متشـاركين في مشـاهدة الغيـوم مـن نافـذة الطائـرة، إلا أنهـا فجأة أثنـاء الرحلـة بـدأت في المـواء وهرولـت بغرابـة بـين ذراعـيَّ، التفـتُّ إليهـا، وجدتهـا منزعجةً مـن كتـابٍ تحتضنـه ((جميلـة)) الجالسـة بالجـوار سـاكنة كالأمـوات، كانـت تخـوض في نـوم عميـق، وكان الكتـاب عـن ((مـصر)) القديمـة، منقوشًـا عليهِ صـورة تمثـال لامـرأةٍ بـرأس قِـطٍّ مدبـوغ باللـون الأسـود، كانـت قـد اشـترته مـن مطـار ((بـو خالـف الـدولي)) قبـل أَن نصعـد إلى الطائـرة.

مـددت يـدي برفـقٍ اسـتعرتُ الكتـاب مـن بـين يديهـا دون أن تشـعر،



فَتحتُهُ وبـدأت أتصفحُـهُ لأجـد فيـهِ بعـض المعلومـات المثيرة عـن القطـط، حيث ذكـر الكاتـب أن أعـمار القطـط قـد تمتـد حتى ثمانيـة عـشر عامًـا، و أن قدمـاء المصريـين هـم أول مـن استئنثوا القطـط في العـام 3500 ق.م تقريبًـا، ومعلومـات أُخرى كثيرة عنهـا ورغـم أن هـذه المعلومـات قـد تبـدو مثـيرة إلا أنني لم أهتـم لهـا بقـدر اهتمامـي بمقولـة دَوَّنهـا أحدهـم في بدايـة الكتـاب يقـول :

- ((كُل بلدٍ في عين أهلهِ مصر)).

في بدايـة الأمـر لم أفهـم المعنـى، أو في الحقيقـة لم أفهـم المغـزى في أن يـرى الغربـاء في ((مـصر)) بلدهـم الأخـرى، لمـاذا ليسـت وطنـي ((المغـرب)) مثـلًا؟!.

***

أثنـاء الخـروج مـن المطـار، كنـت أدفـع حاملـة الشـنط مـع ((جميلـة))، عندمـا سـقطت عينـي عـلى لافتـة كبـيرة زرقـاء اللـون، مُعلقـة عـلى جانـب الممـر المـؤدي لصالـة الوصـول الرئيسـة، كُتِـبَ فيهـا : ((ادْخُلُـوا مصر إِن شَاءَ اللهُ آمِنِـينَ)). سـورة يوسـف آيـة (99). كانـت هـذه الآيـة بمثابـة جـزء أول مـن الإجابـة عـلى تسـاؤلي السـابق..وقتهـا شـعرت بـشيء مـن الأمـان يـسري في عروقـي، فـأي كلامٍ بعـد كلام الله يُأخـذُ؟!.

خـارج المطـار.. اسـتقبلنا منـدوب الشركـة التـي يعمـل لهـا والـدي لإنهـاء الإجـراءات اللازمـة، ومرافقتنـا لبعـض الوقـت للتعريـف بالأماكـن التـي سـنزورها، أو نسـتقر فيهـا وكيفيـة الوصـول إليهـا .. كان شـاب في بدايـة العقـد الثالـث مـن عمـره، لـه ملامـح مألوفـة، ذا بـشرة سـمراء وبنيـة قويـة، بـدا لي كأنـه حـارس خـاص أكثـر مـن مجـرد موظـف اسـتقبال.

بيسرٍ تـامٍّ، أنهـى جميـع الإجـراءات، بعدهـا انتقلنـا برفقتـه إلى مقـر السـكن



الذي قد وفَّرته لنا الشركة، كانا شقتين متواجهتين في عِمَارَة كبيرة تتوسط ((شارع العريش)) ذلك الموجود في ((حي الهرم)) والذي يصل بين شارع الهرم الرئيسي وشارع الملك فيصل، في اعتقادي أنه قد تم اختيار المكان بعناية فائقة كي يكون بالقرب من منطقة الأهرام الأثرية، حيث ستتواجد البعثة الاستكشافية، فقد كان هذا المكان يبعد تقريبًا عن منطقة العمل مسافة 20 دقيقة أو أقل.

مرت أيام قليلة عكفت فيها على مراقبة الأماكن القريبة، المحلات والأشخاص في الشوارع، وكذا البحث عن المكتبات وخاصة مكتبة ((مصر العامة))، كنت قد سمعت كثيرًا عن تنوع الكتب فيها، وهنا اكتشفت الجزء الثاني من الإجابة ومعنى ((كل بلد في عين أهله مصر)). لقدوجدت أن أهلها مُمتلئين بالطيبة الحقيقية، كل قلب أبيض تكسوه البساطة، كل وجه أسمر تكسوه البشاشة هو وطن يحتضنك بابتسامة صافيةٍ، لا تشعر مُطلقًا أنك غريب وسط أهلها، وبينما يقال إن في كل وطن طيبين وأشرار، تجد أن الأمر مختلف في ((مصر)) أرض الله، الجميع هنا طيبون بطريقة ما، وإن وُجِدَ بينهم أشرار فكن على علم بأنهم لم يُخلقوا هكذا، إنما دُفِعوا بشدة لذلك وما دفعهم إلا الفقر والجهل وقلة الحيلة، وإن بحثت في أعماقهم سوف تجد الكثير من الطيبة والرأفة مختفية بالداخل تبحث عمن يزيح عنها أتربة الجهل والسواد، والأجمل أنه لا مكان للطائفية هنا حتى إنك لا تستطيع أبدًا التفرقة بين مسلم ومسيحي فالجميع تجمعهم السماحة وطيبة القلوب والرضا، الكرم صفة تشعر كأنها ولدت معهم، و ((شارع العريش)) ذاك المزدحم ليلًا ونهارًا لا يهدأ أبدًا، يشعرك بالكثير من الأمان، فالناس هنا لا ينامون، في الصباح الباكر يرتفع صوت القرآن في المحلات، و ما أن تشرق الشمس



تجد الـمُسِنَّين ((عم رؤوف)) وزوجته ((أُم بربارة)) يفتحا متجرهما لبيع الحلوى، فيشرع العم في تشغيل أغنيات السيدة ((أم كلثوم)) طوال النهار باستثناء أوقات الصلاة احترامًا لجيرانه و أصدقائه من المسلمين، كنت أخرج عند كل صباح لشرفتي أترقب الناس وهم يستمتعون بصوتها، وكأنهم سُكارى في حبها، أمَّا زوجته فكانت تبدأ بسرعة في صناعة حلوتها اللذيذة وبخاصة ((الشباكية)) كما يطلق عليها بالمغرب أو كما يطلق عليها عند المصريين ((الزَلابِيَةٌ)) وهي عجين على شكل حلقات متصلة، يقلى في الزيت ويعقد بالمربى أو بالسكر أو بالعسل وهي بالمناسبة حلوتي المفضلة منذ كنت في ((شفشاون))، وقد سعدت كثيرًا عندما وجدتها عند الخالة ((أُم بربارة)).

بعد ثلاثة أسابيع من الوصول زُرنا مدينة ((القاهرة))، عاصمة مصر، وصدق من أسماها القاهرة الكبرى، فأنا لم أرَ مدينة بحجمها مُطلقًا، كنت قد رأيتها مرارًا وتكرارًا في الأفلام، وقبل الأفلام أَلِفْت الاسم وبعض صفاته من الجدة ((حسيبة))، كانت تقول سمعت كذا و كذا من إذاعة القاهرة، وتغني لأُم كلثوم و عبد الحليم، كما يحكي والدي ((جمال الدين)) دائمًا أنهم قد اكتشفوا كذا وكذا في ((الجيزة)) أو ((الأقصر)) ثم يذكر القاهرة، وكنت فرحة للغاية برؤيتها في الحقيقة.

ولأن الأوقات الهادئة المطعمة بالأمان والسعادة وشيء من المحبة غالبًا ما تنفرط من بين أيدينا كالماء، فتمر بسرعة دون أن نشعر بها.. مرت أربع سنوات ..أصبحتُ فيهم فتاة السابعة عشر، مضت السنوات كارتداد طرف عين لموضعه، أو كالتفاتة أحدهم هاربًا من الشمس إلى الظل رغم كثرة الأحداث فيهم.



خلال هذه السنوات التحقت و ((جميلة)) بمراحل التعليم في ((مصر))، بل وتفوقنا فيه، امتزجنا بالمصريين وتطبعنا بطباعهم، أتقنَّا لهجتهم بالحديث، استطعمنا مأكولاتهم .. ببساطة أصبحنا كقطعة منهم حتى إنني تعودت عند كل صباح النزول إلى ((أُم بربارة)) أشتري منها ستة قطع من الزلابية بعدد عائلتنا الصغيرة المكونة من ((عمي زين الدين، وابنة نزار، وأنا وجميلة، ووالدينا))، كان ذلك لفترة سنتين متتاليتين حتى توفى العم ((زين الدين)) فجأةً في نهاية السنة الثانية من مجيئنا الى مصر، رحل تاركًا في صدر والدي جرحًا كبيرًا الله أعلم بحجم وجعه.

بعد وفاة العم ..اتخذ ((نزار)) مسارًا غير مناسب لنا، تصاحب على الكثير من السيئين وتطبع بطباعهم، خسر كل ما تركه له والده، تسبب لنا في كثير من المشاكل، حتى إن والدي هو من تكفل بتعليمه الذي تركه لاحقًا بحجة أنه سوف يبحث عن عملٍ ما بعد أن كان قد قرر بيع حصته في منزل ((شفشاون))، الذي اشتراه منه والدي، فأعطاه ثمنه الذي بدده بالكامل على أفعاله الطائشة ومراهقته التي لا تنتهي، رغم ذلك استمريت في شراء الست قطع من الزلابية، فقد حل العم ((رؤوف)) وزوجته ((أُم بربارة))، محل العم وابنه، كنت قد تقربتُ منهم كثيرًا، فوجدتهم ممتلئين بالمودة والرحمة، كانت تلك السنوات التي قضيناها في ((مصر)) تبدو كبضعِ بقراتٍ سمانٍ، أو كسنبلات خضر تسر أعين الناظرين وتطمئن بطون الجائعين، أربعة سنواتٍ تُختصَرُ في كلمتين هما أرض الله و أي أمان ومحبة تشبه ما نعيشه في أرض يحميها الله.

في ظل هذا الأمان تمكن من قلبي يقين بأن الحياة هنا نعيمٌ مترفٌ،



لم يكن بالحسبان أبدًا أن تأتي البقرات العجاف وتصنع مِنِّي سنبلة يابسة أو تأتي على كل شيء جميل بحياتي فتنهيهِ، لم يكن هناك من يشير بأن ما أحياه ليس سوى أضغاث أحلام، أو من يخبرني أنه وإن ساءت الأمور لن يأتي من يحمل شيئًا من مروءة ((يوسف)) عليه السلام ليكون منقذًا وأميرًا ويجنب قلبي شر السنوات العجاف.

في النهاية هي حياة .. دُنيا .. الأوقات السعيدة فيها لا تدوم، وهذا ما بدأت أدركه بعد إتمامي المرحلة الثالثة من التعليم أو كما يطلقون عليها في ((مصر))، الثانوية العامة، فقد بات عليّ أن اختار الكلية التي أَودُّ الالتحاق بها، وقد كنت عاشقة للرسم ولطالما مارسته كهواية محببة في ((شفشاون)) عندما كنت صغيرة وحتى هنا في أرض الله بعدما أتينا إليها فاخترت الالتحاق بكلية الفنون الجميلة، لكن للأسف لم يشأ لي القدر ذلك، حيث تدخل والدي رافضًا تمامًا للفكرة، بل إنه لم يتح إليَّ فرصة اختيار واحدة أُخرى، إنما قرر لي أن أنضم لكلية الحقوق.

جاهدت كثيرًا في إقناعهِ بأنني مغرمة بالرسم، إنه موهبتي التي حباني بها الله، إلا أنه أصر على رأيهِ بعنادٍ شديد، معللاً دائمًا بأنه يعلم مصلحتي الشخصية أكثر مني، وأنَّ دارسي القانون أشخاص لهم قيمتهم في المجتمع.

لم يشفع لي توسلي إليهِ، وإخباره بأن كلٌ ميسر لما خلق له، أنهى الأمر تمامًا بخذلانه لي وإلحاقي بدراسة شيء لا أُحبه، تناسى أن هناك عظماء أمثال ((ليوناردو دافنشي)) الذي خَلَّدَ اسمهُ برسمتيه ((الموناليزا ولوحة سيدة الصخور)) وكذا كُلٌّ من((مايكل أنجلو، رفائيلو سانزيو، مونيه كلود اوسكا، فينسنت فان جوخ، بابلو بيكاسو))، هؤلاء الأشخاص الذين حفروا أسماءهم بحروف من نور في صفحات التاريخ، لقد وصلوا لما وصلوا اليهِ فقط لأنهم فعلوا ما خُلقوا من أجلهِ، وما وهبهم



الله المقدرة على فعله، لقد كان قرار والدي محزنًا للغاية وغير مُبرر، كان صادمًا كيف أنَّ رجلًا في مثل عقليتهِ يرتكب فعلًا كهذا؟! في أعماق روحي شعرت بحنقٍ شديد، اعتقدت أنه خذلني، سلبني حق من حقوق حياتي وحريتي، جعلني أخاف مما هو قادم، ومن أن يسلبني شيئًا آخر.

❊ ❊ ❊



(3)

بدأت الدراسة قبل أيام قليلة، لم أخطُ فيهم خطوةً واحدةً تجاه الجامعة، تعمدت أن أتمارض، أستكفي بالاسترخاء على فراشي تارة والوقوف في شرفة غرفتي تارة أُخرى، مصابة بحالة من الكآبة والاختناق، يتملكني شعور بالحنق الشديد كوني أصبحتُ مضطرة لدراسة شيء لا أُحبهُ، إن أبشع مشكلة تواجهها في الحياة تكمن باعتيادك على شيء لا تتقبله، الأمر أشبه بأن يجبرك أحدهم على تناول طعام تكرهه بشدة، فتشعر وكأنه من ضريع أو شجرة الزقوم طَعَامُ الْأَثِيمِ، لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ، تأكله على مضض.

***

- هناك من يود مقابلتك.

جُملة مُقتضبة أطلقتها ((جميلة)) التي فتحت باب الغرفة وأطلت منهُ برأسها فقط لتقولها وتتراجع قبل أن تظهر الخالة ((أم بربارة)) وهي تعبر من الباب بدلًا عنها، كنتُ جالسة أمام شاشة الحاسوب، أتنقل بين مواقع التواصل الاجتماعي المختلفة، أُتابع بعض الأخبار في محاولة مني للتخفيف من حدة التوتر والحنق الذي تملكني مؤخرًا.

كانت الخالة قد لاحظت انقطاعي عن النزول للجامعة منذ بدأ الدراسة، فسألت واستفسرت وعرفت بما كان، لذا جاءت تتحدث إليّ



في محاولـة منهـا أن تقنعنـى بـضرورة النـزول إلى الجامعـة وتكملـة الدراسـة أيًّـا كان مـا سـوف أدرسـه.

في بـاديء الأمـر، تحدثنـا قليـلًا عـن أشـياءً عاديـة ثـم اسـتدرجتني للحديـث عـن أسـباب انقطاعـي عـن الدراسـة، فضفضـت إليهـا، وبكيـت أثنـاء الفضفضـة، قلـت لهـا لا أعـرف كيـف أن رجُـلًا عـلى قـدر كبـير مـن التعليـم، حاصـل عـلى عـدة شـهادات مثـل السـيد ((جمـال الديـن)) ويفكـر بهـذه الطريقـة.

علقت قائلة :

- يـا أبنتـي .. فـرقٌ كبـير بـين التعليـم والثقافـة، والوعـي في التعامـل .. فالتعليـم حفـظ للمناهـج التـي تفيـد في مجـال مـا مـن العمـل .. أمَّـا الثقافـة فهـي حفـظ للكثـير مـن المعلومـات العامـة .. بينـما الوعـي شيءٌ عظيـم، ولا يـأتي إلَّا مـن خـلال المـرور بالتجـارب التـي تـؤدي بنـا إلى النُضـج، الـذي يقودنـا إلى التقـوى وحُسـن التعامـل في الأمـور الحياتيـة.

لـذا قـد تجـدي شرطيًـا قبيـح اللسـان يـروع النـاس رغـم مسـؤليته عـن حمايتهـم، وموظفًـا مُهمـل لا يملـك ضمـيرًا مـع العامـة، وطبيبًـا بقلـبٍ أسـود. بمناسـبة الطبيـب.. سـوف أقُـص عليـكِ شـيئًا حـدث في المـاضي القريـب لا تتخيلـين حدوثـه.

كانـت لـدى جـارتي القديمـة ابنـة شـديدة الجـمال.. لهـا جسـد ضئيـل يـكاد وزنهـا يصـل 50 كجـم، بشرتهـا بيضـاء، لهـا أنـفٌ صغـيرة وعينـان خضراوان، كانـت تـدرس في الصـف الأول مـن كليـة الطـب عندمـا أُعجـب بهـا دكتورهـا في الجامعـة، كان مـن أشـهر الاطبـاء في كليـة طـب القـصر العينـي، لـه عيـادات في أماكـن مُختلفـة، ومكانتـه كبـيرة وسـط الأطبـاء. ورغـم فـارق السـن الكبـير بينهـم إلا أنـهُ لم يتركهـا إلّا وعلـق قلبهـا بـه، ثـم تزوجهـا.



كان قد وصل أواخر الاربعينيات بينما البنت لم تزل في بداية العشرينيات من العمر، وعلى عكس جسدها الضئيل ووزنها القليل، كان الزوج ضخم البنية، طويل القامة، وزنه يتجاوز المائة كجم.

استمر الزواج بينهم ثلاث سنوات كاملة، لم تحمل فيهم البنت، لجأ للوسائل المختلفة في محاولة منه أن يرزق منها بالأطفال، إلى أن أراد الله وحصل على ما تمناه وحملت البنت.

لكن !! جسدها الضئيل لم يتحمل الحمل، خاصة أنها كانت تحمل في تؤم .. في الشهر السادس أخبرته الطبيبة التي تتابع حالة الزوجة، أنّ وضعها خطر للغاية، يجب التخلص من الحمل وإلا سوف يفقد الأُم، وأكدت عليه ضرورة فعل ذلك بأسرع ما يمكن.

علمت الجارة وزوجها بوضع ابنتهما .. قررا التخلص من الحمل لأنقاها .. قالوا : الطريق طويل والفتاة ما تزال صغيرة، يمكنها أن تحمل في أي وقتٍ آخر .. لكن الزوج كان متمسكًا بألا يخسر توأمه من الأطفال.. وقف أمامهم بوجه زينه بالخوف والقلق المُصطنع على ابنتهما، أخبرهما بأنه سوف يتولى الأمر خوفًا على صحتها وسلامتها، أقنعهم بأهمية الزوجة لدية .. ثم أخذها دون علمهم ونقلها إلى مستشفى خاصة، قام باستخدام سلطته ومكانته بإجبار أصحاب المستشفى على رعاية الزوجة، أو بالأصح رعاية الطفلين داخل رحم الزوجة مهمًا كلفهم الأمر حتى لو كان حياة زوجته.

شهر ونصف كانت فيهم الزوجة حبيسة، طريحة الفراش داخل المستشفى، حالتها تسوء يومًا بعد يوم، دون أن يعلم الأهل عنها شيئًا، والزوج في ثبات لا يهتم لشيء إلّا أن يخرج أطفاله للحياة حتى لو فقدت الزوجة حياتها.



في النهاية تسببت الأنانية المفرطة من الزوج، مع قلة الوعي والإنسانية في أن أصيبت الزوجة بنزيف شديد كاد يودي بحياتها، عندما اتصلوا به أخبروه بضرورة التخلص من الطفلين قبل وفاة الأم صرخ فيهم، أخبرهم أنه سوف يتسبب في منعهم عن مداولة مهنة الطب تمامًا إذا فعلوا ذلك. ترك منزله في وقت متأخر من الليل وتوجه إلى المستشفى ليبقى بجانب زوجته التي تموت دون اكتراث لها، فقط يهتم بالأطفال.

لحسن حظ البنت، كانت هناك ممرضة تشرف على حالتها، وتعرف وضعها جيدًا، هي من أشفقت عليها، فأخذت منها أرقام هاتف والدتها ووالدها واتصلت بهما في السر، دون أن يعلم أحد، أخبرتهما بالأمر ومكان ابنتهما، فأتوا إليها وأنقذوها .. لولا هذه الممرضة لماتت المسكينة في سبيل أنانية وجهل زوجها. هل نقول كيف لمثل هذا الطبيب أن يفعل ذلك ؟! لا يا بنتي .. إنما نفهم أن التعليم شيء والوعي شيء آخر، وعليك أن تخاطبي العقول على قدر وعيهم. أيضًا عليكِ أن تتحلي ببعض من الأنانية، فقليلٌ من الأنانية صحي جدًّا، ألا تختزل كامل مشاعرك أو حياتك في شخص، هو شيء صحي جدًّا، التوازن مطلوب بين التضحية لأجل الآخرين والحفاظ على النفس، واعلمي أن أشد أنواع الظلم لنفسك، أن تحترف مساعدة وإرضاء الجميع بينما تخفق في مساعدة نفسك، لذا عليكِ أن تستمري في حياتك، لا تجعليها تتوقف عند سببٍ ما سواء كان خيرًا أو شرًا، فنحن لا نعلم الخيرة في الخير أم في الشر.

***

اقتنعت بما قالته الخالة، قررت أن أتحلى ببعض الأنانية، تحسنت حالتي المزاجية قليلًا بعد زيارتها، و لأنِّي مؤمنةٌ بأن القراءة رئةٌ ثانيةٌ للحياة ومهربٌ من الضيق قضيت أوقاتًا أكثر هذه الفترة برفقة الكتب والقهوة



وشيء من الموسيقى مساءً وصباحًا، فأجدني أحيا بينهم طوال الوقت و حتى أوقاتٍ متأخرةٍ من الليل، لا تغمض لي عين إلا وقد تشبعت منهم، لذا غالبًا ما يمر نصف نهاري نائمة، إلى أن قرأتُ ذات صباحٍ مقالًا قديمًا في جريدة قد صدرت قبل عامين، تحديدًا في العام 2003م، كانت تُشيد بقيام ((ويليام جرانارا)) أستاذ اللغة العربية بجامعة ((هارفارد)) بترجمة رواية تُدعى ((ثلاثية غرناطة)) للكاتبة المصرية ((رضوى عاشور)) إلى اللغة الإنجليزية، وقد قامت بنشرها دار نشر جامعة سيراكوز بنيويورك، جذبني المقال وما كُتب فيهِ عن مدينة ((غرناطة)) أرض الأجداد، فسعيت لاستعارتها خاصةً أنني كنت قد انتهيت من قراءة جميع الكتب التي سبق واستعرتها، وقد حان موعد إعادتها واستبدالها بكتب أُخرى جديدة.

في الصباح توجهت إلى مكتبة الجامعة، بغيَّة الحصول على الرواية، لم أجدها، وجدت أن شخصًا ما يُدعى ((زين)) قد حصل عليها للمرة الرابعة آخرها كان في الأمس، تساءلت في نفسي :

- ما الشيء المثير في الرواية لدرجة تجعل شخصًا ما يستعيرها أربع مراتٍ ليقرأها !!.

كان الفضول ليقتلني لو لم أحصل على إجابة، لذا توجهت نحو أمين المكتبة، وكان موظفًا ذا وجه بشوش وملامح مريحة، أظنه في منتصف الأربعينيات من عمره، سألته عن الرواية، فأخبرني مُجددًا أنه قد أخبرني منذ دقائق قليلة أنها بحوزة شخصٍ ما يدعى ((زين)) بحسب ما أفادت سجلات المكتبة .. سألته :

- إذًا .. ومن هو زين ؟!.

رد مُبتسمًا وقد نظر في الفراغ وكأن طيفه قد حضر في مخيلته :



- زين!! .. إنه أفضل قاريء لدينا، وأفضل شخص تقرأين بعده كتاب، فكل كتابٍ أو روايةٍ يقرأها يترك في نهايته ((Review- مراجعة)) مُفصلة عنه، كيف هي مميزاته، عيوبه، وماذا استفاد منه.

كنت منبهرة بما أسمعه، وددت لو أسأله عن أشياء أُخرى بخصوص ما يقوله لكنني استشعرت الحرج ورأيتُ أن عليَّ التوقف فورًا عن طرح الأسئلة.

تحركت بضع خطوات داخل أرجاء المكتبة، كنت أنوي اقتناء رواية بديلة أُرافقها حتى يُعيد ((زين)) رواية غرناطة.. وبالتنقل بين الكتب والروايات، لاحظت أن معظم الأعمال التي راقتني كان فعليًا قد اقتناها مسبقًا، بدأت أبحث عن المراجعة التي كتبها لكل عمل، وكان رأيه يبهرني جدًا، يجعلني أتساءل كيف يبدو هذا الشخص الذي قرأ كل هذه الروايات.

بعد أيام من الإلحاح المستمر في السؤال لأمين المكتبة عما إذا كانت الرواية قد أُعيدتْ أو لا، فاجأني في أحد المرات بالقول :

- منة الله .. لقد أُعيدت إلينا الرواية التي تبحثين عنها منذ فترة.

توردت ملامحي فرحًا لسماع الخبر، ثم سألته في خجل:

- لماذا يقتني شخصٌ ما، رواية لأربع مرات متتالية ؟!..

- في الحقيقة هو لا يقتنيها لنفسه، لأنه فعليًّا صاحب هذه الرواية وهو من أهداها إلى المكتبة، كان ذلك بعد أن حصل على نُسخةٍ حديثةٍ منقحةٍ تمامًا و بغلاف حديث، إنما يأخذها كاقتراح منه لبعض أصدقائهِ من محبي القراءة، لقد تساءلت قبلك عن نفس الشيء، وكانت إجابته أنه إذا أحب شيئًا ما وَدَّ لو تَشارَكَهُ مع أحبابه جميعًا.



- مُذهل جدًا هذا الشيء.

توجب عليَّ عند هذه اللحظة التوقف عن طرح الأسئلة مرة أخرى، أنهيت إجراءات حصولي على الرواية، وكان أول ما فعلته هو البحث في آخر صفحاتها عن مراجعتهُ لها، رأيه الشخصي الذي كتبهُ فيها.

وجدت ورقة صغيرة كُتب في بدايتها بخط اليد : في غرناطة .. من ذا الذي لا يحب سَليمة و البيازين و سعد؟! لازلتُ أسمع صوت ضحكة مريمة.

ثم أكمل أسفل هذه السطور مراجعة الرواية من حيث الشخصيات واللغة والأحداث وقد انبهرت تمامًا بما كتبه وشعرت بشيء من النشوة والسعادة كوني حصلت على هذه الرواية من بعده.

لعدة أيام عدت إلى المكتبة مرارًا أبحث عن صدفةٍ تجمعني بقارئ الكتب.. كنت أبحث عنهُ على استحياء، فلا أجرأ أن أسأل أحدهم عنه، أدقق النظر في وجوه رواد المكتبة وأتساءل أي شخص منهم يكون زين؟! لكن بلا جدوى.

***

بعد أسابيع .. وقت الظهيرة..كنت قد استفقت من نومي متأخرةً كعادة أيامي الأخيرة، احتضنت ((منكوشة)) وخرجت بها إلى الشرفة المطلة على الشارع .. بدأت كالعادة أتفقد المارة كما اعتدتُّ يوميًا ثم أقوم بإنزال السلة للخالة ((أُم بربارة)) فيها ثمن الستة قطعٍ من الحلوى فتضع لي أربعة وتحصل هي وزوجها عم((رؤوف))على الاثنتين المتبقيتين، كما تعودت مني فقد أمسيت كابنتها ((بربارة)) التي لم أرها حتى الآن رغم مرور أكثر من أربع سنوات على مجيئنا هُنا، كنت أحصل على الحلوى



وأشرع أتأمل المكان فأجده كما هو، المصريون كما هُم لا يتغيرون، يصنعون الضجيج والزحام، ومايزال((شارع العريش)) لا يهدأ أبدًا، نهارًا أو ليلًا، أتابع المارة في الشارع بشغف، أتصفح وجوههم متسائلةً في نفسي عن العجب في أمرهم، الجميع مبتسمون رغم أن كاهلهم قد أُثقل بأوجاع لا تُحتمَل أبدًا، في نفس اللحظات كان يشجيني صوت السيدة ((أم كلثوم)) القادم من محل العم ((رؤوف))، وبينما أسندت كتفي إلى حائط الشرفة، كانت رأسي تتمايل يمينًا ويسارًا مع صوت الأغاني، مُنتشية وأنا أتبسم وأتلذذ بما أسمعهُ، سقطت عيني فجأةً على ((جميلة))، كانت قد نزلت من الحافلة عند أول نَّاصِيَةُ الشارع، وكانت على غير عادة مشيتها البطيئة، تمشي مهرولةً بخطي سريعة، وقد بدت في ملامحها وحركتها أنها ليست على ما يرام، انتبهت لها، دققت فيها النظر أتفحصها وهي تقترب فبدا لي أنها تبكي، وكانت لحظتها قد وصلت إلى مدخل العمارة التي نسكن فيها، هرولت مسرعةً أستقبلها أعلى السلم عند باب الشقة لأجدها بالفعل تخرج من المصعد وهي تبكي، دموعها تترقرق على خديها، معلنة أن خطبًا ما قد حدث .. سألتها بلهفة :

- ماذا حل بكِ يا جميلة ؟!
- لا شيء.
- كيف لا شيء وعيناك مليئة بالدموع ؟!
- لا شيء يا منة الله .. لا شيء.

ازداد بكاؤها قليلاً قبل أن تهرب مهرولةً نحو غرفتنا..

***

في الغرفة ..تسيد الصمت للموقف دقيقة أو ربما أكثر قليلًا، مرت



عليَّ كأنها ساعات، كانت ((جميلة)) تتنفس بغضبٍ وانفعالٍ شديدين، صوت أنفاسها يبدو مقلقًا، انتظرتها حتى هدأت ثم كررت السؤال مجددًا وأنا أُربت على كتفها :

- ماذا حدث ؟! ما الذي يبكيك ؟!

لِمَ كل هذا الغضب والانفعال ؟!.

نظرت إليَّ.. ثم بدأت تقُص عليَّ عن شاب متعجرف مغرور تقابلت معه في الحافلة، بعد أن استقلتها عائدة من الجامعة، لم يعجبها كونه مغرورًا بوسامته وشهرته، فألقت إحدى الدعابات لصديقاتها عنه، ولسوء حظها أنه سمعها، فالتفت إليها ووبخها مما جعلها محرجة تمامًا أمامهم، ولأنها رقيقة كالماء العذب بكت.

أخبرتُها أنها مُخطئة، وأنه ليس شابًا متعجرفًا وإن كان فهي من أخطأت في حقهِ بتدخلها الغير مسبب فيما لا يعنيها، في الحقيقة لا أعرف كيف دافعت عنه منذ اللحظة الأولى دون حتى معرفته، كأن روحي هي التي تدافع عنه من تلقاء نفسها، وقد تسبب ذلك في صراخ ((جميلة)) في غيظٍ شديدٍ، وبدا الضيق واضحًا في ملامحها وهي تقول بحدة :

- لا .. إنما هو حيوان، مغرور، متكبر،

بل إنه لا يعرف شيء عن التربية.

بهدوء مفتعل .. سألتها ..

- هل تعرفينه؟!

- نعم .. إنه ذلك الغبي زين.

مصعوقةً.. كررت السؤال :

- زين!! و من هو زين؟!.



- زين زين زين.. الجميع هُنا يعرفه.

اهتز قلبي وانتفض، وَقْعُ الاسم في نفسي كان غريبًا، مشاعر متناقضة بين الفرح والقلق، الخوف والمحبة، وددت لو أسألها عنه، كيف هو؟ سنه، وزنه، طوله، أو لا داعي لكل ذلك، هل هو قاريء الكتب صديق المكتبة ؟! .. لكني خشيت من ردة فعلها، بدأت أفكر كيف أستفسر منها عنه لكنها لم تعطني الفرصة وفاجأتني بطلبها :

- استعدي لنخرج سويًا.

- إلى أين ؟!

- إلى منزله .. لنشتكيه على ما فعله معي.

نظرت إليها للحظات دون إبداء أي ردة فعل، وددت لو أُخبرها أؤكد أنها هي بالفعل من أخطأت وليس هو، لكن في حقيقة الأمر أشياءً كثيرة منعتني من التحدث إليها، خشيتُ أن أُغضبها أكثر، وأيضًا أردت أن أكون متضامنةً معها، فهي شقيقتي الأكبر كما أنني أردت أن أرى من هو زين هذا، كيف يبدو وكيف يعرفه الجميع.

***

لم يكن المنزل ببعيد، كان في نفس الحي، يقع في شارع مُتفرع من شارع آخر موازٍ لشارع العريش.

عند وصولنا إلي البيت شعرت بشيءٍ من الرهبة، بدا لي أن كل شيء يتحرك بصورة بطيئة، كأن هناك موسيقى تصويرية حماسية تدق في أُذني، لا يمكن لأحد أن يتخيل أن منزلً كهذا متواجد بين شارعي ((الهرم و فيصل)) الذي يضج كل منهما بزحام وحياة روتينية سريعة لا تتوقف أبدًا، وعمارات وأبراج سكنية تبدوا كالوحوش التي قضت على الأخضر



من الأشجار وأحتلت مكانها، كان المنزل محاطًا بسورٍ قصيرٍ من البناء، تعلوه بعض الأسياخ الحديدية، تظهر من أعلاها أغصان أشجار ((الجُهنمية)) ذات الألوان الزاهية المختلفة، داخل الباحة الأمامية توجد أشجار متنوعة من البرتقال والليمون والزيتون وبعض النخيل.

سألنا المرأة الجالسة عند الباب عن إمكانية التحدث مع سيدة المنزل، فتحدثت عبر أداة التواصل الموجودة بجانب الباب إلى السيدة التي نادتها مدام ((فريدة)) والتي عرفنا فيما بعد أنها والدة ((زين))، أخبرتها بوجودنا عند الباب وبأنَّ لنا رغبة في مُلاقاتها، فسمحتْ لها بإدخالنا على الفور.

داخل الأسوار.. مشينا في ممر ضيق، رُصَّت على جانبيه أسفل الأشجار الكبيرة التي ظهرت لنا من خارج السور شجيرات الورود الصغيرة، رصت بعناية فائقة، كانت ألوانها مختلفة، أمَّا أزهار الفُل والياسمين الأبيض فكانتا تقريبًا في كل مكانٍ مُزهرة، مما جعل رائحة المكان تبدو كجزء يُخيّلُ لنا كالجنة، تثير شيئًا من البهجة والطمأنينة داخل النفس.

بعد خطوات قليلة، ظهر لنا المبنى المكون من ثلاث طوابق من بين الأشجار، كان أمامنا مباشرةً، كانت الأبواب والشبابيك من الخارج مصبوغةً باللون الأزرق، بدا المكان أنيقًا كـ ((شفشاون))، مما أثار بداخلي موجات من الحنين.

عند الباب الداخلي .. أستقبلتنا السيدة ((فريدة))، التي علمنا بعد ذلك أنها دكتورة الأدب الإنجليزي في الجامعة الأمريكية، والتي أُختيرت مؤخرًا كواحدة من أكثر النساء المثقفات فاعلية في المجتمع، ورغم أنها في أواخر الأربعينات من عمرها إلا أنها بدت لي كشابةٍ صغيرةٍ كأنها في بداية العقد الثالث من العمر، كانت تملك ملامحًا بيضاء، شعرها مصبوغ باللون



الأحمر تظهر فيهِ بعض الشعيرات البيضاء، عيناها زرقاء تشبه الماسات والبحر الأزرق العميق كلون عيني والجدة حسيبة، لم أعهد لها شبيهة بين المصريين، كان جمالها مُلفتٌ أخاذ، ظننتُها لوهلة ذات أصولٍ أوروبية، إلّا أنني علمت فيما بعد أنها من مدينة المنصورة الكائنة بمحافظة الدقهلية، وقد عُرف أهل المنصورة بالجمال والأصالة.

استقبلتنا بترحاب شديدٍ وملامِح باشة لا تفارقها الابتسامة، رافقتنا للداخل، وبينما أبدت ((جميلة)) الغاضبة جديتها بإظهارها شيئًا من الضيق، كنت مشغولةً بتأمل المكان وكنا لحظتها قد وصلنا إلى ردهةٍ كبيرةٍ ممتلئةٍ عن آخرها باللوحات الجميلة ذات الألوان الزاهية التي تتماشى تمامًا مع ديكورات وألوان الحوائط، كانت الإضاءة والحوائط الزرقاء مبهرة، مما أثار في داخلي الحنين لـ ((شفشاون)) أكثر و أكثر من أي وقتٍ مضى، كانت المزهريات موزعة بشكل منمق، وفي المنتصف توجد مكتبة ضخمة مكونة من سبع طوابق عرضية، تحتوي الكثير جدًا من الكتب، كان كل شيء في الردهة مثير للغاية، لكن أكثر ما أثار دهشتي كان وجود كتابي المفضل ((ثلاثية غرناطة)) موضوعًا في أعلى رف بالمكتبة متجاورًا مع رواية ((موبي ديك -Moby Dick)) للكاتب العظيم ((هيرمان ملفيل))، والتي يعود تاريخ إصدارها للعام 1851م أي قبل قرن ونصف من الزمان، كما كانت ترافقهما رواية ((العمى))، للعم ((جوزيه ساراماغو))، كانت المكتبة من أكثر الأشياء التي أبهجتني، والتي زادت قيمة المكان قيمة أخرى بوجودها، ذَكَرتني بمكتبة الجدة ((حسيبة)) في ((شفشاون)) وصندوق الكتب والمخطوطات القديمة.

وددت للحظات لو أقاطعها.. أسأل السيدة ((فريدة)) إن كان بالإمكان استعارة بعضًا من هذه الكتب؟!. لكني خشيت انفجار((جميلة)) فيّ.



كل شيء في منزلـه كان مُثيرًا، لدرجة أنني همست في نفسي مُتمنيةً لـو أن هـذه المكتبة ملك لي، أو لـو أنني السيدة الصغيرة لهذا المنزل.

قَطعتْ ((جميلـة)) علـيَّ انبهـاري بالمكان حين بـدأت بتوجيـه الحديـث للسـيدة ((فريـدة)) تشـتكيه بحـدة وحنـق، بينـما أنصتـت لهـا بهـدوءٍ شـديد وصـدرٍ رحـب، وقـد ارتسـمت عـلى شـفتيها ابتسـامة أم حقيقيـة، لم تفارقهـا الابتسـامة طـوال فـترة بقائنـا معهـا، وبينـما تزايـد انفعـال ((جميلـة)) وارتفـع صوتهـا أكثر مُتناسية أنهـا تتحـدث إلى دكتـورة جامعيـة كـما أنهـا سيدة في عُمـر والدتنـا، وأننـا داخـل منزلهـا، ظهـر فجـأةً خارجًـا مـن ممـر جانبـي مـؤدٍ إلى الردهـة التـي نقـف فيهـا، كان شـابًا طويـل القامـة عريـض المنكبـين، مرتديًـا بنطـال مـن الجينـز الأبيـض يعلـوه قميـص ضيـق بنفـس اللـون أيضًـا، لكنـه بـلا أكـمام حيـث ظهربكتفيـه عاريتـين تمامًـا، بينـما رأسـه مغطـاة بفوطـةٍ بيضـاءٍ كانـت تخفـي وجهـه كامـلًا أسـفلها وقـد بـدت رأسـه مبللـةً بالمـاء الـذي يتقاطـر عـلى عنقـه وكتفيـه.

مِـن أسـفل الفوطـة تَحـدَّثَ بصـوتٍ حـاد بـدا فيـه الضيـق وشيء مـن الغضـب، وقـد بـدأ بإزاحـة المنشـفة عـن وجهـه وكان لا يـزال يخطـو مقتربًـا :

– فليخُرِسُ أحد ما ذلك الصوت الـ ...

كان قـد وصـل أمامـي مبـاشرةً عندمـا أزاح الفوطـة عـن وجهـهِ.. تلاقـت أعيُننـا للمـرة الأولى.. تسـمَّرَ في مكانـهِ للحظـاتٍ، وكأن الأَرْضُ قـد مَـادَتْ بِـهِ، وقـف كلانـا مندهشـين محدقـين في بعضنـا البعـض غـير مصدقـين مـا نـراه، أمَّـا عنـه فقـد بـدت الدهشـة تملـؤ عينيـه وهـو يتأملنـي.. كنـت صغـيرةً، قصـيرة، ضئيلـة الجسـد، بيضـاءٌ بـشرتي كالثلـج، يميـلُ لـون شـعري نحـو الأحمـر، عينـاي زرقـاء لهـا لـون البحـر والجـدة حسيبة، تتزيـن عنقـي بقـلادةٍ ذهبيـةٍ تَـدَلَّى فيهاهِـلالٌ أزرق تتوسـطه نجمـة صغـيرة خـضراء فاقـع لونهـا تـسر الناظريـن.



كنت صغيرة لكنني أبدو بكامل أنوثتي، و كأنني منحوتةٍ بعنايةٍ إلهيةٍ ولم يكن ذلك بالشيء الغريب فقد كنت كمعظم فتيات ((شفشاون))، ننضج قبل الأوان بأوان، لم ينتهِ الأمر عند هذا الحد من نظراتهِ، فقد تبسم وتوردت ملامحه وهو يقول مرددًا بصوتٍ هامسٍ يكاد يكون مسموعًا لنا :

- «سبحان الله، سبحان الله»،

قالها ثم صمت تمامًا، وكأن الله قد أخذ صوته ..

وقفت أمامه تائهةً، أُصِبتُ بحالةٍ من الدهشة، إنه آخر الأشباهُ الأربعين لها، إنَهُ أنا بطريقةٍ ما، إنَهُ هي، ابنها، قِطعةٍ منها، تَوأمُها تَمَامًا، عَيناهُ زرقاءً واسعة، شعره مائلٍ إلى الحمرة أيضًا، ملامحة تبدو حادةً كالرجال في ((شفشاون))، إنَهُ بطريقةٍ ما نسخةٌ مصغرةٌ من الجدة ((حسيبة)).

بينما كنت مندهشةً تمامًا بدت ((جميلة)) مصابةٍ بحالةٍ من الغضب الشديد، بينما كانت عيناهُ ماتزال مُعَلَّقةً علي عيني مما جعلني أخجل بشدة، لكنه أزاح هذا الخجل حين أكمل حديثه بلطفٍ وقد اتخذ صوته مسارًا آخر غير الذي بدأ بِهِ الحَديث، وأيضًا قد بدل ما كان ينوي قوله حينما أعاد من جديد صياغة كلامهُ، لكن هذه المرة قال مداعبًا:

- فليخرس أحد ما ذلك الصوت الـ ..

الرائع؟!

الساحر؟!

المدهش؟!

الـ .. الـ .. ؟!

عاد لصمته مجددًا..لم يُكمِّل حديثه.. اكتفى فقط بالنظر في عينيَّ



مُندهِشًا وكأنهُ لم يرَ عينين من قبل.. بينما بدا الاستغراب والدهشة في أوجه الجميع أيقنت وقتها أنَهُ كان ينتوي تعنيف ((جميلة))، لكنه بدَّل الكلمات بعدما شاهدني أمامه، حتى مسار صوته الذي تغير من الحِدة للين، كان دليلًا أنَّ شيئًا ما قد حدث، ربما كنت صغيرة وقتها لكنني كنت مدركة جيدًا لما يحدث، فقد كان يتحدث وكأنه يسألني ويغازلني في نفس الوقت، وبينما خضع الجميع للصمت تَدَخلتْ والدته تُعرفَهُ بِنا .. فقالت وهي تُشير باتجاهنا :

- جميلة و منة الله ..

أبناء الأستاذ جمال الدين، جارنا في الشارع المقابل.

نظر إليَّ مباشرة وقال :

- هِـبَـةُ الله.

في هذه اللحظة، تصاعد صوت أقدام أحدهم وهو ينزل على السلالم، كانت شقيقته ((مومو))، تفاجأتُ بها، لم يكن لدي علمٌ بأن صديقتي المقربة في الدراسة جزء من هذا المنزل .. كنت أعرف مسبقًا أن لها شقيقًا أكبر منها لكنه فضل الهجرة إلى خارج مصر بعد أن تزوج من فتاة كندية كان قد تعرف عليها أثناء دراسته في جامعة أكسفورد . ابتَسَمتْ تلقائيًا عند رؤيتنا، تبادلنا السلام والأحضان الحارة، ورحبتْ بنا كثيرًا، ثم لطَّفتْ الأم وابنتها الأجواء قليلًا قبل أن يقوم ((زين)) هو الآخر بالتأسف والأعتذار عما بدر منه تجاه ((جميلة)).

أومئت الدكتورة ((فريدة)) لأبنتها أيمائة ذات مغزى لم أفهم معناها، انسحبت ((مومو)) من الجلسة بعدها، تغيبت لبضع دقائق ثم عادت وقد حملت الكثير من الحلويات، كانت في أطباق بلوريَّة، قالب حلوى بالقشدة والبندق، وفي الوسط كاسترد بالشوكولاتة وبعضًا من الحلويات



الأُخرى. أحسنوا ضيافتنا للغاية ولم يتركونا نغادرهم إلَّا بعد أن أيقنوا أن الحنق قد زال من قلب ((جميلة)).

***

على فراشي جلستُ واضعة ((منكوشة)) على صدري أحتضنها بلطفٍ ومحبة، بدت ملامحي مليئةٌ بالسعادة، بينما كانت ((جميلة)) تمعن النظر فيَّ وكأنها لأول مرة تراني، كلما نظرت إليها وجدتها تدقق النظر في وجهي، أراها تريد أن تتأكد من شيء ما، إلى أن فاجأتني بسؤالها الذي يحمل في طياته الكثير والكثير جدًا من الأسئلة المخفية :

- كيف هو زين؟!.

أجبتها :

- هل رأيتي المكتبة؟!

فأعادت السؤال :

كيف هو زين؟!.

و أجبتها مُجددًا :

- أرأيتي المنزل !!

بدا لي كمنازل شفشاون.

قالت بنبرة صوتٍ غاضبةٍ، وهي تضغط على أسنانها :

- كيف.. هو .. زين ؟!

- هاااا ..زين!! .. زين زين ....

- نعم، زين زين زين.

تمنطقت بشفتيَّا كأن شيئًا حلوًا على لساني وأجبتها مُبتسمةً :

- يا جميلة .. لا تأخذي الأمر على محمل العدائية، فقد بدا شخصًا



مميـزًا للغايـة، ثـم أنَّـهُ وفي حقيقـة الأمـر أنـتِ مـن أخطـأتِ في حقـه مـن البدايـة، ثـم انظـري إلى استقبال والدتـه لنـا، ثـم شـقيقته مـن بعدهـا، وكيـف عاملونـا برفـق ومحبـة!! كـوني إيجابيـة واتركـي السـلبية والعدوانيـة جانبًـا فهـي لا تليـق بـك، ولتفهمـي أنـه لا شيء يمكـن أن يُهبطـك مثـل التعـالي، أو ينخـر في قلبـك مثـل الحسـد، أو يُسيء إليـك مثـل سـوء الظـن، فـكل مـا نفعلـه نحـن مـن نجنيـه في النّهايـة وليـس غيرنـا.

صُرعـت.. كلـماتي أوجعتهـا بشـدة، لكنهـا أيقنـت مـن داخلهـا أننـي أقـول الحقيقـة، وأنهـا إن خالفـت فسـوف تقلـل كثـيرًا مـن نفسـها أمامـي، فتداركـت الأمـر بسرعـة وبابتسـامة مفتعلـة قالـت:

- لم يكن هذا ما أسأل عنه، بل سألتُكِ عن زين الذي رأته عينيكِ!!

شردت بفكـرى للحظـات، تذكـرت فيهـم أول مـرة قـرأت اسـمه داخـل المكتبـة .. ثـم تذكـرت نظرتـه الأولى في منزلـه، ثم تنهـدت تنهيدة إعجابٍ وانبهارٍ بـه، وأغمضـتُ عينـي بهـدوءٍ وبطءٍ شـديدين وبصوتٍ منخفـضٍ ورفـقٍ أجبتها :

- رأيته شابًا رائعًا بكل ما تعنيه الكلمات.

بدا لي كأنه حُلم وليس حقيقة.. بل بدا لي أنه .. . ..

قاطعتنى بصرخـة ملأهـا الغضـب الممـزوج بالغيـظ الشـديد ثـم ضربتنـي بإحـدى الوسـائد القريبـة منهـا وهـي تتهمنـي بالغبـاء، و أننـي طفلـةٌ صغـيرةٌ لا تعـي شـيئًا ولا تفهـم الحيـاة ..

ليلتهـا .. دار بيننـا نقـاشٌ حـادٌ وطويـلٌ، حاولـتْ فيـه بشـتى الطـرق أن تقنعنـي بأنـه ليـس إلا شـابًا مراوغًـا ليـس لـه قيمـة، بينـما اقتنعـتُ عـن يقـين بأنـه شـخصٌ صالـحٌ.

❋ ❋ ❋



(4)

الحُبّ هو فضيلة الفضائل.. يفقدنا الوعي بما هو أرضِي ويملؤنا بما هو سماوي، يخلصنا من كل شعور بالذنب، يملأنا بالرضا..الحُبُّ هو تلك المشاعر التي يضعها الإله في قلب أحدهم تجاه شخصٍ آخر فتأخذه لحياةٍ أُخرى يترقب فيها أيامه القادمة بشغف ويتصالح مع كل لحظاتها برضا ويشعر كأنه يتنفس السعادة وأن له روحًا أُخرى، الحبّ.. هو ذلك الشعور السحري الذي يحوّل حياة شخص بائس، برسالة واحدة فقط، بكلمة واحدة فقط، من العدم إلى الوجود . يعيد له رئتيه، ملامحه، ضحكته، وشعوره بالرغبة في الحياة أكثر.

مَضَتْ الأيام، كان يوميًا يظهر أمامي في كل مكان، الجامعة، الشوارع، المواصلات، المحلات، المكتبة، لقد بدا أنه أشهر مَن في الحي، إن لم يكن بالمدينة بأكملها، بعد ذلك التقيت بابنة عمهِ ((شاهندة)) صديقة ((جميلة)) المقربة التي لا تنفكُّ تزورنا لينفردا ببعضهما البعض.. يتهامستان طويلًا، يتبادلان أطراف الحديث وكأنهما لصوص وليستا صديقتين.

سردت لنا أنها علمت بشأن ما حدث في منزل ابن عمها، لم أكن على علم مسبق بصلة القرابة بينهما، لكن((جميلة)) كانت تعرف ذلك جيدًا .. حتى ((شاهندة)) اتضح أنها جزء مِنهُ و من حياته، لقد وُفِّقَتْ ((جميلة))



بالقول أن الجميع هنا يعرفه، لقد بدا لي كأنه ظلّي، في كل مكانٍ أجده، وكأنه حارسي الخاص أو ظلي الذي لا يغيب.

***

دائمًا ما يكون يوم الخميس هو الأثقل في أيام الدراسة، فهو نهاية الأسبوع ويكون الطلبة جميعًا مُنهكين، وكذا أيضًا العُمال خاصة هؤلاء القادمين من الأقاليم المختلفة، فتجد الشوارع مزدحمة أكثر من المعتاد. ذلك اليوم شعرتُ بأنه أطول من أي يومٍ مضى، فما إن انتهى وقت الدراسة حتى هرولتُ مُسرعةً نحو باب الجامعة، ومنه باتجاه الشارع .. كانت الحافلات تصل واحدة تلو الأخرى، ونتيجة تزاحم الركاب المنتظرين وتدافعهم نحوها كنت أفشل في الوصول إليها.

وقفتُ ما يقرب من الساعة ونصف، أنتظرُ انخفاض عدد الركاب، لكي أستطيع الحصول على مكان، في إحدى الحافلات دون أن أتعرض للزحام والتدافع وسط الحشود، لكن العدد يومها لم ينخفض، كانت الحرارة شديدة ولم أكن أبدًا بتلك الجرأة التي قد تدفعني لمحاولة اختراق الزحام وسط شدٍّ وجذبٍ مع شخص آخر كي أحصل على مكان أركب فيهِ، شعرت بالإرهاق، أثرت الشمس على رأسي وأُصِبتُ بالصداع، وددت لو بكيت.. في الحقيقة دبَّ اليأس في قلبي وبدأت الدموع تلمع في عيني، عندها تمنيت لو أنه يظهر ويساعدني، وما هي إلا ثوانٍ قليلة ووجدته يظهر أمام عيني وكأن الله قد حقق ما تمنيت.

كان دائمًا ما يظهر أمامي .. يتطلع فيَّ للحظات مُبتسمًا ثم يرحل، وكأنه يظهر ليأخذ جرعةً من التأمل في ملامحي ثم يغادر، لكن هذه المرة لم يرحل، فقد كان الزحام شديدًا عن كل يوم ولا تتوافر حافلات لنقل



الـركاب، بعـد أقـل مـن دقيقتـين وصلـت حافلـة جديـدة وقبـل أن يتدافـع إليهـا جمـوع الـركاب اندفـع وسـبقهم إليهـا.

وقـف عنـد الباب..منعهـم مـن التزاحـم والتقـدم نحـو الداخـل، ثـم صـاح بصـوتٍ مرتفـعٍ يـردد وهـو يرفـع كلتـا يديـه ويشير بإصبـع السبابة في كل واحـدةٍ منهـما:

- النساء وكبار السن أولًا.

ثم رددها مؤكدًا على الجميع بصوتٍ وكأنه يلحِّنُها :

- الـنِساءُ .. أولًا.

قالها بجدية كمن يقولها كأمر وليس كرجاء، وقد كانت ملامحه متهللة بشوشـة، كانـت ابتسـامته مُحببـةً لـدى الجميـع رغـم أنهـم غربـاء عنـه. التفـتَ إليَّ مبـاشرة ثـم أشـاريطالبني بالتقـدم لصعـود الحافلـة، فعلهـا وهـو ينظـر مبـاشرةً في عيـوني، كان يفعـل كل شيء بابتسـامة صافيـة وبـكل ود وطيـب، مما يجعـل تقبـل النـاس لأفعالـه شـيئًا لا مفـر منـه.

تقدمـتُ نحـوهُ مبتسـمةً وكأنني جِنيَّة ليسـت مـن بـين البـشر، بينـما تتبعتني بعـض الفتيـات مـن طلبـة الجامعـة والنسـاء مـن الموظفـات الـلاتي خرجـن هـن أيضًـا معـي في نفـس التوقيـت، انتابتنـي حالـة مـن الفرحـة الشـديدة فقـد جعلنـي أتبسـم خجـلًا تـارة وسـعادة شـديدة بفعلتـه تـارة أُخـرى، إن الفتيـات مهـمًا تملكهـم الخجـل، أو أُحسِـنَتْ تربيتهـن وارتفـع مسـتوى أخلاقهـن تبقـين مُدمنـات اهتـمام، وتُحِبـن مـن يميزهـن عـن غيرهـن.

في الحافلـة جلسـت قـرب النافـذة، ولأول مـرة وجدتـه يـأتي ويجلـس إلى جـواري تمامًـا، كتفـه يلامـس كتفـي، رائحتـه جعلـت قلبـي يرتجـف، شـعرت أن قلبـي دقاتـه تتسـارع، شـعور مختلـط مـا بـين السـعادة والبهجـة وشيء مـن القلـق، التفـتُ نحـو النافـذة أنظـر بعيـدًا عنـه،أتهـرب مـن النظـر إليـه.



انتابتني رغبة في التحدث إليهِ ولكنني كنت مترددةً ..بعد ثوانٍ قليلة .. تشجعت ثم تنفست الصعداء، لململمت شتات أمري ثم قررت أن أفعلها مهما كلفني الأمر، التفتُ إليهِ.. تفاجأتُ به ينظر إليَّ مباشرة ..وقعت عيني في عينيه مرة أُخرى .. فتصنعت الجدية والغضب وبنبرة حادة سألته :

- لماذا تلاحقني في كل مكان؟!

رد عليَّ بثقةٍ كبيرةٍ قال :

- من يحب شيئًا عليه أن يلاحقه.

- نعم !!.. يحب !!..أنتَ مجنون؟!

- نعم .. مجنون وأحبكِ.

قاطعته بحدةٍ مفتعلةٍ :

- لا مجنون فقط.

ابتسم وهو يوميء برأسهِ ثم أضاف بيتُ شعرٍ قال فيهِ :

- أنااا .. أنا من أحبك دون إذنٍ مسبقٍ .. أرأيتِ حبًا جاء باستئذانِ

إن يكتب الله الوصال فأنتِ لي .. و إذا افترقنا دُمتِ في شرياني.

((أمل الشيخ)).

ابتسمت .. لم أملك فعل شيء إلا ذلك.. بعدها التفتُّ أنظر من نافذة الحافلة نحو الخارج، هربت من النظر إليهِ وأنا مبتسمة، كنت أكمل تصنعي وافتعالي للقوة، ثم شردت للحظة وتحدثت إلى نفسي قائلةً:

- لا يمكن لشخصٍ ما أن يحب شخصًا آخر بعد مرور شهرٍ واحدٍ من معرفته.

ردَّ عليّ وكأنه قد سمع ما قلته في نفسي :



- بـل منـذ اللحظـة الأولى التـي رأيـتُ فيهـا عينيـك وليـس بعـد شـهرٍ واحـدٍ مـن رؤيتهـما.

التفتُّ إليهِ مذهولة:

- كيف عرف ما دار في رأسكِ يا منة الله؟!.

قال بلهفة :

- هبة الله هبة الله ..

اسمك .. هبة الله لي.

توقفت الحافلة .. وصلنا محطة نزوله ..

نهض قليلًا ثم انحنى مقتربًا مني وهمس :

- دمت لي نبضًا يرافقني حد الفناء..

حد الفناء حد الفناء يا هبة الله ..

ابتسـمت مُجـددًا مرغمـة، لم أكـن أملـك فعـل شـيء غـير ذلـك، صغـيرة كنـت لكـن الكلـمات الجميلـة تسـعد المـرأة أيًّـا كانـت كبـيرة أو صغـيرة، ثـم إنـه بالفعـل ينـشر الفرحـة أينـما حـل بصوتـه وأفعالـه .. و أعـترف أننـى أحببـت لقـب هبـة الله، وددت لـو أنـه بالفعـل اسـمي الحقيقـي.

❋ ❋ ❋



(5)

تـوالى مـرور الأيـام علينـا و نحـن معًـا، فلـم نعـد صديقـين، جاريـن، حبيبـين، تعـدَّتْ علاقتنـا كل هـذه المُسـميات، فقـد قضـت ظـروف إقامتنـا في نفـس الحـي وقراءتنـا نفـس الكتـب والروايـات الى حـدوث تقـارب كبـير وألفـة شـديدة ومُحبـة فيـما بيننـا، بجانـب أن ذهابنـا نفس الجامعـة مـع اختـلاف مواعيـد ((جميلـة)) عـن مواعيـدي تسـبب في أن نتقابـل يوميًـا في الحافلـة المتجهـة إلى الجامعـة ذهابًـا وأيابًـا، و للحـق لم يكـن ذلـك مصادفـةً إنـما باتفـاقٍ مسـبقٍ بيننـا.

تبادلنـا الكتـب، تناقشـنا فيهـا، أحببنـا الأغـاني القديمـة فقـد وجدنـا فيهـا مـا نـود قولـه لبعضنـا البعـض لكـن الخجـل قـد منعنـا عـن قولـه، تهاتفنـا ليـلًا ونهـارًا، تبادلنـا الرسـائل حتـى ونحـن إلى جـوار بعضنـا البعـض، كنـت قـد اعتـدت عنـد بدايـة كل صبـاح إنـزال السـلة للخالـة ((أُم بربـارة))، أحصـلُ فيـهِ عـلى ثـلاث قطـع مـن ((الشـباكية)) المغربيـة ((الزلابيـة)) لأوزعهـم عـلى والـديَّ و ((جميلـة))، بعـد ذلـك أهـرولُ بملامـح باشـة وقلـبٍ منشرحٍ أتوجـه إلى الجامعـة، أمـر عـلى الخالـة ((أُم بربـارة))، أدفـع لهـا ثمـن ثمانيـة قطـعٍ مـن الحلـوى وأحصـل عـلى ثلاثـة فقـط، تداعبنـي الخالـة فتقـول وهـي تبتسـم :

- ثلاثة لوالديكِ وجميلة ..

اثنتين لي وعمك رؤوف ..



وواحدةً لكِ، فلمن القطعتين المتبقيتين؟!.

فيتضرج وجهي بحمرة الخجل، ثم أُغمض عيناي وأضغط بأسناني بعضهم على بعض وأنا أومىء برأسي أُهزها يمينًا ويسارًا بينما تتورد ملامح وجهي فرحًا قبل أن أرد قائلةً :

- للحُب يا خالة.

فتُعلق سائلةً :

- تُحبينَهُ كثيرًا؟!

- لا لا .. الكثير هذا وصفٌ للأشياء العاديه

أنا أُحِبَهُ بعد الله مُباشرة .. مُباشرة والله يا خالة.

ثم أهرب من أمامها بخطى سريعةً لألحقُ بالحافلة قبل أن أتأخر عليه.. و في الحافلة أتشارك معه أكل الحلوى، له قطعتين ولي قطعة واحدة، كنت قد مَيَّزتهُ ليس فقط على الأهل و ((أُم بربارة)) إنما على العالمين جميعًا .. كان يخبرني مداعبًا :

- الحلوى سوف تجعلكِ فتاةً سمينةً،

وسأنقص من مبلغ مهرك عشرين الفًا.

فأرد عليهِ أداعبهُ :

- هذا إن وافقت عليكَ بالأساس أيها المجنون،

ثم إني آكل واحدةً فقط، بينما أعطيكَ اثنتين،

أنتَ من سيصبحُ سمينًا.

- وماذا بعد !!

- سَ .. .

- هاه ؟!



- سَ .. ..

- - هااه ؟!

- سأقبل بكَ على أيةِ حال ..

لكن على سبيل الصدقة ليس إلا ..

فإن الله يحب المتصدقين.

لم تخلُ المواصلة من نقاشٍ وكتابة و جنون و تحاور، قصصٍ مثيرة عن ((شفشاون))، قصص عن الفراعنة وخفة ظل المصريين الغير منتهية، تبادلنا اقتباسات الكُتب ومقولات الأدباء، ببساطة أَلِفَ كل مِنَّا حكايات الآخر كأنما هي حكاياته الشخصية، أصبحنا لا نفترق، فيقول أهل الحي عني ((فتاة زين)) وتقول ((أُم بربارة))، توأم العيون الزرق، وتحسدني فتيات الجامعة عليه ويحسده الشباب عليَّ.

كان يكبرني بعدة شهور في العمر و في الدراسة يسبقني بعامٍ كاملٍ، يدرس الاعلام بينما كما اختار والدي أدرس الحقوق، كنا متشابهين تمامًا حتى إن الكثيرين اعتقدوا أننا أشقاء، كان بحكم موضع عائلته الاجتماعي وثرائهم يرتدي أفخم الملابس وكان قد اعتاد على الضيق منها كعادة موضة السنوات الأخيرة بينما اعتدت و ((جميلة)) على ارتداء الملابس الفضفاضة بعدما كنا نلبس الضيق منها، كانت((فطوم))هي من اقترحت ارتداء الفضفاض من الملابس بعد علمها بقصة ((جميلة)) مع ((زين))، لم تجبرنا على إرتداء تلك الملابس إنما اقنعتنا و ارتضيناها عن طيب خاطر.

كان ذلك لسببين الأول منهما أن الأديان السماوية جميعها قد دعت للحشمة والحياء والخجل، أمَّا السبب الثاني فقد كنت أنا و ((جميلة))



نمتلك أجسادًا ناهضةً كمعظم فتيات ((شفشاون))، أجسادنا تضج بالأنوثة فالأثداء ناهضة والخصر نحيل والأرادف ممتلئة، ومن المؤسف أن الشوارع قد امتلأت بكائنات شهوانية مثلها كمثل الكلب إن يرى كلبةً سيَّل لعابه عليها في الشارع دون أن يأبه للمارة، كائنات تشبه البشر في الأجساد لكنها بعقل أدنى من أن أُشَبِهُهُ بعقل الخنزير، من أجل ذلك ارتدينا الفضفاض الذي جعلنا في أعين الأسوياء من الأشخاص أكثر قيمةً وخلقًا، وقد اقتنعتُ دومًا بأنه ما كانت قيمة المرء بزينته من الملابس إنما بزينته من الخُلق والأفعال.

***

في الجامعة..فاجأني بطلبه أن نتناول الغداء خارج الأسوار، ذكر عدة أسماء لمطاعم شهيرة منتشرة في أنحاء العاصمة، لكني رفضت بشدة الابتعاد عن محيط الجامعة، فنحن سويًا ذهابًا وإيابًا في المواصلات وكذلك داخل الجامعة أمَّا عن التواجد في مكان ما خارج الجامعة فأعتقده من الخطأ .. لم أكن ارتضيها أبدًا لكن دعوني أعترف أن الحب يغير المعتقدات والعاطفة تنتصر على العادات، فبعد نقاش طويل اتفقنا وما كنا لنختلف بالأساس.

توجهنا لحديقة الحيوان كونها أقرب مكانٍ عامٍ للجامعة، مشينا كثيرًا قبل أن نتوقف بالقرب من إحدى الأشجار الضخمة في جانبٍ هادئٍ تمامًا، أجلسني على العشب في ظل الشجرة وبكل جنون استلقى على الأرض وصنع من ردفي وسادة لرأسه، كنت خجلة للغاية لكنه كان شعورًا رائعًا حين وجدته كالطفل بأحضان أمه، نظرت في عينيه وكانت حمراء بشدة.



تبادنا أطراف الحديث لبرهة من الوقت إلى أن ظهر بعض الأطفال على مرمى البصر يقفون خارج أسوار الحديقة، بدا عليهم الشغف وهم يشاهدون الحديقة من الخارج، كانوا في حالة سيئة يرثى لها، تبسم وهو يترقبهم في صمت قبل أن ينتفض مسرعًا إليهم، دار بينهم حوارٌ قصيرٌ للغاية ثم وهبهم بعض المال، فأسرعوا مهرولين باتجاه باب الدخول للحديقة فأدركتُ ما فعله معهم، كنت فخورةً بهِ جدًا فالحب تقوى، ومن التقوى أن تهب السعادة لمن استطعت دون مقابل، أن تتقي الله في كل شيء كان، يعني أنك تحبه، و حتى أبسط الأشياء قد تظهر مدى إنسانية الفرد.

رغم أنه كان صاحب عشرين ربيعًا فقط إلا أنه كان رصينًا للغاية، جادًا، متزنًا، وقورًا، حقًا رأيته إنسانًا تقيًا، ورأيت فيه الإنسانية تتجلى.

عاد إليَّ وقد كنت أترقبه بعينين لامعتين فخورة به، و بنفس الجنون استلقى على ردفي من جديد صانعًا منه وسادة، أغمض عينيه ولم يتحدث، اكتفيت بالتأمل فى ملامحه وهو مغمض العينين التى لطالما عشقتها والتى حفرت فى ذاكرتى كنقش خالد لا يفنى.

بعد بضع دقائق أدركت أنه قد نام من شدة الإرهاق والهذلان الذى كان باديًا بشدة فى ملامحه، كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة ظهرًا، وكان نهارًا قائظًا تتزايد حرارته شيئًا فشيئًا كلما مر الوقت، كنا متوارين في ظلال الشجرة، إلى أن خرجت الشمس من فوق الشجرة فلم يعد الظل يأوينا.

تعامدت أشعة الشمس علينا فوق رأسينا تمامًا، فما كان مني إلا استخدام حقيبة يدي وأوراقي لأظلل عليه وأحميه من شدة وقسوة الشمس وحرارتها، ظل هذا الوضع لأكثر من ساعةٍ كاملةٍ، تأملت فيها



بشدة، فقدت القدرة على التحمل فبكيت، ترقرق الدمع على الخدين حتى سقط بعضًا منه على وجههِ فاستفاق من نومه ليجدني باكيةً، بديت له شاحبةً بحالةٍ سيئةٍ للغاية، قد أعيتني شدة الحرارة .. فتساءل مُستغربًا:

- دموع!! ما الذى يبكيك؟!

- لا شيء .. لا شيء.

- هبة!!

سألت ما الذي يبكيك؟!

ولما الدموع ؟!

- لا شيء يا زين.. لا شيء.

- ألا تعلمي أن الله لم يخلق شيئًا عبثًا، وعينيك خلقت لتُسعدني، وهي لا تسعدني وبها دموع، فهيا كفكفيها واكسبي أجري، ولتعلمى أنه لا يحق لك أن تؤذي عينيك بالبكاء وهن جنتي.

ابتسمت في وجهه وقد بدا عليَّ الإعياء الشديد.. قلت له مؤكدة أنه لا شيء يبكيني وهو معي، مد أنامله برفقٍ أزاح الدموع عن خدي .. تفاجئ بشدة حرارة وجهي الذى يكاد يحترق من شدة الحرارة و قسوة أشعة الشمس عليه، فأدرك في نفسه أني تركته ينام في سلام وتحملت ارتفاع الحرارة وشدة أشعة الشمس كي لا أقلقه من راحته التي وجدها فى نومته بقربي لبعض الوقت.

تغيرت ملامحه، بدت عليه عدة ملامح وردود أفعال مختلفة، شيء من الحب وبعض من الضيق والاستياء من فعلتي لأجله، لكن بكل الأحوال لم أكن نادمةً بل كنت سعيدةً لما أقدمت عليه ..

سأل :



- لما فعلتي ذلك؟!

- لأجلك يا زين ..

- أى جنون هذا .. لقد تأذيتى بشدة.

- لا يهم، فأنت قد ارتحت ولو قليلًا.

- أأنتِ مجنونة !!

- بالطبع .. مجنونة بك .. في الحب لا يجب أن تكون عاقلًا وإني لأخشى عليك أكثر من نفسي فأنت نفسي وأغلى، ولتوقن بأن عمري فداك ولو ملكت عمرًا آخرًا لوهبتك إياه .

❋ ❋ ❋



(6)

في زاويةٍ بعيدةٍ عن باب الغرفة جلستا بالقرب من الحاسوب الصادرة منه أصوات الأغاني الشبابية التي اعتادا سماعها سويًا، دخلتُ عليهما وكان الإرهاق باديًا تمامًا في ملامحي فقد ارتفعت حرارة جسدي للغاية، أصبحت محمومةً وانعدمتْ قدرتي على التحمل فألقيت حقيبتي على المكتب الصغير بمدخل الغرفة وأنا ألقي عليهم التحية بالإشارة دون أن أنطق حرفًا مسموعًا، ثم ارتميت في الفراش منهكة القوى أشعر بأني قد شارفت على فقدان الوعي، رغم أنني كنت في أشد حالات السعادة، قلبي ينبض فرحًا، رغم هذه السعادة إلَّا أن الصداع والحرارة كانا يفتكان برأسي وقد استمر وعيي لما يدور حولي لدقائق معدودة سمعت فيهم ((جميلة)) و ((شاهندة)) كل منهما تسرد للأخرى عن حبيبها.

كانت ((جميلة)) قد تعلَّقت بـ ((رشيد)) وقد كنت بالمناسبة أراه شخصًا سيء للغاية، أكره نظراته الشهوانية حين ينهشني بعينيه كلما لاقيته مصادفة معها، كما أنه يُدخن بشراهة ورائحة المخدرات تفوحُ منه حيثما وُجِد، له سمعة سيئة بين الجميع في الجامعة والشارع، كان طويل القامة، عريض المنكبين، له ملامح حادة، بشرته قمحية كأغلب المصريين .. بينما ((شاهندة)) وهي في الملامح على عكس ((زين)) ابن عمها تمامًا، بشرتها سمراء، لها عينان سوداوان بشدة تشبه حبات الزيتون الأسود أو الليل الحالك، جسدها ضئيل للغاية، إلا من نهدين ممتلئين .. كانت تسرد



عن ((عبيد الله)) صديقها من خارج الجامعة والذي يعمل مع والده في متجره لصناعة تراكيب العطور وبعض الإكسسوارات، قصَّت عن زياراتها المتكرره له في المتجر، وتبادلهما الإعجاب والغزل، وكيف أنه يهتم بتجربتها لكل تركيبة عطر جديد يقوم بصناعتها، ولأن أوقات السعادة شحيحة عمرها قصير فقد اشتد عليَّ الوجع، ارتفعت حرارتي بشدة واستغرقت في هذيان الحمى الذي كان كله عن ((زين)).. محمومة به قد أدمنته.

****

استفقت لأجدني بين يدي ((جميلة))، كانت غاضبة تقول بحدة ..

- أولًا .. اسمكِ ((منة الله)) وليس ((هبة الله)) ..

ثانيًا .. هو لن ينفعك بشيء إذا ما أصابك مكروه.

- ...!!

- تلك البرائة لا يناسبها أن تلوث على يد شاب مثل ((زين))، أنتِ تلقين بنفسك إلى التهلكة، إنك تدخلين طريقًا لا يناسب طيبتك، عودي إلى رشدك قبل فوات الأوان.

- ... !!

- لا تستفزيني بصمتك البارد هذا ..

- جميلة.. لا ترهقيني أكثر مما أشعر به، ولتعلمي أن ما بالقلب لا يتحكم فيه عقل، ومرة أخرى هي أرواح تتلاقى ولا دخل لنا فيما تختاره، إننا فقط نرضى بما كتبه الله لنا.

- نعم !! .. أرواح !!

- نعم يا ((جميلة))..أرواح تتلاقى، ولتعلمي بأنني لا أعصى الله، لذلك فإن قلبي يحبه الله، و كيف لقلب يحبه الله أن يؤذى !!



- وكأنه قد سحر لكِ .. قد سحر لك ..

أنت تتكلمين بلسانه هو وليس أنتِ ... أنت ...

- ((جميلة)) .. أرهقتيني.. بربك ماذا تريدين ؟!

- لا شيء يا ((منة الله)).. لا شيء .. فقط استخيري الله فيه.

- نعم!! وماذا أصنع بعد ذلك لو كان شرًا ؟!

- تقطعى علاقتك به فورًا وبلا تردد.

- لا.. بل إني آمنت بالقدر خيره وشره وإنه لأجمل أقداري.

- أنتِ حقًا مجنونة .. وغرورك هذا سوف يلقنك درسًا قاسيًا.

- حتى لو لقنت درسًا قاسيًا فإني أُنثى ..

حواء أمي ومريم مرآتي، فلا خوف عليَّ ..

فقد خلقت الأنثى للصعاب.

نقاشات حادة كثيرة دارت بيننا، كثيرًا ما شككت ((جميلة)) في نزاهة ((زين)) اتهمته بالسوء والتلاعب بقلبي، لكن .. انتمائي إليهِ وثقتي فيه غلبت كل الظنون، لم تكن هناك قوة على وجه الأرض تستطيع أن تنتزع خلوده القابع فيَّ، لم يكن هناك شيء يجعلني اضطر لنسيان الحياة معه، إلا هو، كنت أشعر أني مسئولة عن كل ما قد يحل به، أي أن الله قد أمنني على قلبه وعينيه، و أؤمن بأنه سبحانه سيسألني غدًا عن كل ما قد يضرهما، لم أكن أخشى عليه مني لأنني ببساطة متدينة بحبه، إنني أحببته كـ طفلة، شقية، أميرة، غبية، زكية، فاتنة، راقية، مجنونة، مشاكسة، فوضوية، كسولة و لكنني لم أكن شريرة ذات يوم ولم أعتقد فيه الشر لحظة، لم أظن فيه السوء أبدًا، وكان ذلك جرمي وخطيئتي، إنني أحببته بقلب أصيل جدًا، بعادات وتقاليد بها من الوفاء ما يشبع قلبه كثيرًا، أحببته بحضارة



شامخة؛ لكن للأسف كنا نحيا في مجتمع لا يعترف بالحضارة و الرقي، لذا بدأ البعض يتهامسون فيما بينهم عن ((فتاة زين)).

البعض وحديث البعض، انفصام المجتمع .. الـ ((Schizophrenia)) التي لا تنتهي، إنه شر هذا المجتمع، لعنة الشرق، الأحاديث التي لا تنتهي، اهتمام الجميع بشئون غيرهم وتناسيهم شئونهم الخاصة، إنها بلاد الشرق التي لا تأخذ من أهلها سوى الأحاديث الفارغة ولا تجد معهم أفعالًا، وبدأت الاتهامات، بالسذاجة تارة والمراهقة والجنون تارة أخرى من ((جميلة)) وبعض المقربات على حبي، ففي نظرهم ونظر المجتمع المريض لا يوجد حب رغم أنهم جميعًا يمارسون ما ينكرونه علنًا في السر، بل إن مجتمعنا في حقيقة الأمر يمقت الحب ويراه شيئًا من العار، يرون في الشوق ذل وفي البكاء ضعف، بلا قسم إنهم لا يعترفون بالمشاعر الحسنة فهم يعرفون فقط الكره ويتوارثونه جيلًا بعد جيل .. لكني ورغم سوء هذا المجتمع المريض بالكره والحقد شكرت الله كثيرًا علي ((زين)) وعلى شعوري بالسعادة معه وتجاهه، شكرت الله على صوته ووجوده بالقرب مني في خضم حزني ويأسي من هذا المجتمع، فـ أنا لا أهتم سوى لإرضاء الله فهو سبحانه من يعلم حجم حبي له وخوفي الكبير عليه، الله هو الذي جلبه لقلبي وخبأه به، إذًا الله قادر على أن يجمع بيننا ويفرح هذا القلب البريء الذي يعاني من مجتمع فاسد لا يعترف بالنقاء والبراءة.

رغم تلك الصعوبات كانت علاقتنا تشتد بقوة، ويومًا بعد يوم أدرك شيئًا واحدًا وهو أن ((زين)) من أهل قلبي منذ اللحظة الأولى.. كنت مؤمنة بأنه إن ابتغيت حب النساء فلتتقن ثلاثة((الاهتمام، الاحتواء، والانتماء))، فالمرأة وقتما تحب تريد اهتمامك كاملًا لا تريدك لها محطة عبور أو مجرد مشوار في قطار ينقلها من مرحلة عمرية لأخرى. تريد



احتواءك الدائم لا تريدك وجهة مؤقتة إنما تريدك ميناء للأمان والسلام، تريد انتمائك، أن تكون وطنك حيث إنها مذ تولد في هذه البلاد لا تعرف شيئًا سوى المنفى. وقد كان ((زين)) منذ عرفته شعلة من الاهتمام الذي لا ينطفيء، احتواؤه مليء بالرحمة والتقوى، وانتماؤه إلي جعلني أنتمي إليه كآخر الأوطان الآمنة في عالم أوشك على الخراب، كان في كل مرة ألتقيه يجعلني أؤمن تمامًا أنه رزق من الله لقلبي، فحين وجدته وجدت فيه كل أسفاري التي لم أتكبد فيها عناء المسافة، كل قصائدي المتلعثمة التي يلقيها قلبي على قلبه دونما أية محاولة للترجمة ..إنه يتفهمني حتى وقت الصمت، وما أعظمه من حب إذا أحطناه بالتفاهم. وعلى العكس تمامًا كانت ((جميلة)) تعاني بشدة مع ((رشيد)) الذي كان يهملها تمامًا، لا يتذكرها إلا أوقات فراغه، هي من تتصل به، تبحث عن لقائه، تبحث له عن المساعدات الدراسية في حين أنه لا يبحث سوى عن المخدرات والعلاقات المحرمة بعيدًا عنها، في ذات الوقت كانت شاهندة تحيا مع ((عبيد الله)) أوقاتًا رائعةً، يغرقها بالهدايا المختلفة ويصطحبها معه في كل مكان أينما ذهب، كانت مزهرة معه تمامًا لكنني لم أشعر تجاهه أبدًا بالأمان، كنت أرى في نظراته خبث لا ينتهي وكأنه ذئب ليس سهلًا وكثيرًا ما تمنيت لو أنني مخطئة في نظرتي إليه.

***

في الصباح .. ركبنا الحافلة .. توجهنا للجامعة .. جلسنا قليلًا في الداخل ثم بعد ذلك اتفقنا على الخروج للتنزه في مكان ما، توجهنا إلى حديقة في وسط القاهرة، صعدنا إلى أعلى نقطة فيها، ثم بدأ في ممارسة جنونه الرائع الذي طالما كان يدهشني كثيرًا، وبينما اكتفيت بمشاهدة معالم القاهرة من الأعلى في صمت بملامح تملؤها دهشة جمال المآذن إذا به



يحتضنني من الخلف غير مبالي بجميع زوار المكان، قتلني خجلًا بفعلته، لكني حقًا أحببت قربه، دفء صدره وهو يلامس جسدي، أحببت دفء أنفاسه أيضًا .. ثم دار بيننا حديث حُلو زادت من حلاوته لذة صوته.. وبينما شعرت بلذة الأمان وأنا بين يديه إذا به يشير على المآذن المنتشرة فى أرجاء }القاهرة{ ثم قال وهو يوجهني نحو ما يشير إليه :

- انظري هناك .. وهناك .. وهناك أيضًا ..مائة ألف مأذنة أو تزيد يزينون شوارع «القاهرة» .. وبرج شامخ لا ينحنى لظالم .. يجعلونها جنة الله بالأرض.

- صدقت يا ((زين)).. وأضف على ذلك اثنين وعشرين مليون نسمة من الطيبين، أزهر وحسين، خان خليلي ونهر خالد يهب الحياة والصفاء للقلوب .. محظوظ المصريون بوطنهم الذي أمسى والله لي وطن.

- إذًا زيدي على ذلك .. أنتِ، ولا شيئًا كأنتِ في عيني ..

ولا شيء يقترب من غلاوة تلك المدينة إلا أنتِ.. أنتِ فقط.

كانت سنوات عمري السبعة عشر المنقضية تشبه بَقَرَات يوسف السِمَان تُشبه سنبلاته الخضر وخمر العزيز وجماله، سنواتٍ زاهيةٍ ممتلئةً بالخيرات، كانت بداية علاقتي و((زين)) مذهلة، حُبًا ومودة أكبر و أروع من أن يحكى عنهما، رغم أنني كنت أمقت كل ما يأتي بسرعة، ولم يكن بالبال يومًا أن أخوض تجربة حب سريعة بهذا الشكل، بل كنت أشمئز من الحديث عما يسمونه حب من أول نظرة، لكن هذا ما حدث ..أحببته من أول لحظة و نسيت مقولة جدتي ذات يوم ((لم تكن أبدًا المشكلة في البدايات، لطالما حدثت المشكلة في النهايات)).

«ليت الحياة كلها بدايات».





(7)

انقضت سنة كاملة .. كُنا فيها كالغيم والظل والمطر، كالماء والقمح والطير والشجر لا نفترق يومًا، ارتبط وجود كل منا بوجود الآخر، إلا أن رحيل البدايات يأتي بعده مرحلة الوسط المميت، ظهور الاضطرابات، والتوتر وشيء من القلق، وإن أسوأ شعور مؤذٍ قد تتسبب به للأشخاص الذين أحبوك هو أن تجعلهم في قلقٍ مستمرٍ عليك، إنَّ مقياس الحب الذي تشعر به لشخصٍ ما لا يكون بحجم سعادتك حين تكون برفقته، بل بمدى الألم والفقْد الذي تشعر بها حينما يغيب.

دقت الساعة مُعلنةً حلول الثالثة فجرًا، كان الجو باردًا بشدة على غير العادة، رغم ذلك كنت ما أزال واقفةً في إحدى زوايا الشرفة المطلة على الشارع، يتملك من قلبي كثير من القلق مع الحيرة، وأشعر بحالةٍ من الضيق.

بعد دقائق قليلة .. شعرت أنني غير قادرة على تحمل البرودة أكثر من ذلك، دخلت للغرفة وأغلقت باب الشرفة من خلفي، صعدت على السرير وجلست منزويةً أنتظر أن يأتي منه خبرٌ، أشعر بقلق لا ينتهي، لقد مضت ثماني وأربعون ساعة بدون مكالمات هاتفية أو رسائل قصيرة، أو أي خبر يطمئن قلبي على غيابه، شيء مؤسف أن يغيب عنك من ترى في قربه الظل و بصوته الاطمئنان، حاولت مهاتفته مرارًا طوال الساعات



الفائتة، راسلته كثيرًا على أمل أن يرد بقليل من الحروف يطمئن قلبي عن غيابه وكل ذلك كان بلا جدوى.

فجأة..أضاءت شاشة الهاتف مُعلنةً ورود رسالة جديدة، بلهفة فتحتها .. ظهر لي اسم المُرسل ((عزيز صدري)).. رسالة مُقتضبة للغاية، فقط من كلمتين :

- أنا بخير.

اتصلتُ عليه دون تردد، أجابني بصوت لم آلفه من قبل، كان فيه من الخشونة والجدية ما يسري على غيري من البشر وليس عليَّ :

- صباح الخير.

- لا خير في وقتٍ يمر دونك يا زين.

- كل الأوقات طيبة بمعيَّةُ الله، أليس هذا حديثُكِ دائمًا!!

- الله هو الذي وضعك بقلبي يا زين، معيتُكَ هي إرادة الله.

- الحمد لله الذي أتى بك لقلبي.

- إذًا!! ماذا بعد!! أين كُنت ؟! كيف تركتني هكذا ؟! ألَا تفهم ما معنى أن أقضي يومًا كاملاً بدونك؟! يملؤني القلق في ترقّب رسالة منك، أن أكون ضائعةً، مشوّشةً، فقط لأنني شعرتُ لدقيقة أنك لست معي.

قال :أن السيدة ((فريدة)) مرضت فجأة، دخلت في غيبوبة، الطبيب أخبرهم أنها مُصابة بمرض السكر ((Diabetes mellitus))، مما تسبب لهم في صدمة وقلق شديد فانشغل عني ليلتين كاملتين.. كانت السيدة ((فريدة)) وزوجها حالهم كحال السيد ((جمال الدين)) و ((فطوم))، فقد تأخر رزقهم من الله بالأطفال لسنوات طوال، إلى أن رُزقوا بـ ((زين)) و ((مومو)) في الكبر.



كان حديثنا جافًا على غير العادة، يتكلم قليلًا، لا يضحك، وهذا شيء سيءٌ للغاية فَفي الحب أسوء إجابة، الإجابة التي تأتي على قدر السؤال، لكنني تفهمت الأمر، فقد عايشتهُ مُسبقًا عندما مرضت الجدة حسيبة عجوز الدار- رحمها الله - ، ثم إنه لمن الصعب أن يكون المرء على طبيعته حينما تكون من يُكرمه الله لأجلها على شفا حفرة من المرض.

لم يُطِل الحديث بيننا وأنهى المكالمة بعدما أخبرني أنه يتوق للنوم كثيرًا نتيجة إنهاكه ليلتين متتاليتين، ولأن الوقت بغيابه يمر ببطء هربت أنا الأخرى في النوم.

❊❊❊

صباحًا .. استيقظتُ على صوت خلاف بين ((جميلة)) و ((فطوم))، كان شديد اللهجة .. عرفت لاحقًا أنه كان بسبب إخبار ((جميلة)) لوالدتنا أن ((رشيد)) يريد التقدم لخطبتها، وقد قوبل الأمر بالرفض التام من قبل والدتنا بدون حتى أن تخبر عنه والدنا.. وقد بدا الانزعاج واضحًا في صوت ((فطوم)) وهي تقول :

- عندما تكون سيرته سيئة، بعيدًا عن الله فهو مرفوض تمامًا من دخول حياتك والتي هي بدورها حياتي وحياة والدك وشقيقتك.

- لكنه وليس بمثل هذا السوء.

صرخت فيها ((فطوم)) :

- جميييلة ..

قُلت سيرته سيئة والكثيرين يتحدثون عنه ..

إذًا .. مرفوض.

جِدالٌ أعقبهُ جدال، نقاش طويل دار بينهما، لم أتدخل .. اكتفيت



بالمشاهدة، كان عقلي منشغلًا مع ((زين)) ووالدتة تارة وتارة أخرى أتساءل من أي مكان ظهرت تلك المشاكل فجأة .. أين الهدوء الذى كنا نحيا فيهِ دائمًا؟.

توالت أيام .. أبرز سماتها التوتر، القلق، وكثير من المشاكل، تبدلت بعض الأمور قليلًا بعد رفض والدتي طلب ((جميلة)) بأن يتقدم ((رشيد)) لخطبتها، ازدادت زيارات ((شاهندة)) لها وجلوسهما وحيدتين في الغرفة، كان الأمر يُنذر بأن هناك شيئًا ما يُدبَّر من قِبَلِهما .. ولا يُدبِّرُ الأمر إلّا الله.

❋❋❋

انزوينا سويًا تحت ظلال شجرة عملاقة توسطت الحديقة العامة، جلسنا متقاربين تمامًا كشخص يحتضنه ظله، أستمتع بدقات قلبه مُغمضة العينين، بينما انشغل بشروده في أشياءٍ أُخرى كعادة أيامه الأخيرة، فتحت عيني وكان شاردًا ينقش شيئًا ما في جزع الشجرة، فاستغربته تمامًا، وسألته ..

- لِماذا؟!..

- ....

- شارد .. و تؤذي الشجرة!!

- تؤذيني الحياة.

عقبتُ مُستغربةً :

- إنكَ آخر شخص يستغيث من الحياة، الحياة بأكملها تأتيك طواعية، وكأن الله أراد لك أن تعيش في أمان، ثم دعك من كل ذلك واشرح لي «لماذا تجرح الشجرة؟! جرحتها يا ((زين))!!.



كنت أتحدث معه عن الشجرة أحاول إخراجه مما يدور في رأسه، و قد بدا لي أنه لا يريد مشاركتي شيئًا عنه، لكنه فاجأني بردود بدت فيها العصبية وشيء من الحدة، قال مُستهزءً بتعليقي على أيذائه الشجرة :

- براءتكِ تجعلك تبدين ساذجة، و الساذج هذه الأيام يتأسى في كل شيء، لذا كوني أقسى من ذلك كي تستطيعي النجاة. ولا تتوقعي من الآخرين أن يكونوا لطفاء ما دمتِ مهذبة معهم ، الحياة ذاتها لا تراعي المهذبين.

صعقتني الإجابة، لا أفهم كيف للأشخاص أن يتحولوا من اللّين إلى القسوة بهذه البساطة، كيف للعالم أن ينبُذ طيبة القلوب ويدعو للقسوة دون أن يأبه لمشاعر الآخرين، لماذا يتناسى العالم أن الإنسان الذي يتعامل مع الأشياء بحنانه تثقلهُ القصيدة، ويؤلمهُ إن مات بطلُ الرواية، وتمنعهُ أغنيةٌ ما عن النوم؟!.

أغمضت عيني قليلًا شاردةً بعقلي..بينما استغل الفرصة وبدأ بتأمل ملامحي عن قرب وأنا مغمضة العينين قبل أن يقترب مني للغاية لدرجة أن شعرت بأنفاسه الدافئة تلامس وجهي، فتحت عيني ببطء لأجد وجهه أمام وجهي، ينظر بعينيه في عيني مباشرة، أصابتني حالة من عدم المقدرة على اتخاذ ردة فعل، لم أستطع الحركة، مد يده كشف جُزءً من شعر رأسي، ثم وضع شفتيهِ على شفتي دون سابق إنذار، ارتوى منهما كمن كان تائهًا في صحراء المغرب الكبرى دون ماء حتى جفت أطرافه والآن يريد أن يرتوي.

تدفق الإدرينالين في جسدي بشدة، شعرت بلذة ريقه الممتزج بريق شفتي، والرعب في نفسي، دق ناقوس الخطر بعقلي وبدا الخوف جدًا في ملامحي، تُرى ماذا يتبقى؟! وإلى أي فعل نحن ذاهبون؟!

استفقت مما نفعله متوترة للغاية، حاولت الهرب مما حدث فسألته عن



حال والدته .. فأخبرني أنها مريضة تتعافى ببطء و تعود من جديد مُتعبة، وأنهم يحاولون التعايش مع المرض، و هذا أحد أسباب لقائنا اليوم.

قبل أن أُبدي استغرابي من أن لقاءنا أحد أسبابه مرض والدته وضح قائلًا .. خططا والديَّ لأن أتزوج، طلبا مني اختيار زوجة، حيث إن البيت أصبح في أشد الاحتياج لوجود من تُعيله خاصة في ظل ضعف والدتي وتوافد طالبي الزواج من مومو التي قد تتزوج في أي وقت وترحل عن البيت.

شعرت لحظتها بتضاربٍ في المشاعر، للحظة ما أنا سعيدة أن ((زين)) سيتزوج، بالتأكيد سوف يطلبني للزواج، و للحظة أخرى حزينة لشعوري أنهم يحتاجون خادمة و ليست زوجة، لا أفهم المغزى في نظرة الشرقيين للمرأة على أنها خادمة فقط، تتزوج لتهتم بمأكلهم، مشربهم، ونظافة ملابسهم، إنه أمر مُزري للغاية أن تُعامل كخادمة حتى وإن فَرَضتْ الظروف عليها هذه الاشياء فمن الضروري ألَّا يجعلوها تشعر بأنها مفروضة عليها كخادمة، وقبل أن أتمادى في التفكير قاطعني بسؤاله :

- هل تقدمون العشاء للزوار دائمًا أم أن والدتكِ لا تُجيد الطهي؟!

- نعم !!

لا تجيد الطهي ؟!

أنت مجنون أليس كذلك!!.

- مجنون !!

إذًا فلتخبري والدكِ أنه ثمة شخص مجنون يريد منه تحديد موعدٍ لزيارته، رغبة منه في طلب يد ابنته المجنونة، من أجل أن يصنع منها أشباهًا صغارًا.

***



ليلتُهـا .. لم تغمـض لي عـين، انتظـرت مجـيء الصبـاح مترقبـةً ردة فعـل والـدي عـلى والـدتي بعـد أن تخـبره بالأمـر، جـاء الصبـاح وتجهـز السـيد ((جمـال الديـن)) للذهـاب إلى عملـه بينـما كنـت أترقبـه بشـغف إلى أن خـرج مـن بـاب المنزل فـأسرعت مهرولـة إلى غرفـة والـدتي، اقتحمـت الغرفـة دون استئذان مـن شـدة اللهفـة، لم أدق البـاب بـل دفعتـه ودخلـت لتجـدني أمامهـا مباشرة أتطلـع في عينيهـا مبتسـمة في خجـل ولهفـة، أنتظـر منهـا أن تقـول شـيئًا يـشرح صـدري .. نظـرت في عينـي وهـي تبتسـم ابتسـامتها المعتـادة قبـل أن تقـول :

– ستبقين طفلةً حتى آخر العمر.

قاطعتها بلهفة سائلةً :

– ماذا قال؟!

– لم يقـل شـيئًا، فقـط أخبرتـه أن هنـاك مـن يرغـب في ملاقاتـه كـي يطلـب منـه أن يكـون هنـاك زواج بينـه وبـين إحـدى ابنتيـه .. و لم يبـدِ اعتراضًـا، فقـط سـأل مـن هـو؟.

– ثم !!

– ثم لا شيء، أخبرته أنه زين، و بالطبع والدك يعرف من هو زين.

– هل أخبرك شيئًا بخصوص جميلة؟!

– جميلة!! أي شيء يخبرني به عنها!.

– أنها الأكبر!!أو الأجدر بالزواج أولًا!!.

أو أي شيء من هذا القبيل؟!.

طمأنتني ..

– لا ..في الحقيقـة لم أخـبره أن زيـن آتٍ إليـكِ أو إليهـا، فقـط أخبرتـه أن



هناك من يرغبون فى لقائه، ولا أظن بأن هناك فارقًا فهو نصيب يأتي لمن يشاء لها الله أولًا .. فاطمئني.

- إذًا .. بماذا أخبر زين؟!.

- أخبريه بأن له موعدًا هو وأهله معنا ليلة الجمعة، بعد غد.

ليلتها .. طال الليل ونحن نتحدث عبر الهاتف، الحديث بيننا لا يُعرف له أول أو آخر، نتكلم في كل شيء، نتبادل الأخبار، وجهات النظر، نتكلم عن الكتب، وبالطبع تتخلل المحادثة بعضًا من كلمات الحُب التي يطلقها ((زين)) في وسط الحديث فيخرسني خجلًا، لكن ذلك لم يمنع الخوف أن يتسرب داخل قلبي فأخبرته أني خائفة بشدة، و أن عليه العلم بأن الحياة قد تميل بظروفها وأقدارها، لكن ما في قلبي إليه ثابت لا يتزحزح مهما عصفت به الأيام، وطلبت منه لو صار شيء ما ألَّا يبتعد، وألَّا يتخلى عني مهما حدث، وألَّا يخذلني أبدًا، أموت لو فعل.





(8)

وقفت في زاوية الشرفة المطلة على الشارع، لكن هذه المرة لست قلقةً أنتظر منه رسالة يطمأنني عليهِ، إنما وقفت أترقب قدومه برفقة عائلته نحو البيت، كنت مرتديةً عباءةً سوداء مصنوعةً من الحرير، تُظهر أطراف شعري المُختفي أسفل الحجاب مصبوغةً باللون الأحمر والحِنَّاء قد رسمت أطراف أصابعي، أشعر ببهجة كأنني أنتظر قدوم رسول من الجنة آتٍ إلى بيتنا.

بعد قليل كانوا بالفعل قد وصلوا عند مدخل العمارة، لحظتُها كانت ((جميلة)) مجتمعةً بوالدنا في غرفتهِ الشخصية، اعتقدت حينها أنها تتحدث إليه في أمرها مع ((رشيد))، كان ((زين)) وعمه الكبير وأحد الأقارب من كبار السن والمقام مع صديقين للعائلة قد دخلا من باب الشقة بعد أن فتحته لهم والدتي ((فطوم)).

اجتمعوا بغرفة الضيوف المواجه بابها باب غرفة نومي، لحُسن حظي جلسوا جميعًا داخل الغرفة بينما جلس ((زين)) بمواجهة الباب، ما إن فتحتُ الباب وجدته أمامي مباشرة، للحظات اختلسنا النظر بوجوهٍ قد أضاءتها السعادة، إلى أن تحدث عمه ((حمزة)) وبدأ سرد كلامٍ مُنتقى بعنايةٍ فائقةٍ، شكر فينا، و في سيرتنا، قبل أن يُنهي حديثه بأنه يريد أن تكون ((منة الله)) جُزءً من العائلة.



كان جسدي ينتفض فرحًا، ووجهي متضرج بحمرة الخجل الممزوجة بالسعادة، ثم خرج صوت والدي يثني على كلمات العم ((حمزة)) ويشكره على حُسن حديثه قبل أن يسأله مُستفهمًا إن كان يقصد بالاسم ((منة الله)) أو أنه يقصد ((جميلة)) مبررًا أنَّ ((منة الله)) ما تزال صغيرة للغاية على الارتباط.

غُرس سهم في خاصرتي، شبت في صدري محرقة، تباطأت دقات قلبي، تملكني الرعب، أيعقل أن يكون ما خشيته؟! وبينما احتبست أنفاسي للحظات تحدث ((زين)) بصوت هادىء موضحًا بأنه لا يوجد خطأ، وأنهم بالفعل يقصدونني وليس ((جميلة)).

لم يعلق والدي .. حلَّ الصمت مُجدَّدًا لبرهةٍ قصيرةٍ، مضت عليَّ وكأنها ألف شهر، كِدت أختنق، وودت لو أن أخرج إليهم صارخةً بأعلى صوتي في والدي أطالبه بأن يتكلم ويعلِّق بأي شيءٍ قبل أن يتوقف نبضي خوفًا من الانتظار .. مؤلمةٌ لحظات الانتظار، تُعذِّبُنا دون أدنى شفقةٍ.

تحدَّث السيد ((جمال الدين))، أخبرهم أنَّ ((منة الله)) صغيرةً، كما أنَّ لها شقيقة أكبر منها لم تتزوج بعد، غير أنها ما تزال تدرس.. تدخَّل العمُّ ((حمزة)) قصَّ عليهِ كيف أن بنات عائلتهم وعائلات أخرى تتزوجن صغيرات، وكيف أن له ابنتين قد تزوجتا في نفس سن ((منة الله)) .

الأمر لم يُلاقِ قبولًا عند السيد ((جمال الدين)) الذي قال مُعقِّبًا :

- أحترم رأيك، وإن كان صائبًا فلا تنسَ أيضًا أنَّهُ لا يجوز أن تتزوج الأخت الصغرى قبل شقيقتها الكبرى.

قاطع ((زين)) الحديث مُتهكمًا ومُنددًا :

- هذه مجرد عاداتٍ وتقاليد قد بليت وانتهت، فكيف يتسنى لنا أن



نكون سُجناءُ عاداتٍ وتقاليد وضعها أُناسٌ عاشوا قبلنا في زمنٍ مُختلفٍ وظروفٍ مختلفةٍ ونجعل منها قوانين تتحكم في مساراتِ حياتنا.

تبدَّلت ملامحُ السيد ((جمال الدين))، بدا مُستاءً، لأن حديث ((زين))لم يلقَ قبولًا عنده، تَدخَّل العم ((حمزة)) مُسرعًا في محاولةٍ منه لتلطيف الأجواء، واقترح حلًا وسطا، ينُص على قراءة الفاتحة بالاتفاق على الموافقة شريطة أن ننتظرَ عامًا كاملًا، فإن كان لـ ((جميلة)) نصيب كان خيرًا وإن لم يشأ الله فلنتنازل عن العادات والتقاليد البالية ونتمِّم الاتفاق.

ساد الصمت ومرت اللحظات ثقيلة، الجميع في انتظارِ أن يردَّ والدي، طالت لحظات الصمت ولا شيء يصعب تفسيره كما يصعب تفسير الصمت، فهو الاحترام والإهانة، الرضا والسُخط، اللامبالاة والمبالاة كلها.

بدت قطراتٌ من الدموع تترقرق في عينيَّ بينما ((زين)) ثابت في مكانه لا يتحرك، وجاء حديث والدي أوجع من الصمت، فقال موجهًا الحديث للسيد «حمزة».

- إنَّ الحياة بأكملها في ليلة وضحاها قد تتبدل فما بالك باثنى عشرَ شهرًا؟! كما أنَّهُ لا يجب أن نعطي لهم حق الارتباط بأشياءٍ قد تسؤهم لاحقًا، لذا أرى من الأفضل أن نترك كل شيٍء على سجيته إلى أن يشاءَ الله.

أحسست بالخَدرِ يسري في جسدي، بدا لي أنني أقتربُ مِن فقدان الوعي ومادت الأرض تحت قدميَّ حتى سمعت ردَّ العم ((حمزة)) قائلًا :

- كما تريد يا سيد ((جمال الدين)).. وهى فرصةً جيدةً أن التقينا.



لم يكتفِ والدي بالرفض، بل زاد من إيذائه فيَّ قائلًا :

– شكرًا جزيلًا سيد ((حمزة))، فُرصةٌ سعيدةٌ أن استضفتكَ بمنزلي المتواضع، لكن لي عندك رجاءً.. أكِّد على ((زين)) بعدم الاقتراب مُطلقًا من ابنتى، فأنت تعلم طبيعة مجتمعنا جيدًا، و أتأسف بشدة لو أن شيئًا ما أزعجك أثناء حديثنا.

بدا الاستياء واضحًا في صوت العم ((حمزة)) وهو يرد قائلًا :

– لا داعي للأسف، وأظنك تعرف جيدًا أنَّ ابننا لن يتعدى حدود الأخلاق مُطلقًا ولن يتسبب يومًا ما في إيذاء أحدٍ أيًا كان، فما بالك بـ .... بابنتك .. دمتم بخير.

***

كنت أعرف أنني سأضطر لمواجهة أشياء أرفضها، كنت أعرف أن الحياة ستفعل بي ذلك، تتركني مع قوتي وحدي وأمامي معارك واحتمالات للغلبة أو الخسارات، لكن أن يكون بيني وبين من أحببته شارع، ويقف بيني وبينه العادات والتقاليد وأبي وامي وعائلتي وكأنه لا يريد الزواج بي إنما يرغبُ في قتلي ورميي في قاع الجحيم .. هذه مزحة سيئة، ياللتعاسة !!

كنت صغيرةً، لا علم لي أنَّ الزواج المبكر يُعدُّ إحدى المصائب الكبرى، كل ما أعرفه أنني تعلَّقتُ بشابٍ وأُريده لي زوجًا وشريكًا لبقية عمري، لم أتساءل وقتها، إن كنت حقًا قادرة أن أكون زوجة؟! أن أُدير وأتدبر أمر منزلٍ وأعيش فيه مع رجلٍ أكون مسئولةً عنه؟! أم أنه عليّ الاهتمام بالتعليم وتقوية نفسي ونجاحي، واستعدادي التام لمجابهة المجتمع وتحمُّل مسئولية أن أكون زوجةً ناجحةً في وقتٍ ساد فيه الفشل الأسري.



لبضعة أيام انهمرت دموع العين بلا توقف، تواسياني ((فطوم)) و ((جميلة)) بدون جدوى، حاولت مرارًا التواصل مع ((زين)) دون نتيجة، فانتابني الغضب واشتعل داخلي حتى أحسست بأن أوردتي تتضخم، ويكاد الغضب ينفد منها، يأججها بطريقة أقرب إلى الموت، كم تمنيت لو أن الآلام لا تتعرف علينا، أو لعلها تنسانا أو تقرر عدم المجيء لنا، أو تصبح ذات ضميرٍ وتخجلُ من كل هذا الوجع الذي تقذفه بنا فترحل دون عودة.

أهرب من آلامي في النوم، فأستفيق مفزوعةً، تأتيني ((فطوم)) وتطمأنني بأن كل شيء سيمضي، وأن الأَمر لم ينتهِ بعد.. فأنام مجددًا .. ثم يأتي ((زين)) برفقة شقيقته ((مومو)) حاملةً صندوقًا صغيرًا، يدخلا من باب غرفتي مُبتسمين، تقول ((مومو)) بثقة :

- كنت موقنةً أنكِ ستصبحين زوجة أخي ذات يوم.

ثم تُخرِجُ من الصندوق خاتمًا من ذهب، وسلسلة تتوسطها وردةً ذهبيةً شديدة الجمال، ثم تقول مرةً أخرى وهي تمد يدها تعطيهم ليّ :

- ما كان ((زين)) ليتخلى عن حبه أبدًا.

فيتهلل وجهي فرحًا ويرقص قلبي مسرورًا، فينفتح باب الغرفة بشيء من القوة ليدخل والدي ويقطع الحلم .. حتى الأحلام يتم حرماني منها .. يجلس بجانبي، و يخبرني بلا مقدمات أن الدموع صفة من صفات الضعفاء، وأنَّه لا أحد يعرف مصلحة الابنة أكثر من والدها، ثم يطالبني بنسيان ((زين)) تمامًا، وإقناعي بأنني سأكون زوجةً لـ ((نزار)) ابن العم، فهو يحيا وحيدًا تائهًا يحتاج لمن تشاركهُ حياتهُ ثم يضيف أن الأمرَ غير قابلٍ للنقاشِ.



أنهي حديثه وخرج من الباب، فنزف الجُرْحُ مجددًا و عدت إلى بكائي.

أعلم أن البكاء لا يجدي و أكره أن أكون بهذا الوهن، بهذا الحزن والتلاشي، إنه لمنْ المؤسف أن تكون فتاةٌ مثلي باردة مطموسة الملامح كالضباب كمنفضةُ سجائر احتوت على أحلامٍ مُطفأة .. لا شيء يُذكر!! أتساءل هل البؤس قدر الجميلات ؟! أم أن الله قد كتب عليَّ الشقاء بلا سبب، كم هو مثير لـ السُخرية والشفقة أن نتجاوز أحزاننا القديمة بأحزان جديدة يصنعها لنا المقربون.

أتساءل كيف تفكر العائلة ؟! إنها تكسرنا أكثر مما تفعل الحكومة والسجون وزوار الليل والمتحرشين، والناس أجمعين، إنهم لا يدركون أن الزواج الذي ينشأُ دون حب كعبادة بدون إيمان، شيء قبيح وسيء .. هش للغاية، لدرجة أنه يسقط من نسمة هواءٍ باردةٍ رقيقةٍ للغاية، ومع ذلك يصرُّون على ما يطلقون عليه «نعرف طريق مصلحتك أكثر منك».

يُعطون أنفسهم الحق في اختيار أشخاص سوف نلتحف أحضانهم كل ليلة، إنه أمرٌ بائس أكثر مما يتخيله إنسان أن يختار لك أحدهم الشخص الذي سوف تنام في أحضانه.

كلما هزموني تسرَّبَ داخلي شعورٌ بأنني الأطلال ولا أحد يبكي عليَّ، ولكن مثل هذا الشعور لا يمكن أن يستحوذ على امرأةٍ تجيد القراءة وتُحسِن مرافقةِ الكتبِ، لذا لم يطل هذا الشعور فقد عدت أُذكِّر نفسي بأني لا أعرف طعم الاستسلامِ.

مَن قرأت ((ثلاثية غرناطة)) وتعرَّفت على قوة تحمُّل ((سليمة)) ودهاء وأصالة ((مريمة)) لا يمكن أن تُكسر بسهولة، مَن علمت بمعاناة ((العذراء مريم))، وصبر ((يوكابد)) أم موسى عليهِ السلام لا تنكسر.

من قرأت ((Moby Dick)) لـ ((هيرمان ملفيل)) ورأت كيف للإنسان أن



يُحارب الضياع في محيطٍ مجهولٍ ليس له نهاية، ثم يتحلَّى بالصبرِ والعزيمةِ وكثيرٍ من الإيمانِ حتى ينجو لا يمكن ان تستسلم وتهزم بسهولة.

لذلك .. بحثتُ عنه مجددًا، أرسلت إليهِ على هاتفه أقول :

- أينكَ مني؟! أنا لستُ أقوى من كل شيء، لستُ بجلد مريم أو بصبر أيوب، ولستُ يسّوع أو حتى زيوس، ربما قرأت عنهم وتعلمت منهم لكن.. ثَمّ أشياء قادرة على هزيمتي أبرزها غيابك، ما أعرفه أنني معك أستطيع تجنب كل شيء سيء .. فأينكَ مني.

أرسلتها واستلقيت بالفراش مجددًا، نائمة على هيئة الحرف (د)، يترقرق الدمع من عيني بلا توقف، جسدي أمسى باردًا للغاية، روحي قد انكمشت وانسحبت من جميع أطرافه، وأنزوت وحيدةً تبكي في أبعد جُزءٍ منه عن قلبي، أترقَّب الهاتف، وأتمنى لو أن الشاشة تُضاء برسالة لينبض قلبي من جديد، ولأن الله أكرم من أن يتركني هكذا فقد جاء ردُّ ((زين)) سريًعا برسالة مُقتضبة كتب فيها ... «غدًا ف الجامعة».

***

صباحًا ..اعتقدت أننا سنلتقي في الحافلة كعادة أيامنا سويًا، لكنه لم يحضر ليصطحبني، لم أجده، فضاق صدري، خشيت ألَّا يأتي، لكنِّي أعرفه جيدًا لا يخلف وعدًا، طمئنت نفسي حتى وصلت الجامعة و ألتقيته.

رغم زحام الطلاب إلَّا أننا و على غير العادة جلسنا متجاورين للغاية، يتوسطنا الصمت المخيف، كل منا ينتظر من الآخر أن يفتح بابًا للحديث إلى أن سألته بخوف :

- قل شيئًا!!

فأجاب بنبرةٍ حزينة :



- اطمئني، شأني في حبك كشأن المؤمن كله خير،

فإن أصابته سراء شكر، وإن أصابته ضراء صبر،

ثم إني والله في حبكِ لمن الصابرين.

أنهى جملته فتنهدّتُ وأسندت رأسي على كتفه وبكيت.

في يقيني لم تكن المشكلة أبدًا في الحب، كانت المشكلة الدائمة بيننا نحن أبناءُ هذا الجيل ومن سبقونا خاصة من الأهل أنهم ظنَّوا بأننا صغارًا، لم يواكبوا التطور، لم يستوعبوا أن القرن الحادى العشرين والتطور الذي حلَّ مَعَهُ قد بدَّلوا المفاهيم، فأصبح العالم أكثر انفتاحًا وأصبح صغار السن أكثر وعيًا عن سنهم، وأكثر إدراكًا في المجالات المُختلفة، فتجد من هم فوق الثلاثين والأربعين يتعلمون ويتعرفون على التكنولوجيا مِن خِلال مَن هُم تحت العشرين، تبدَّلت الأحوال والأفكار، و هذا لا يمنع أننا نُكِن لهم كل الاحترام ونعلم أنهم أكثر مِنَّا خبرة في المشاكل الحياتية، لكن ذلك لا يعطيهم الحق في التحكُّم بنا، فما قيمة الحياة إذا كنا سنعيشها وفق اختيارات الأخرين؟!؟.

***

بعد أيام.. عادت الابتسامة مجددًا، اعتدَّت أنا و ((زين)) على التلاقي كما كنا وكأَنَّ شيئًا لم يكن، ورغم تفهُّمي أن مخالفة أوامر السيد ((جمال الدين)) شيئًا خاطئًا إلَّا أنني كنت أُبرِّرُ فعلتي بأننا لا نفعل شيئًا مُحرمًا، نحن فقط نتبادل الكتب، ونتناقش في كل دروب الحياة من حيث العلم والتقدم ومشاهدة الأفلام، كنا نختطف شيئًا من اللحظات الجميلة، نمشي سويًا في انتظار أن تزول الغُمَّة بإقناع ((فطوم)) لزوجها بأنني لا أصلح زوجةً لغير ((زين)). كُنا نأمل خيرًا.



بعد إسبوعين .. انتهى اليوم الدراسي، وكما أعتدنا فعله خرجنا سويًا من الجامعة متجهين نحو الحافلة لتقلّنا إلى المنزل، ضممت كُتبي إلى صدري و في داخلهِ أحتضن حبي لـ ((زين))، وارتسمت على شفاهنا ابتسامة البدايات.

صعدنا إلى الحافلة المزدحمة بجموع الركاب، وقفنا في المنتصف، من شدة الزحام نبدو وكأننا نحتضن بعضنا البعض، همس ((زين)) إليَّ بما أضحكنا سويًا في براءةٍ وعذوبةٍ، كانت جموع الركاب في الحافلة تراقب حالتنا بوجوه باشة، بعضًا منهم يظن بأننا توأم فتشابه ملامحنا يبدو مثيرًا للغاية.

شخص واحد فقط كان يجلس في مؤخرة الحافلة، التقت عيناي بعينيه وكان يتأجج غضبًا كبركانٍ يوشك أن يثور، كان غاضبًا بشدة يحدقني بنظرات توعدٍ مخيفةٍ، كاد قلبي أن يتوقف خوفًا عند رؤيته.

لاحظ ((زين)) تبدُّل حالتي من الطمأنينة والفرح إلى خوفٍ وحُزنٍ في ثوانٍ معدودةٍ، نظر إليّ وقد بدا مُستغربًا لما يراه في وجهي، فانتابته حالة من القلق والتفت ينظر حيث أنظر، فتلاقت الأعين، وتبادل ثلاثتنا النظرات المختلفة ما بين خوفٍ وقلقٍ ووعيدٍ، قبل أن يعود كلٌ منّا وينظر للآخر وقد اعترتنا حالة من الهم والقلق واضحة على وجوهنا مع الحيرة.

وصلنا محطة نزول ((زين)) الذي آبى أن ينزل ويتركني وحيدةً في هذا الموقف مع كل هذا الخوف والقلق الذي أشعر بهما، فأكملنا معًا حتى المَحَطَّةِ التالية ((شارع العريش)).

توقفت الحافلة أمام الشارع، فخرج من الباب الخلفي ماشيًا وكأنه لم يرنا، بينما ترجَّلنا خلفه نتبادل نظرات الوجوم، كنت خائفةً بشدة بينما بدا ((زين)) ثابتًا في محاولةٍ منهُ لطمأنتي، ولم يكن شيئًا ليطمئنني فقد كنت أفكر فيما سيحدث.. كنا نبدو كسكارى تائهين وسط زحام



((شارع العريش))، فنصطدم بالأشخاص أو متعلقاتهم لكننا لا نأبه لشيء حتى وصلنا أمام باب العمارة، فتوقفت أقدامنا رغمًا عنا، طلب ((زين)) مرافقتي والصعود معي إلى الشقة، إلا أنني رفضت، أخبرته بوجوب أن أواجه ذلك وحدي، فقط عليه أن يرحل وينتظر منِّي مكالمةً لأطمئنه فيها عمَّا سيحدث.

***

دخلت من باب الشقة بعد أن فتحته ((جميلة)) من الداخل وكانت على طبيعتها تمامًا، وكأن شيئًا لم يحدث، لم يكن السيد ((جمال الدين)) في الصالة ينتظرني كما توقَّعتُ، وبدون أن أنبث بكلمةٍ واحدةٍ تسلَّلتُ بخطى ثقيلةٍ وقلبٍ مرتجفٍ نحو غرفتي مباشرةً، انتظرت مجيئه فور معرفته بعودتي من الخارج، أو أي ردَّة فعلٍ أُخرى، لكنَّ شيئًا من هذا لم يحدث، وكان هذا مقلقًا أكثر فمع كل دقيقة تمر كان الخوف يتملكني.

بعدما يقرب من ساعةٍ انفتح باب الغرفة، أطلَّ برأسه و قال :

- أخبريهِ أن يأتي مُجددًا عشية الجمعة القادمة برفقة أهله.

أغلق الباب وراءه وتركني وسط حالة من الدهشة غير مصدِّقةٍ لما يحدث، كنت أنتظر عقابًا كبيرًا لكن يبدو وكأنه قد رضي بالأمر الواقع ووافق على ((زين)).

اعتقدت أنها تدابير الله، فسبحانه عندما يريد أن يجمع شتات قلبين يدبِّرُ الأمر فيمحي ظلم الجغرافيا ويقلص المسافات حتى يصير نبضهما واحدًا، كنت موقنة بأن الأشياء قد تبدأ رائعة وتنتهي على غير المتوقع، وقد تبدأ مخيفة وتنتهي كذلك على غير المتوقع، فكل بداية لا تمنحنا الحقيقة، النهاية وحدها تفعل.

***



(٩)

- ((التقدم في العمر يتطلب شجاعة كبيرة)).

هكذا ردَّدتْ الجدة ((حسيبة))، قبل سنوات في ((شفشاون))، كنت صغيرةً لم أُدرك معناها، الآن تفهَّمته، تفهَّمتُ جيدًا كيف أن التقدم في العمر يعني مواجهة الخسارات المتتالية، كمغادرة الجدَّة نفسها نحو السَّماء، أو رحيلنا عن ((شفشاون)) وافتقادي للصديقات هناك، أو خسارتي لكلية الفنون الجميلة، كل هذه خسارات كانت تتطلب شجاعة كبيرة لتحمُّلها، لكن .. ماذا لو أن هناك خسارات أكبر؟! ثم ماذا لو أن ((برنارد شو)) كان مُحقًا ؟! في الحقيقة لا أعرف إجابة عن سؤالي .. لكن!! ما أعرفه أنني كنت قد قرأت ذات مرة : ((أنّ الانكسار يستحضر في المرأة نوعًا ما من أنواع القوة))، وأنا لربما أكون كل شيء ماعدا أنني امرأة مهزومة، سأموت لأجل أن لا يحدث هذا.

***

الجمعة صباحًا ..كانت ((جميلة)) في المطبخ تقوم بتجهيز الأفطار، عندما كنت في غرفتنا أُرتِّبُها، وكان الرَّاديو قد ارتفع فيه صوت الشيخ ((محمود صديق المنشاوي)) وهو يتلو آيات من سورة ((الكهف)) كعادة صباح كل جمعة، رغم ذلك كنت شاردةً تدور في رأسي بعض الأحداث التي عشناها مؤخرًا.



((نـزار)) يعـود كل ليلـة عنـد الفجـر مخمـورًا، يحدث جلبـة عـلى السـلالم حتـى يصـل شـقته، يفتـح بابهـا فتخـرج منهـا رائحـة الخمـور والدخـان النتنـه، رغـم أننـا نقـوم بتنظيفهـا لـه بـين حـين وآخـر .. أمَّـا السـيد ((جمـال الديـن)) فـكان ينشـغل يوميًـا في عملـه، والعزيـزة ((فطـوم)) تهتـم بشـئون المنـزل، بينـما ((جميلـة)) .. أوٍ منهـا ((جميلـة))، تغـيَّرت كثـيرًا، لم تعـد فتـاة ((شفشـاون)) الصالحـة، بدَّلهـا ((رشـيد))، فباتـت تهـرب مـن محاضرات الجامعـة لتلتقيـه كـما تفعـل ((شـاهندة)) التـي تهـرب هـي الأُخـرى لتـزور ((عبيـد الله)) في محِّـل عملـه، والتـي باتـت علاقتهـم محَلَ شـكٍ وجـدالٍ.

كنـت أشـاهد مـا تفعلانـه دون أن أتدخَّـل، إنَّـهُ زمـن التناقضـات فـإن نصحتهـم اختلقـوا فيـك عيوبًـا أنـت نفسـك لا تعـرف عنهـا شـيئًا، مـن أجـل أن يمسسـك مـا مسَّـهم مـن السـوء، و إن وشـيت بهـم لأحـد بُغيـة أن ينقذهـما اتخـذوكَ عـدوًا وكادوا لـك المكائـد حتـى أوقعـوك في شَركٍ لا تعـرف لـه نهايـة.. مسـتائة مـن صمتـي عليهـم لكـن مـا باليـد حيلـة، أُعـزِّي نفسـي بـأن كل مِنَّـا لـه معركتـه الخاصـة مـع الحيـاة، وعليـه أن يجتازهـا بنفسـه، فـما حـكّ جلـدك مثـل ظفـرك.

***

مسـاءً ..جلسـت في غرفتـي تعترينـي حالـة مـن القلـق، رغـم أنـه مـن المفـترض أن أكـون مطمئنـةً سـعيدةً، لكـن شـيئًا مـا كان يقلقنـي، بينـما كانـت ((جميلـة)) جالسـة أمـام شاشـة الحاسـوب تسـتمع إلى الموسـيقى وتتحـدَّث إلى ((شـاهندة)) عـبر الدردشـة، لا تبـالي بـشيءٍ.

بـدأ قـرآن المغـرب عـبر مكـبِّرات الصـوت الخاصـة بالمسـجد القريـب بمفتتـح سـورة «النحـل»: ((أَتَـىٰ أَمْـرُ اللهَّ فَـلَا تَسْـتَعْجِلُوهُ))، انـشرح قلبـي عنـد سـماعها، لطالمـا كنـت مؤمنـة بالإشـارات وأعتبرتهـا إشـارة مـن الله، في



تفكيري كل ما حدث ما هو إلَّا ترتيبات إلهية، لطفٌ منهُ سبحانه كي يردَّني إلى ((زين)).

كانت السعادة بادية في ملامح وجهي تفضحني، وشيء من الطمئنينة والأمان يسريان في أوردتي، و ازداد بحلول عطرهُ يسبقهُ قبل أن يدقَّ جرس الباب مُعلنًا حضوره، ومثلما حدث في المرةِ السابقة، جلس جميعهم بالغرفة من الداخل بينما جلس بمواجهة باب غرفتي مُجددًا يسترقُّ النظر مترقِّبًا ظهوري وما كنت لأتأخَّر عنه فقد فتحت الباب بحرص لنبدأ في تبادل النظرات خلسة للمرة الأخيرة قبل أن يصبح متاحًا لنا أن ننظر لبعضنا البعض كيفما نشاء دون خجلٍ أو تجريم.

تبادلنا النظر لثوانٍ معدودات بينما كانت ((جميلة)) والسيدة ((فطوم)) متواريتان عن الأنظار، ظننتهما تعدان مشروب الضيافة، وبينما تسري في عروقي دماءٌ دافئةٌ بفعل لحظات السعادة التي أعيشها وإذا بِالسيد ((جمال الدين)) يبدأ حديثه و قد كان له رأي مفاجئ.

بدأ كلامه بلهجةٍ حادةٍ موجِّهًا اتهامه نحو ((زين))، بقلة التربية وتشجيعي على معصية أوامره والخروج معي والتسكُّع وسط الشوارع، كانت لهجته حادة للغاية وهو يعلن مكررًا رفضه التام والنهائي لهم، وأنه يطالبهم بحسن تربية ابنهم أولًا وتحذيره من التدخل في حياتي، واستطرد متهكمًا : كيف أن عائلة كبيرة اجتماعيًا وماديًا لا يستطيعون التحكم في تصرفات ابنهم؟ فيتسببون بالإساءة لغيرهم وكيف أن ... ..

و ينما استمر في توجيه الإهانة لـ ((زين)) وأهله لاذوا بالصمت وعقَدت الصدمة ألسنتهم.



نظر ((زين)) إليَّ مصعوقًا وكأنه قد صُفع على وجهه أو طُعن غدرًا في ظهره، أردت أن أشير إليه لأخبره بأنني لم أكن على علم مسبق بما يضمره السيد ((جمال الدين)) وما يحدث، وددت الصراخ لكن خانتني قوتي، هربت روحي فسقطت على الأرض مغشيَّة عليّ.

***

مرت ليالٍ ثلاث .. كنت فيهم بين الموت والموت، فاقدةً للوعي، كلما أستعدت وعييَّ تذكرت ما كان فأدخل نوبة بكاءٍ هستيريةٍ أفقد على إثرها وعييَّ مُجددًا.

تواسيني ((فطوم)) وتبكي على ما ألمَّ بي وضعفها أمام عجزها حتى في الدفاع عنِّي، تحاول بعض الصديقات طمئنتي دون جدوى، بينما كانت ((جميلة)) مكتفية بالمشاهدة كالجماد وكأن شيئًا لا يعنيها، نظراتها تشي بأن ما حدث لم يكن سوى شيء متوقع.

كان الأمر يبدو لهم سهلاً، أن أتخطى غيابه وأخرج الى العالم متلذذةً بالحياة، لكن على عكسهم تمامًا، أدركت جيداً أن عدم وجوده يعني أنني في مأزق أبدي، يطالباني بالصبر والقوة، وكم هو مؤسف أن يطالبك الكل في أشد لحظات ضعفك بأن تقاوم، دون أن يعرفوا مدى صعوبة شعور أنك تحاول ولا تستطيع.

حاولت مرارًا تصنُّع القوة ولو قليلًا، لكن من السهل أن تكون صامدًا قويًا أمام الشدائد كما لو كنت نبي، لكنّك عند السكون تبكي واهنًا كما لو كنت مدحورًا مقهورًا، وهذا ما أمسى عليه حالي، كلما اختليت بنفسي انهرت باكية فباتت علاقتي مع الصُّدَاع أقوى من علاقتي بالناس، بعد أيام اكتفيت بجعل غرفتي سجنًا صغيرًا، لا خروج ولا محادثات إلا مع قطتي ((منكوشة))، ألتمس النسيان فلا يأتي وليت



الأمر بتلك السهولة، أن نغمض أعيننا وننسى، مجرد التفكير بهذا العالم، وأننا علقنا هنا طوال تلك المدة دون أن نتمكَّن مِن فهم شيءٍ، إحساسٌ مفزعٌ حقًا.

مرارًا حاولت الوصول لـ ((زين)) لكن هاتفه كان مُغلقًا، حتى ((مومو)) هي الأُخرى لا تجيب على الهاتف، لا أستطيع التوقف عن البُكاء بينما كانت ((فطوم)) وبعض الصديقات لا يتوقفن عن محاولة تهوين الأمر عليَّ ومواساتي، أمَّا ((جميلة)) فكانت على طبيعتها تمارس حياتها المعتادة.

أُسبوع بأكمله أترقب الهاتف، أتمنى أن يأتي اتصال من ((زين)) ليطمئنَّ قلبي، ومن يصدِّق أنَّ الدواء لأرواحنا بات يكمن في اتصالٍ هاتفي.

كنت في وضع صعب، أشعر على أثره وكأنني محشورة في شَقّ، لذلك نمت في تلك الليلة نومًا متقطِّعًا، واستيقظت بسبب نوباتِ صداع قاتل ألمَّ بي وكاد يصل مرحلة الشقيقة، بحثت في الأدراج، غير أنني لم أستطع الحصول على أيّ مسكِّنات، فرحت أمسد صدغيًّا وأضغط على عيني اليمنى التي كانت ترفّ، وهو ما كان يفيدني دومًا في حالات الصداع، ثم زحفت بعد ذلك إلى سريري وتكوَّرت على نفسي، ولم أتوقع أن أنام، إلَّا أنَّني قبل أن أُدرك ذلك، استسلمت للنوم من شدة الأعياء.

***

بعد أسبوع .. كان مايزال لدي إيمان بأنه لن يتخلَّى عنِّي، وأنه سوف يتَّصل ليطمئن قلبي، فلم نكن مجرد مراهقَين تحت العشرين فقد قرأ كلٌّ مِنَّا الكثير من الكتب والروايات فأصبحت أعمار عقولنا أضعاف عمرنا، فالأعمار تُقاس بقراءة الكتب، بالنضج والتجارب لا بالسنين، ولم يُخيِّب



ظني واتَّصل، بدت لهجته حادَّة مليئة بالحزن، فتأسَّفتُ له عما بَدَرَ من السيد ((جمال الدين))، لكنه قاطعني بحدة قائلًا :

– لا يفيد الأسف يا هبة الله، الأمور أصبحت مُعقَّدة لدينا، بات علينا أن نكون أكثر جدية وواقعية وإلَّا فقدنا كل شيء.. بات علينا أن نتعدَّي أننا حبيبين ونصبح محاربين، أن ننظر للأمر على أنه معركة سوف تنتهي برابحٍ أو خاسرٍ ولا نتيجة غير ذلك.

– لكن يا زين ....

– لا تقاطعيني من فضلك واستمعي جيدًا، فلعلهآ خر حديثٍ بيننا.

– ماذا تقول؟!

– أقول الحقيقة .. وواقع ما نحن فيه.

– هل تتخلَّى عنِّي؟!

هل تضع قلبي تحت حد السيف؟!

– لا أتخلَّى عنكِ ولو أعطوني مُلك سليمان .. لكنَّني أمسيت أكثر واقعية فالأمور الآن مُعقَّدة وما حدث لن يمر مرور الكرام عند عائلتي، لقد وضعني ما فعلتموه تحت ضغط لا تتخيلينه، الجميع هنا يطالبونني بالزواج خلال أيامٍ كردٍّ على إهانة عائلتك برفضها لنا مرتين وبهذه الطريقة المهينة خاصة في المرة الأخيرة .

بصوت متقطع قلت له :

– ماذا تقول ؟!.. يُزوجُّوك من غيري !!

في أيِّ شَرعٍ أن يكسروا قلبينا ؟!

– في شرع العادات والتقاليد البالية التي حكم بها والدك علينا .

– لكن..لا ذنب لي فيما فعله والدي، وأنتَ تدرك ذلك.



- وأنا أيضًا ليس لي ذنب فيما تفعله عائلتي.. وأنتِ أيضًا تدركين ذلك .

- أنا أدرك وأنت تدرك وهم لا يدركون فما ذنب قلبينا ؟!

- اسمعي جيدًا يا هبة الله .. فلتذهب العائلات إلى الجحيم بعاداتهم وتقاليدهم وجهلهم الساكن في عقولهم .. ليس لهم فينا إلَّا الإحسان، أمَّا الطَّاعة العَمياء فهي ضياع مبين، لذا.. فليذهب العالم أجمع للجحيم ولنبقَ سويًا حد الفناء .

- كيف ذلك يا زين؟!

- فلنتزوج، ونضعهم أمام الأمر الواقع.

- والعائلة!!..

- قلت لكِ فليذهبوا إلى الجحيم .

- إن والدي قد يفقد حياته في هذا، وأنا لا أرتضى ذلك .

- إذن أنتِ ترتضين لنا الموت ونحن أحياء !!

- لا.. لكن بالتأكيد هناك حلول أخرى غير هذا .

- لا يا هبة الله .. لا توجد حلول أخرى، لقد وضعتنا عاداتهم وتقاليدهم أمام خيارين لا ثالث لهم.. إما نحاربهم لنحيا سويًّا أو نستسلم ونفترق .

- أعوذ بالله من يومٍ لا أكون لكَ فيهِ زوجة لك يا زين.

- إذن اتَّخذي قراركِ .. والآن يا هبة الله .. الآن.

- لا يا زين، لا.. مستحيل ما تقوله، بالتأكيد هناك حلول أُخرى.

- هبة الله .. لم تعد لدي طاقة للنقاش والجدال، ثم إن الأمور لا تُدار هكذا، كوني أكثر تعقُّلًا وفكِّري في الأمر بمنطقيةٍ .. و..



قاطعته ..

- أيُّ منطقيةٍ هذه التي تجعل فتاةً تتسبب في إيذاء أهلها، وأيُّ منطقيةٍ تجعلنا نأخذ سعادتنا بالقوة؟! وهل ترتضيها لأختك مومو ؟!

- منطقية محاربة المجتمع المريض الذي لا يعرف الشفقة مطلقاً.. ثم إنَّ مومو لن تلجأ لمثل ذلك لأننا كعائلة أكثر وعيًا من أن نسلبها أبسط حقوقها بالوقوف ضد رغبتها في الارتباط بشخصٍ تختاره ونتورط في ذلك.

- أتُبرِّر يا زين ؟!

- لا أُبرِّر شيئًا..

- لكن فلتعلمي أن لكل أجل كتاب ولتعلمي شيئًا مهمًا للغاية ولا تنسينه أبدًا.

- ...

- عاجلًا أم آجلًا سوف يموت والدكِ وسوف تلحقُ بهِ والدتكِ أو العكس، ولتعلمي أنَّ شقيقتُكِ سوف تتزوج وتتركك وتصبح في منزل زوجها فتنام في أحضانه عند كل ليلة فتنشغل بهِ عنك، وسوف تُنسيها مشاغل الحياة الزوجية أن لها شقيقة أساسًا، أيضًا لو كان لكِ أخٌّ سيتزوج، وتصبح زوجته هي حياته وينشغل بها عنك ويفضلها عليك .. هذه هي الحياة الآن .. سيئة .. سيئة للغاية .. للغاية يا هبة الله.

- ....

- لم تعد صلة الأرحام مقدَّسة كما كانت، إنما أصبحت مجرد عبءٍ على الناس، فالناس قد تخلَّوا عن التزاماتهم الدينية والأخلاقية وأبقوا فقط على السَفَهِ والتفاهات.



- ربما أنتَ مُحق .. لكن : ((على المرء أن يهزم رغباته، فمن يهزم رغباته أكثر أعتبره شجاعًا أكثر؛ لأن النصر الحقيقي هو أن يهزم الإنسان نفسه))،هذا ما قاله ((أرسطو)).

- وأيضًا ((عند الغرق تستوي الأعماق))، هذا ما قاله ((محفوظ))، ونحن نغرق، نغرق وإن لم نقاوم ضاع كل شيء، ثم على المرء ألّا يكون الـمُضحّي دائمًا، عليه أن يتمرّد ولو لمرةٍ واحدةٍ ليستعيد فيها كل الأشياء التي سُلبت مِنهُ عندما كان مثاليًا.

- إن ما تقوله مخيف، وما تدعوني لفعله يُخيفني أكثر، و لا أستطيع الـمُضيَّ قُدُمًا فيه.

- إذًا .. وداعًا يا ((منة الله)) ..و ليشهد الله أني تمسّكت بحبالنا حتى جُرحت يداي فلا لوم ولا تثريب.

أنهى المكالمة.. أنهاها مباشرةً دون انتظار الحصول على ردٍّ آخر أو وداعٍ لائقٍ، لم أعرف وقتها هل أغضب منه عما فعله أم ألتمس له الأعذار؟، كل ما أعرفه أنّي بكيت، بكيت حتى أبتلت ملابسي من الدموع، ثم دخلت ((فطوم))، وبدا لي أنها استمعت ما حدث فضمتني إلى صدرها وهي تقول:

- يا ابنتي .. من تذهبي منه حزينة وتعودي له حزينة هو شخص لا يستحق منكِ حتى ذنب أو دموع، فكفي عن البكاء والعنية والعني قُربه وغبائك الذي جمعك به .

انتفضت خارجة من بين ذراعيها وأنا ألتفت إليها أشعر بشيء من المقت والحنق والكثير من العصبية التي لم أعتادها في نفسي، أردت الصراخ في وجهها بأنها تؤذيني، وبأن زوجها يؤذيني، وأن الحياة أمست ضيقة، ضيقةً للغاية ولا أستطيع التنفس.

❋ ❋ ❋



(10)

كشجيرَة منسيّة على أطرافِ جبَل، وافتقارِ منزلِ الرّيفِ إلى حطبْ، كلذّة الحبَقْ أواسطَ الشتاءِ، كفزّاعة حقل تتوسط الصحراء تفتقد ونس الطيور، إنّي أفتقدني، أشعر بالأيام متوقفة رغم مُضيها، أتصنع القوة وألا شيء يفرق معي، وأنا في حقيقة الأمر كصبار حزين لا يبكي، لأنه يُدرك أنه لو بكى مائة عام لن يَحتضنه أحد، أبقى منزَّوية مع نفسي، في الشارع، الجامعة وحتى في غرفتي، أكتفي باحتضان ((منكوشة)) والبكاء، حتى القراءة والكتابة توقفت عنها .. رغم أن الانقطاع عن القراءة الكتابة ذلك يشبه إلى حد كبير أن تفقد أحد حواسك، أن تشعر حينها كما لو أن أحدهم يُرغمك على أن تلقي بنفسك داخل ماء عميق وأنت لا تجيد العوم، فقط تختنق أكثر، تغصُ بالكثير من صراخ النجدة ولكن الغلبة للغرق.

كلما اشتد عليَّ الحنين وأشفقت على نفسي، واسيتها بقول ((سارتر)): ((بعد عمر من المُعاناة لم أعد أصرّ على شيء، فقد بتّ هادئاً))، ثم أوميء برأسي بعلامة التأكيد والاقتناع، بعدها أردد قول ((بافيزي)) : ((إن الشيء الوحيد الذي ينمو مع السنين هو قدرتك على الانفصال لا على المقاومة))، وأوميء برأسي مؤكدةً حقيقة الكلام مرة أخري ..ثم أختم تفكيري دائمًا بقول العم ((نجيب محفوظ)) : ((إن الصّمت هو المحَاولة الأخيْرة لإخبارِهم بكلّ شيء لم يفهمُوه حِينما كنّا نتكلم))،

فأصمت وأبكي .. أبكي و أبكي والتزم الصمت مكتفيةً بدور المشاهد لما يحدث لي.

***

كان السيد ((جمال الدين)) مايزال ملتزمًا بعمله اليومي وكأن شيئًا لم يكن، والسيدة ((فطوم)) ملتزمة بالروتين اليومي لحياة ربة المنزل،أمَّا عن ((جميلة)) فكانت ماتزال ترافق ((رشيد)) و((شاهندة)) كل يوم في الجامعة حتى لو لم تكن لديهما محاضرات، بينما ((نزار)) قد انقطع عن دراسته والتحق بالعمل في ملهى ليلي يملكه أحد أصدقائه، تفرغ فقط للعمل والعلاقات والكثير من المخدرات في حين أنَّ ((زين)) اختفى تمامًا، لا يذهب إلى الجامعة ولا يظهر في الشارع، هاتفه مغلق طوال الوقت، وبالاتصال على مومو عرفت بأنه قد جعل من نفسه سجينًا في غرفته، يرفض الخروج، يكتفي بمرافقة الكتب والقهوة وشيء من الموسيقى، مؤلمة لحظات الوحدة التي تضعنا فيها العائلة، كان عليهم تفهُّم أن العلاقات العائلية تنجح إذا ما التزم كل منا بمشاركة الأخرين رأيه وأعطاه مساحته الشخصية التي تسمح له بحرية الاختيار، تنجح إذا ما ساعدونا في تيسير الحياة، وتفشل إذا نصَّبوا أنفسهم قُضاة يتحكمون فينا وفي مستقبلنا وصنعوا لنا القيود والمصاعب.

***

أوشكت اختبارات نهاية العام أن تقام، ومازالت و ((زين)) منقطعين عن الجامعة، كنت قلقة عليه، أخشى أن يؤثر غيابه على مسار دراسته، أمَّا عني فلم يكن يفرق الأمر معي كثيرًا فأنا على كل حال أدرس ما لا أُحبهُ، وكنت أخاف أكثر من أن يتزوج امرأة غيري، فلا تشعر به أو تجيد قراءة عينيه، لا تلمس وجعهُ من حزنهِ و تعبه من صمتهِ، لا تفهمه مثلي،



لا تحبه جيدًا، لا تحتويه جيدًا و لا تهتم به، كنت أخاف عليه جدًا من امرأة لا تخاف الله في قلبه ولا تعرف كيف يؤكل حزنه، أخاف عليه من امرأة يقول لها أنا حزين، فلا تقول له، لا تحزن إن الله وأنا و قلبي معك.

❋❋❋

كان قد عاد من العمل لتوه، ولم يمنعهُ إرهاق يومه من الدخول مباشرةً إلى غرفتي ليسألني عن موعد الاختبارات، وإلى متى سوف يدوم انقطاعي عن الدراسة، وقفت أمامه صامتة لثوانٍ قليلة، وقبل أن أنبث بكلمة مد يده اختطف الهاتف من بين يديا بقسوة، شرع في تصفح سجل المكالمات ليجد بين المكالمات الصادرة لقب «عزيز صدري».

بلا تردد قام بضرب الهاتف في الحائط بقوة وهو يقول :

- إذا لم ينتهِ العام الدراسي بنجاحك فسوف تتزوجين من ((نزار)) .

خرج وأغلق الباب من خلفه بعنفٍ شديدٍ، وقبل أن أستوعب ما حدث انفتح الباب مرة أُخرى، هذه المرة دخلت ((جميلة)) ترافقها ((شاهندة))، كانت الدموع قد بدأت تترقرق من عيني بينما وقفت ثابتةً كالجماد لا يتحرك مني شيء سوى الدموع، فاحتضنتني ((جميلة))وسألت:

- ماذا حدث؟!.

في حين أن ((شاهندة)) جلست على الأرض تحاول جمع أجزاء الهاتف المتناثرة عليها.

❋❋❋

جلستا تواسياني، دون أن أكترث لما تقولانه، كنت أرغب من ((شاهندة)) أن تتكلم عن ((زين))، فقط لو تطمئنني، ولم يكن هناك ما يطمئن، فقد قالت :



- يـأكل قليـلًا ، مستمر في صمتـه لا يتحـدث إلى أحـد، صديقـة والدتـه المقربـة قـد أومـأت إليهـا بأنـه قـد يكـون محسـودًا أو أن سـحرًا مـا قـد أصابـه وعليهـما التقـصي حـول الأمـر حتـى لا يُصيبـه مكـروه وتتأخـر حالتـه، و أن والدتـه قـد صدقـت الأمـر وأعطتهـا شـيئًا مـن أثـره دون علمـه في محاولـةً منهـا لحـل مشكلة الصمـت والحـزن الـذي يعيـش فيهـما .

استغربت الأمـر كثيرًا، كنـت أعلـم بأنـه لا يؤمـن بفكـرة الحسـد والسـحر بـل يعتبرهـم مـن الخذعبـلات والتفاهـات رغـم أنهـم قـد ذكـروا في كتـاب الله، لكنـه كان يقـول دائـمًا لا تُحسـد روح طاهـرة ولا يـؤذي سـحر قلـب عامـر بـروح الله، لكـن شـاهندة عـادت لتؤكـد أن الأمـر قـد تـم بـدون معرفتـه.

***

ما نخشاه يكون قاعدة تكاد تكون حقيقية من كثرة حدوثها..

انتهـى العـام الـدراسي وجـاءت النتيجـة سـلبية، فشـلت في معظـم المـواد الدراسـية، بينـما اسـتطاعت جميلةوشـاهندة الصعـود للمرحلـة التاليـة ومعهـم بعـض مـن المـواد تضـاف للسـنة الجديـدة، أمّـا ((زيـن)) فـلا أعلـم عنـه شـيئًا رغـم محـاولاتي المسـتمرة للوصـول إليـه، كنـت عـلى غـير العـادة قلقـة للغايـة أشـعر أن هنـاك شـيئًا مـا سيء يحـدث، لم يكـن قلبـي مطمئـن، لا أنكـر كنـت أخشـى تهديـدات والـدي بتزويجـي مِـن ابـن العـم ((نـزار))، كنـت أريـدُ كلمـة اطمئنـانٍ واحـدةٍ تقـف في وجـه الخـوف الـذي يـأكل قلبـي، وأمـام هـذا الكـم الهائـل مـن القلـق والخـوف المسـيطران عـلى قلبـي ذهبـت للصـلاة، ودعـوت الله .. اللهـم أشـكو إليـك الأرق ووحشـة الصمـت والقلـب الـمُثقل والحـزن والكمـد و زحـام الوحـدة، اللّهـم صيّر كل ذلـك بـردًا عـلى قلبـي اللّهـم يـاربّي أنـت وحـدك رجـائي.

***





(١١)

انقضى ما يقرب من منتصف إجَازَةُ الصَّيْفِ الدراسية، ومازال غيابه يجعلني مهمومة، فؤاديّ ينزفُ مِثل النَبع، كانت الساعة تدق السابعة مساءً عندما سمعت باب الشقة ينفتح .. عادت ((جميلة)) من الخارج، توجهت مباشرة نحو ((فطوم))، التي كانت في المطبخ تعد وجبة العشاء.

خرجتُ من الغرفة متوجهة نحوهما بغية مساعدتهما فيما سوف تفعلانه، ما إن اقتربت سمعتُها تُخبر((فطوم)) بشيء ما وقد جعلت صوتها خافتًا أَشَدَّ الْخُفُوت، عند سماعها تهمس انقبض قلبي بشدة، شعرت بأن خبرًا مُفجعًا سوف يُقال، كنت موقنة أن ثمة تعاسة بالغة الأذى في أن تُدرك الأمور العنيفة فور حدوثها وقد تعمدت مرات كثيرة ألَّا أسمع الأخبار المؤلمة وقت حدوثها هربًا مِن التعرُّض للأذى، لكن هذه المرة لا مفر ولا مهرب فبدون قصد مِنِّي تسمرت أقدامي على مقربة من باب المطبخ بينما صرحت ((جميلة)) بما لديها دون أن تعلم بوجودي قرب الباب أسمعها.. قالت :

- الأصوات بالخارج ..

صوت الاحتفالات الصاخبة في الشارع المجاور ..

إنه زفاف زين..زين يتزوج اليوم.



تلقت ((فطوم)) الخبر بشيءٍ من الحزن والأسف، وبدأتا في تبادل أطراف الحديث بصوتٍ منخفض وحرص خشية أن أسمعهما، بينما وقفت في الخارج ابتسمت، نعم ابتسمت شفتاي وعيناي بينما يحترق قلبي فكما أنَّ أعلى مرحلة في الحب هي الكُره أيضًا أعلى مرحلة في الصدمة والوجع ليست البُكاء إنما الابتسامة، ابتسامة الرفض لتصديق ما يحدث وما يقال.

تصنعت القوة، اتكأت على الحائط بكلتا يديا وتسللت عائدة مرة أُخرى إلى غرفتي، جلست عند حافة الفراش ثم رفعت سماعة الهاتف المنزلي واتصلت على شاهندة التي كانت ما تزال في غرفتها تتجهز للنزول إلى حفل الزفاف، ولأنها بالقرب من الهاتف أجابت من الاتصال الاول، سألتها بصوتٍ هاديءٍ تمامًا بدا فيه بعض من التردد :

- أين زين؟!

- .. ..

لم تعطِ أي رد، انتظرت ردها للحظات، من شدة الصمت تخيلتها وضعت السماعة لكن صوت أنفاسها كان مايزال مسموعًا لدي، فكررت السؤال مجددًا لكن في جدية أكثر :

- شاهندة .. أين زين؟!

- .. ..

مرة أخرى كان جوابها الصمت، فتسلل إلى قلبي شيء من الوَجَع، شعرت بصوتي يقاومني يرفض الخروج، نَشَبَتْ في صدري محرقة، وكأن طيرًا أبابيل قد قذف قلبي بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ، فاختنق صوتي ووضح فيهِ صوت البُكاء وأنا أسألُها للمرة الاخيرة.



- شاهندة ..

أين زين؟!

هاااا ؟!

أين .. أين زين؟!

ازدادت ضربات قلبي بشدة، كاد يتوقف، توقفت أنفاسي عن الخروج والدخول، بدأت أختنق، فوضعت سماعة الهاتف على الفراش ثم نهضت أمشي بضع خطوات باتجاه النافذة المطلة على الشارع كان المطر ينزل قليلًا، نظرت أتأمل القطرات التي تخبط النافذة المظلمة وسقطت دمعة دافئة من عيني، قلت لنفسي لا يهم إنها دمعة واحدة لا غير، أنا حتى لا أشعر أنها دمعتي.

عند النافذة وقفت واضعة كلتا يديَّ على قلبي الذي شعرت به سوف ينفجر، نظرت للخارج ولم أرَ شيئًا سوى الظلام الحالك، سواد شديد، لا توجد أصوات، تساءلت في دهشة إن كنت أُصبت بالعمى والصمم أو أن ((شارع العريش)) قد مات، فقد اختفت إضاءته تمامًا، وأيضًا الناس اختفوا وكأنهم هجروه، وكل هذا لم يفرق معي، فقد كان كل ما أهتم له هذه اللحظات هو أن ثمة ألمٍ شديدٍ أكبر من أن تصفه حروفٍ أو كلماتٍ قد نشب في جسدي بأكمله، أبتسمت من شدة الألم وكم هو مؤلم أن تبتسم وفي صدرك ألف ندبة، أن يخونك الكبرياء فيسرب نتوءات صوتك، أن يصبح لك قلب مُعتَل، وذاكرة سوداء، أن تأخذ حياتك مجرى الرياح، وتصبح انفعالاتك مجهولة بالنسبة لمن تعيش معهم، وحزنك الذي ينقَضّ فجأة يحطم حواجزك، ولاشيء يردعه.

تتقاطر الدموع من عيني ألمًا .. المسألة كانت أكبر من غيابه أكبر من حقيقة أننا اثنين تركا بعضهما في منتصف الحب، المسألة أني فقدت



معه ثبات روحي و رقة قلبي و الأنثى التي أحبهُ فينيّ .. المسألة هذا الخوف الذي صار يعرفني و يأكل قلبي، خوفي عليه، خوفي عليّ، خوفيّ من الناس و وحدتي و خوفي من قلبي قبل كل شيء .. المسألة أن ثقتي اهتزت، لا لقد دُمرت تمامًا حتى ما عدت أعرف شيئًا، أصل المسألة أن قلبي كسر في لحظة ثقة و حب مبالغ فيها .. المسألة أني خسرت دون أن أدرك، خسرت في لحظة لم أتوقعها، لحظةً لم أحسب حسابها، فهل تدركون مرارة أن تخسر إمرأة في الحب لأنها فقط تحب.

***

تراجعت خطوات مبتعدة عن النافذة، جلست على كرسي صغير أمام مرآتي وقد بدت لي المرآة كشاشة عرضٍ صغيرةٍ أرى فيها ما كان بيننا مِن ذكريات.

قبل سنتين قرأت فتاة عن مقالة تتحدث عن رواية غرناطة .. ذهبت تبحثُ عنها.. وجدتها عند شاب يدعى ((زين)) كان قد استعارها لأربعة مرات متتالية من المكتبة.. بدأت تبحثُ عن روايات أخرى تروق لها.. وجدت نفس الشخص قد اقتناها جميعًا .. دفعها الفضول للبحث عنهُ لكن دون جدوى .. بعد فترة شاء القدر أن يوقعها في طريقه .. عند رؤيتهِ بدا لها وكأنهُ توأمها وتوأم جدتها ..تقاربا.. وألف الله بين قلبيهما، كلاها وجد نفسه في الأخر، ملامحه، حكاياته، هواياته.. لقبها بهبة الله، ولُقبت من قبل الناس بفتاته .. اتفقا سويًّا على بناء أحلامٍ وأمالٍ ليس لها أخر .. عاشا سويًا كالغيم والظل والماء والشجر .. تبادلا الكتب، فندا اقتباساتها، وجدا تشابهًا كبيرا بين أذواقهما في الموسيقى والافلام، واتفقا على أن يبقيا سويًا حد الفناء .. ثم!! .. ثم جاء طوفان من حيث لا يحتسبا وأزاح كل شيء وفرق بينهما.

كانت ((إيزابيل الليندي)) تقول في كتاباتها : ((إننا نموت عندما ينسانا الآخرون))، بينما الجدة ((حسيبة)) رددت مرارًا : ((إن مفارقة من أحببناهم موت صغير))، وكنت في هذه اللحظة تحديدًا أشعر بالموت فقد بدأ ضيق التنفّس ينهك قواي وهدوئي المصطنع نفد.

دققت النظر في المرآة أتأملني .. تلك العيون المُميزة بزرقة البحر والتي تشبه عينيه، وتلك البشرة البيضاء مع الشعر المائل للحمرة، هذا الصدر الناهض والجسد المتأجج بالأنوثة رغم صغر السن، كل هذا سوف يكون لرجل آخر، وهو الآن، هو الأن أصبح لامرأة أُخرى بعد أن تزوجها.

ضحكت بصوتٍ متقطعٍ مُختنق بالدموع قبل أن أصرخ صرخاتٍ متتاليةٍ فزع لها سكان العمارة بالكامل وبعضًا مِن المارة في الشارع، وباستخدام أظافري قمت بتشويه ملامح وجهي، ثم مزقت الملابس من فوق صدري وقمت بأحداث خدوشٍ عدة في النهدين كما فعلت في وجهي.

عندها اقتحمت جميلة مِن خلفها فطوم، والسيد جمال الدين الغرفة، كنت أشُدَّ في شعري لدرجة أنَّ بضع خصلات قد انتُزعت مِنهُ انتزاعًا وأصبحت في كلتا يدي، فظهرت لهم في حالةٍ سيئةٍ كمن سقطت فريسة لدب قطبي شوَّه وجهها وهتك نهديها وجعل من فروة رأسها منبعًا للدماء، وبينما فزعهم المشهد ووقفوا متسمرين في أماكنهم للحظات غير مصدقين لما تراه أعينهم، ابتسمت إليهم كالمجنونة، كنت أتنفس بصعوبةٍ شديدةٍ والدموع تترقرق بغزارة على وجهي فتختلط بالدماء وتكويني، ثم وبعد ثوانٍ قليلةٍ عدت للصراخ مجددًا وإعادة ما كنت أفعله قبل أن أسقط على الأرض مغشية عليَّ.

***

- ((مُصابة بانهيار عصبي)).

هذا ما قاله الطبيب قبل أن يضيف :

- من الممكن أن يترتب عليه ذبحةٍ صدريةٍ أو هبوطٍ حادٍ في الدورة الدموية يؤديان الى الموت، خاصة إذا استمرَّ هذا الصراخ الهستيري، لذا سوف أحقنها بجرعةٍ مهدئةٍ مُضاعفةٍ تجعلها تنام لبعض الوقت.

كانت ((جميلة وفطوم)) تبكيان بحرقة، بينما اكتفى السيد ((جمال الدين)) بالمشاهدة والجلوس صامتًا، أظنه في وقتها قد أدرك أخيرًا فداحة ما فَعَلَّهُ.

***

وقفت أمام منزله تنتظر انتهاء طقوس الزفاف في قاعة الأفراح الموجودة عند أول الشارع والعودة مع زوجته. بَحَثَتْ بين الجميع بعناية شديدة عن ((مومو))، كانت تعلم مُسبقًا بأنها الوحيدة التي ستتفهم الأمر وتؤازرها فيه، عند لقائها قصت عليها ما حدث، وأخبرتها أنها تريد مقابلته فسهلت لها مومو الأمر.

أخْبرتْهُ بما حدث، ذكرت لي ((فطوم)) فيما بعد أنه بداها مُندهشًا وكأنه لا يتوقع حدوث كل ذلك أو أنه في الأساس لا يفهم ما يحدث، لكنه في نهاية الأمر وافق على ما طَلَبَتهُ، ورافقها إلى منزلنا.

دخل مِن باب الغرفة وكنت ممدَّدَةً على الفراش، صامتةٍ كمقبرةٍ مسكونةٍ يخشى الناس زيارتها، لا أُحرك ساكنًا عن موضعه، تترقرق دموعي ببطءٍ على الخدين، إلى جانب بعضًا من بقايا الدماء تصبُغ وجهي وملابسي.

أفسَحَتْ له ((فطوم)) مكانًا بالقرب مني، وأجلسته فيهِ، نظرتُ إليهِ

وكانت عيناه مليئة بشيء من الشفقة وكثير من الاستغراب، فلم يكن هو ((زين)) الذي عهدتهُ.. كان شخصًا آخر ..

لم يكن لديَّ شيء أقولهُ سوى جملةً واحدةً :

- لماذا تخلَّيت عني؟!.

ويبقى السؤال الذي لا أجابة له دائمًا وأبدًا هو :

- كل ده كان ليه؟!

وبالطبع لم تكُن لديه إجابات، نظرتُ إليهِ بمزيج من الحسرة والحزن وكثيرٍ مِن الخُذْلان، قبل أن أعود للصراخ مُجددًا وأفعلُ بهِ ما فَعَلته في نفسي، بينما أسرعت ((فطوم وجميلة)) بمحاولة منعي عما أفعله وتهدأتي مرة أُخرى، لكنهُما لم تُفلحا في ذلك فقد كنت بالفعل قد عرضت وجهه وعنقه وصدرهِ لإصاباتٍ بالغةٍ، سالت على إثرها دماؤهُ، والغريب في الأمر أنَّهُ لم يحرك ساكنًا، لم يدافع عن نفسه، كان فقط ينظر إليَّ بنظراتٍ بدا فيها شيء مِن الاستغراب والدهشة، وكأنه تائه أو أصابه خَللٌ لا أفهمهُ.





(12)

كانت ثلاثة شهورٍ كاملةٍ قد انقضتْ عندما جلست مع نفسي للمرة الأولى أُعاتبها وأُصارحها، أقيِّم حالتي التي وصلت إليها، وقتها كنت قد تعافيت من جروح الجسد أمَّا عن جروح الروح فمازالت مُلتهبة، كانت علاقتي مع الصداع ماتزال أقوى من علاقتي بالناس، لا أغادر غرفتي إلا للضرورة القصوى، مُنعزلةً عن العالم، مُصابةً بحالةٍ مِن الاكتئاب السريري، أحلم بالهدوء فقط، أريد ولمرة واحدة أن أذهب للسرير وأنام دون أن أسمع في رأسي آلاف الأصوات المتداخلة في آنٍ واحدٍ، تمر الليالي طويلةً للغاية، ربما أنها كانت أشد ليالي حياتي عتمةً على الإطلاق، كل شيء فيها كان صامتًا، صمتًا مُرعبًا، كما لو أن العالم أغمض عينيه، وغرق في سُباتٍ يستمر إلى الأبد.

***

لم أكن أعرف أيَّ شيءٍ عن ((زين))، لا أقرأ ولا أكتُب، كنت فقط أنام وأبكي، أشعر بالاستسلام، ليست لدي رغبة في الحياة، نقص وزني كثيرًا، صدري الناهض كاد يختفي، خصري المستدير لم يعد موجودًا، بينما كانت ((جميلة)) ماتزال تخطط مع ((رشيد)) على ارتباطهما، فقد كانوا حتى لحظتها يقضون معظم أوقاتهم سويًا في الجامعة، وكان جسدها في ازدياد، ازداد حجم النهدين ونضج جسدها بشكل ملحوظ، وكأنها



امـرأةً في منتصـف الثلاثينـات، ورغـم ارتيـاب ((فطـوم)) في الأمـر إلَّا أنهـا كانـت ماتـزال وزوجهـا السـيد ((جمـال الديـن)) يرفضـا ارتباطهـما الرسـمي، كانـوا يرفضـون الأمـر لكنهـما لا يأخـذان خطـواتٍ تحسـمه فتنهيـهِ، بينـما ((شـاهندة)) قـد استسـلمت أمـام سـحر كلـمات ووعـود ((عبيـد الله))، فأصبحـت تُطيعـه دون تفكـير، وتمشي خلفـه كأنـه قـد سـحر لهـا، وكـم مِـن المؤسـف أن ننحي العقـل ونمشي خلـف عواطفنـا!!، فالعواطـف تُعمينـا عـن حقائـق الأمـور، وهـذا مـا حـدث لهـا فقـد سـقطت في بئـر المحرمـات برفقتـه إلى أن فقـدت عذريتهـا، وبـدا ذلـك واضحًـا في تضاريـس جسـدها فقـد زاد حجـم نهديهـا عـن آخرهـم، وكـذا ازداد حجـم أردافهـا وخِصرهـا، أصبحـت في هيئـة امـرأةٍ ناضجـةٍ تضـج بالأنوثـة هـي الأخـرى،ولـمَّـا شـعرت أن الأمـر قـد بـدا واضحًـا لأهلهـا وبـدأ النـاس يتلامـزون عنهـا قـررت مُطالبتـه بالتقـدم لخطبتهـا ووافقهـا.

المفاجـأة أن والدهـا رفـض الأمـر نهائيًـا، مـبررًا أنـهُ مـن مدينـةٍ مختلفـةٍ تبعـد عنهـم كثـيرًا، ولا يعرفـون عنـه شـيئًا، غـير أنـه أقـل مِنهـا في المسـتوى التعليمـي فهـو مجـرد بائـع لمسـتحضرات التجميـل حتـى وإن كان مالـكًا للمـكان، فهـو يرغـب في أن تتـزوج ابنتـه بالقـرب مِنـهُ ومـن شـابٍ يكـون مسـاويًا لهـا في مسـتواها التعليمـي والاجتماعـي، لم يكـن يعلـم أن أمـر زواجهـما قـد بـات حتميًـا ولا مجـال للرفـض.

***

أمـام عنـادٍ دام لعـدة شـهور ومقابـلات ((شـاهندة و عبيـدالله)) المتكـررة حملـت منـه، أصبـح هنـاك طفـلٌ ينمـو داخـل أحشـائها، ولمـا اسـتحال التخلـص منـه تزوجـا دون اللجـوء للأهـل.

مـن المؤسـف أنهـم يدفعوننـا نحـو الخطـأ دون وعـي منهـم ظنًّـا منهـم أنهـم

يفعلون الصالح، دون أن يحترموا رغبتنا في أن نحيا حياةً حسب اختياراتنا الشخصية ووفق رؤيتنا لا رؤيتهم، فهم يعتقدون أننا ملائكة نطيع دون تفكير، يظنون أننا لا نضعف ولن نخالف أمرهم، في النهاية يُصدمون.

***

تلقت عائلتها الأمر في صدمةٍ عنيفةٍ، أُصيب والدها على إثرها بذَبْحةٍ صَدْرِيَّةٍ أدت لوفاته بعد ساعات قليلة من ذهابهم به إلى المستشفى، قيل إنه في اللحظات الأخيرة قبل وفاته قال: على الاباء الّا يمنعوا أبناءهم عن السير في الطرق الخاطئة بالقوة، لأنهم سيدخلون معهم في صدام مليء بالعناد، وقد لا تحمد عقباه، بل أن يرافقوهم بلطفٍ وود، محاولين إظهار الحقائق لهم دون الوقوع في فخ العداء والعناد.

رغم ما قاله والدها قبل موته، إلّا أنها أصبحت منبوذة من جانب عائلتها، حتى إنها حملت في قلبها وعقلها فكرة أنها قتلته، أمَّا ((عبيد الله)) فلم يكن شهمًا ويدرك فداحة ما تسبب فيه، فلو كان شهمًا لكان منذ البداية وحافظ على عرضها، حتى لو كانت ساذجة ووافقته بدافع الحب فعليه ألَّا يُجاريها ويحافظ عليها بدافع الشهامة، فإتاحةُ الأشياءِ لا يعطينا حق سلبها، لكنه لم يفعل وبمبدأ ((ما جاء سهلًا يذهب سهلًا))، تركها بعد أيامٍ قليلةٍ من الزواج، أهملها تمامًا، ولـمَّا لم يكن لها أية حقوقٍ تُذكر طلَّقها.

عادت مكسورة الخاطر محطمة الفؤاد إلى منزل أبيها الذي فقد حياتهُ جراء فعلتها، وبعد أيامٍ بدأ الناس يمارسون هوايتهم في نقل الكلام مع بعض الإضافات إليه، وقالوا ما لا يقال في حقها، حتى وصل الحديث عنها لزوج شقيقتها الكبرى وعائلتهُ، فنشبت بينهم خلافات حادة انتهت



بانفصال أُختها هي الأخرى بسببها، لتعود إلي بيت عائلتها بذنبٍ لم يكن لها فيه يد.

بعد أيام قليلة، وأمام كل ما حدث ووسط أجواءٍ غيَّم عليها الحزن والبؤس وُجِدَت شاهندة جثة هامدة، فقدت حياتها أثناء حادثٍ كهربائيٍ وقع لها في حمام منزلهم عندما كانت تقوم بتنظيف الملابس.

***

لم تعد الحياة تطاق، يبدو أن العم ((برنارد شو)) كان محقًا، يبدو أن الأذى سوف يطال المرء من الجميع، وكأننا ما خُلقنا إلَّا لنتأذى، لكن إلى متى؟! .. لا أعرف.

كانت الحياة وسط هذا الكم مِن الصراعات والمشاكل تبدو متوقفة، فمن الصعب على المرء أن يحيا بلا ونيسٍ للروح ونحن لا نجيد صناعة الوَنس مع أبنائنا وإخوتنا وحتى أصدقائنا، نحن نتميز فقط في صناعة العداوات والمشاكل بكثرة.

وسط كل تلك المصائب لم أنسَ ((زين))، كان دائمًا الغائب الحاضر في قلبي وكنت أتساءل في نفسي: ((نحنُ الذين لطالما جرينا لبعضنا في السرّاء والضرّاء، من أينَ تعلّمنا القطيعة))، كم وددت لو أصبح مثله، أتحمل الغياب والبعاد وانقطاع الأخبار، لكني دائمًا ما فشلت، ثم علمت بوفاة والده وكان سببًا أن أتواصل معه لتعزيته لكني فشلت، فلجأت للإتصال بشقيقته، قمت بتعزيتها واطمأنيت عليها وعليهِ، ثم اعتدت من حينٍ لأخرٍ أن أتحدثُ إليها هاتفيًا أسألها عن أحواله، وكانت تخبرني في كل مرة بأنه لم يعد ((زين))الذي نعرفه، أصبح شخصًا آخرًا، يصمت كثيرًا ولا يبالي للحياة، باردًا، منطفيء الملامح، وكنت أتألم لما أسمعه عنه، كنت



أعزي نفسي دائمًا بأن يومًا ما سوف يرزقه الله طفلة يسميها هبة الله، سوف يتذكر أن هناك فتاةً صنع يومًا ما معها قصة حب، تشاركا القراءة والموسيقى وتبادلا الاقتباسات ووجهات النظر، كانت له شريكة في كثيرٍ من أمور حياته.

مرَّت الأيام ورُزق بفتاة، سمعت أنها آيةٌ في الجمال،يشبهونها بالملائكة، وقد اختارت زوجته لها الاسم حسب ذوقها الخاص، آلمني أنه لم يتذكر هبة الله، وكان وَقْعُ هذا الأمر أشد قسوةً وأذى في نفسي مما كان قبل ذلك، فلا شيءٍ أشد قسوةً على فتاة من اعتقادها أن لها مكانًا ولو صغير بقلب إنسان تحبه ثم تدرك أنها لا تعني له شيئًا، لا شيء مطلقًا.

لم أستطع تحمل الأمر، ازداد كرهي لكل شيء، كل شيء في عيني مَسَّهُ الحزن، حتّي بدت لي الشوارع كأنها حزينة، سوداوية للغاية، يُمكِنُني الشعور بها وهي تشتكي حاجتها للأمان، الأمر مُرهِقٌ للغاية، والليلُ قد طال، ولم يعد هذا المكان إلَّا مقبرة دُفنت فيها، هجرت الطعام أكثر، واكتفيت بالنوم.

***

جاءت ((أُم بربارة)) لزيارتي، كانت تزورني بكثرةٍ مؤخرًا، إنها الوحيدة التي أستطيع أن أشعر معها بالأمان، مؤلم للغاية أن يصبح أقرب الناس إليك محطةَ خوفٍ، والغرباء هم ميناء الأمان.

كنت في أسوء حالاتي وتحدثتْ إليَّ كثيرًا في محاولةٍ منها أن تخرجني مما أنا فيه، وفي محاولة منِّي لتبادل أطراف الحديث معها سألتها عن ابنتها ((بربارة)) :

- الجميع ينادونكِ ((أُم بربارة))، رغم أننا لم نرها أبدًا، فأين هي؟!.



- بربارة!!.. بربارة ماتت ..

ماتت قبل سنوات بطعنةٍ في الصدر.

- طعنة في الصدر؟ طعنة سكين!!

- لا يا ابنتي.. طعنة خذلان.

قالت إنها كانت ابنتها الوحيدة، وفي بداية مرحلة الجامعة تعرفت على شابٍ يعيش في مستوى مادي واجتماعي أعلى منهم بكثير، تبادلا الحب لثلاث سنوات رسمت فيهم بربارة أحلامًا ووضعت عليهِ آمالًا كثيرة، وفي النهاية بعد أن أصبحت مريضةً بحبه، فاجأها بزواجه من غيرها دون أية مقدماتٍ، لم تتحمل الصدمة، حاولت الانتحار وفشلت، بعدها عاندت الموت وتحملت القهر والألم النفسي عدة شهور، لكنها في النهاية استسلمت لضعفها وانتحرت مُجددًا، وهذه المرة لم تنجُ من الموت.

- إن فراق من نحبهم يا ابنتي يُطفيءُ أرواحنا، وإن انطفأت أرواحنا واستسلمنا عشنا كالأموات، زاهدين في كل شيء، وقتها يأتي الموت، لذا عليكِ بالخروج مما أنت فيهِ، لا تستسلمي، وافهمي أن أفضل عقابٍ لمن خذلوكِ هو أن تنجحين بدونهم فتصبحين أقوى.

***

لم أشهد أيام كهذه أبدًا، وجه يعلوه الذبول، هوان تام في كامل جسدي كمن يتوكأ على عصا قد أكلتها الأرضة، ليس بوسعي النوم، وليس بوسعي الاستيقاظ، يلازمني الأرق دومًا، أذكر نفسي دائمًا بتخليه عني، وزواجه من غيري، رُزق بفتاةٍ ولم يعطها اسمي، أهملني، لم يسأل عني ليطمئن، لم يطمئنني عنه حتى بعد أن ارتضيت كونه تزوج من غيري، لم تعد بيننا رسائل، لم تعد بيننا مكالمات، سماعة هاتفي تجُوعهُ والكثير



مـن الكلـمات تتزاحـم في حنجـرتي خشـية أن تصـاب بالكبـت، وجـدران غرفتـي تشـعر بالضجـر لأنهـا لم تسـترق السـمع لنـا منـذ مـدة، حرمنـي مما كان لي لأوقـاتٍ طويلـةٍ، وليـس هنـاك أشـدُّ إيـذاءً مـن الذيـن يتوقفـون فجـأةً عـن منحـك مـا وعـدوك بـهِ أو عـودوك عليـه، ومـن الذيـن يصبحـون بـلا مـبررٍ أشـخاصًا لم تعرفهـم مـن قبـل، مـؤلم أن الكتـف التـي طالمـا تمنيـت أن تضـع عليهـا رأسـك ليطمئـن قلبـك، هـي ذاتهـا الكتـف التـي كـسرت عنقـك وقلبـك، مـؤلم أن تشـعر بعـد كل ذلـك الحـب بثقلـك عـلى شـخصٍ يعـادل الدنيـا بأكملهـا في عـين قلبـك،إنَّـهُ لمـن المبكـي جـداً أن تصبـح طريقـة سـيرك إلى أحدهـم مـترددة بعـد أن كنـت تذهـب إليـه كأنـك تذهـب إلى نفسـك.

عـمَّ الظـلام، انطفئـت الأباريـق، لم تعـد في الشـوارع مصابيـح، والقمـر طـور المحـاق، والنجـوم حجبتهـا دمـوع العـين التـي لا تجـف، وبلـغ اكتئـابي ذروتـه، فقلَّـت رغبتـي في الحيـاة، فاصطحبتنـي ((فطـوم)) لأحـد الأطبـاء النفسـيين، والـذي أوصى لي ببعـض الأدويـة كمُهدئـات، كـما أوصى أن أهتـم بتناولهـم في المواعيـد المُحـددة، محـذرًا مِـن أن حالتـي مُتأخـرة جـدًا، حرصـتْ ((فطـوم)) عـلى التأكـد مـن حصـولي عـلى الـدواء في الوقـت المناسـب.

***

تكـررت زيـاراتي للطبيـب النفـسي مـرات متتاليـة، وتكـرر الـدواء في كل مـرة، ولا نتائـج إيجابيـة، حتـى أننـي أدمنـت المهدئـات رغـم أنـه كان قـد بـدأ يمنعنـي عنهـا ويحـذر مـن إسـتخدامها، فقـد أصبحـت نتائجهـا سـلبية، هـذا مـا يفعلـه الحـب بنـا، في مجتمـع لا يؤمـن بالحـب، يجعلنـا مـرضى نفسـيين.

اليـوم كانـت اخـر جلسـة لـدى الطبيـب النفـسي الـذي سـاعدني أن أفـترض بأنـه كان وهـمًا، في آخـر لقائنـا اليـوم ودعنـي عـلى البـاب و سـألني :

- ماذا ستفعلين الآن ؟



فأجبته :

- لا أعرف، أيها الطبيب، لا أعرف ..

لكن عليّ أن أذهب إليهِ و أخبرهُ أنهُ وهم، فأنا مُعتادة أن أخبره بكل شيء.

خرجت من العيادة أتمتم في نفسي أردد قول ((ميشيل دي مونتين)): ((لا شيء يرسخ الأشياء في الذاكرة كالرغبة في نسيانها))، ثم أبتسم كالمجنونة وأنا أقول :

- الطبيب النفسي لا يعرف أن السيد ((ميشيل)) مُحق تمامًا، فنحن نتذكر جيدًا ما نود نسيانه.

مشيت وحدي في الشوارع تترقرق الدموع من عيني وشريط الذكريات يُعاد في رأسي، أتذكر كل شيء جيدًا بِدءً من اللحظة الأولى عند مغادرة ((شفشاون)) ومرورًا بمطار ((بوخالف الدولي)) وانتهاءً برفض الطبيب صرف المهدئات، ونصحه لي بضرورة نسيانه، شعرت أنني ضعيفة، لا حول لي ولا قوة، أريد نسيانه وما نيل النسيان بالتمني، ثم فقدت الوعي في منتصف الشارع.

***

في المنزل ..اشتد الخلاف بين ((فطوم)) وزوجها، لم تعُد تَحتَمِل رؤية ابنتها تذبُل أمام عينيها أكثر من ذلك، فهي لا تأكل ولا تشرب إلّا تحت ضغطٍ منها، لا تتكلم، ولا تخرج، مستسلمة لاكتئابها، كانت تُحمِّلهُ نتيجة ما وصلت ابنتهُا إليهِ.

كنت أستمع لشجارهما طيلة الوقت، وفي كل مرة أكتفي بالبكاء في صمت، لكن هذه المرة وأمام هذا الكم الهائل من الألم، كان لابُد من التدخل وفض الشجار، وكان لابد لي الانسحاب مما أنا فيهِ لِقلة حيلة



القلب واستنفاد جميع الخيارات، ووضُوح الخسارة المبيّنة نهاية المطاف، ولأن الله لا يُحمِّل نفسًا إلا وسعها.

فتحت باب الغرفة وخرجت اليهم، صمتا تمامًا، توقفا عن قول أي شيءٍ ووقفا ينظران إليَّ وكأنهما يعرفان أن هناك شيئًا ما سوف أقوله.

تبادل ثلاثتنا النظر لبعضنا البعض للحظات، بدت لي في عيونهم نظرات الأسف لكن لا فائدة من أسفٍ يأتي متأخرًا، إنه لا يُصلِح شيئًا، تصنعت القوة، ثم أخبرتهما أن كل ما كان هو أمر الله ولا داعي للاعتراض عليهِ، وإنني في هذه اللحظة تحديدًا قد تقبلت الأمر، لكن لي رجاءً واحدًا، إن الأماكن هنا، جميعها ((الغرف، الشوارع، والمحلات، وحتى الجامعة)) جميعُها تحمل رائحة ذكريات لا أقوى على تحملها، فحبًا بالله دعونا نغادر هذا الحي و نذهب إلى حيٍّ آخر أستطيع فيه أن أتنفس هواءً لا يحمل ذكرياتٍ تؤلمني، ودون أن أنتظر منهم إجابة، التفتُّ بوجهي وتحركت عائدةً إلى غرفتي قبل أن تهزمني الدموع مجددًا.

***

ألحَّت ((فطوم)) على زوجها بشدة تطالبه بتنفيذ رغبتي، كانت هي الأخرى قد كرهت المكان وترغب في مغادرته، وأمام هذا الالحاح المُستمر، تفاجئنا بعد مُضي أيامٍ قليلةٍ بالسيد ((جمال الدين)) وقد حصل بالفعل على مكانٍ جديدٍ نستطيع أن ننتقل إليه خلال أيام معدودة، عندما علمت بالخبر لم أشعر بشيء، فلا أنا سعيدة بالانتقال بعيدًا عن المكان، ولا أنا حزينة لفراقه، في الحقيقة .. الأموات الأحياء لا يشعرون بأي شيء، لكن كان لي رجاءٌ أخير، وهو أن يسمحوا ليَّ بالتحدث إلى ((زين)) ورؤيته قبل مغادرة الحي.

***



اتصلتُ عليهِ.. تلقى المكالمة فأصابني الخرس لبعض الوقت، ضحكت بانكسار أمام عجزي عن الحصول على لقبٍ أناديه بهِ، كنت أناديه حبيبي، عزيز صدري، وألقاب أُخرى كلها تعبر عن الحب، أمَّا وقتها فلم أجد صفة أناديه بها بعدما كان، فبكيت، وهون علي الأمر أنه رد قائلًا :

- كيف حالكِ يا هبة الله.

- هبة الله !! جيدٌ أنك ماتزال متذكرًا أنني هبة الله.

- و إلى الأبد تظلين هبة الله.

- الأفعال أبلغ من الأقوال.

- والظروف أقوى من الاثنين.

ردَّدْتُ كلامهُ مُتهكمةً :

- الظروف !! آآآه ..

أنتَ محق.. دائمًا أنتَ مُحق.

تبقى الظروف دومًا حُجة من لا حجة له، عذر أقبح من ذنب، رغم ذلك تحملت حُجته الواهية، ثم أخبرته بأن لي رجاءً يتمثل في أن يأتي لتوديعي قبل أن نغادر الحي في صباح بعد غد، على الأقل أحظى بوداعٍ أخير.

***

سهرت الليل بأكمله أجمع أغراضي وأقوم بتجهيزها للرحيل، ثم أتى الصباح حزينًا سوداويًا في عيني مثل الأيام الأخيرة، انتظرت أن تأتي العاشرة فيحضر ((زين)) وأراه للمرة الأخيرة قبل مغادرة الحي، ولكنه لم يأتِ.



انتظرتـه و انتظرتـه وانتظرتـه، ولكـن دون جـدوى، لقـد تغـير كثـيرًا، لم يعـد كـما في البدايـة عندمـا كان يظهـر في كل مـكان مـن أجـلي، لم يـأتِ، ولـمَّا دقـت العـاشرة وأيقنـت تمامًـا بأنـه لـن يـأتي اتصلـت عـلى ((مومو))..طلبتهـا أن تأتينـي عـلى الفـور، أرغـب في رؤيتهـا قبـل مُغـادرة الحـي، ولأن النسـاء غالبًـا أكثـر تحمـلًا للمسـؤلية ووفـاءً بالوعـود وجدتهـا حـاضرةً بعـد دقائـق، كنـت قـد استغليت هـذه الدقائـق في كتابـة رسـالةٍ أخـيرةٍ إليـهِ، كتبـت فيهـا :

- بلا مقدمات .. عزيزي ((زين))..

إنـه لمـن المضحـك للمـرة الثانيـة أن أعجـز بـماذا أناديـك، فأنـا بـكل ضعـفٍ ويـأسٍ أكتـب لـك الآن دون أن أصفـك بـشيء، إننـي ضعيفـة جـدًا أمامـك وضعيفـة أمـام نسـيانك، لكـن خذلانـك المتكـرر جعلنـي في حالـةٍ بائسـةٍ تهـين كرامتـي، والمـرء يـا ((زيـن)) لا يسـتطيع أن يفقـد كرامتـه مِـن أجـل حـب يفعـل فيـه المسـتحيل مقابـل شـخصٍ لا يفعـل لـه الممكـن، وعليـك أن تعلـم أننـا لا نمـوت مـن الوحـدة، إنـما نمـوت مـن الذيـن أرخصونـا وكنـا نشـعر بأنهـم الحيـاة.

سـأرحل .. وأنـا أعلـم يقينًـا بأنـك سـوف تبـكي فقـدي يومًـا مـا، نعـم .. لـن تتخطـاني، كلانـا يعـي ذلـك جيـدًا، ورغـم أن الفراغـات بـين أصابعـك مُـلِأت بـأصابع امـرأةٍ أُخـرى إلا أنـك تحبنـي، وسـتظل تحبنـي بالكـم ذاتـه، والحجـم ذاتـه، أنـا لا أعـرف كيـف تبدلـت لمـا أنـتَ عليـهِ الآن، ضعيـف، مسـلوب الإرادة، تبـدو هشًـا تائهًـا، تبـدو لي شر بـلاء .. لسـت رجُـلًا، فأنـت لا يمكنـكَ أن تكـون رجـلًا عاديًـا مـا دمـت قـادرًا عـلى ثَقـب روح امـرأة، أنـت حتـمًا : شر بـلاء. لكننـي موقنـة أنـك يومًـا ستسـتعيد وعيـك مُجـددًا وتعـود، وسـوف أغفـر لـك، لـذا عـد إلى رشـدك وابحـث عنـي سـوف تجدنـي قريبـة



منك، وثق أيضًا أنني من وقتٍ لآخرٍ سوف أطمئن عليك، وسوف تجدني أحيطك بدعواتي من كل جانبٍ وفي كل صلاة.

***

كان شعري مضفرًا ضفيرةٍ واحدةٍ مُلقاةٍ خلف ظهري كذيل حصان، تصل حتى أسفل ظهري، رفعته ثم أسقطته للأمام على صدري، لطالما كان أكثر ما يحبه هو شعري المنسدل المائل للحمرة بطوله المثير، نظرت إليه أتفقده مُبتسمةً إبتسامةً باهتة، بائسة تعلوها عيونًا ملئتها الدموع، قمت بعدها بقص ضفيرة شعري بأكملها من عند فروة الرأس،وضعتها بعناية بجانب الرسالة في صندوق بعد أن كتبت على الظرف الذي يحوي الرسالة ((أعدك ألَّا أكون امرأةً لغيرك)).

انفتح باب الغرفة، دخلت ((جميلة)) تلحق بها ((مومو))، صُعقت ((جميلة)) لِما رأته، لكنني لم أعطها فرصةً للتعليق، طلبت منها أن تغادر الغرفة وتتركني برفقة ((مومو)) وحدنا لدقائق .. كانت مذهولة .. خرجت مباشرة دون أي تعليق، خضعتْ لرغبتي.

كانت عيوني حمراء بشدة ممتلئةً بالدموع، احتضنتني ((مومو)) وهي تُربت على كتفي للحظات، بعدها أمسكتُ بالصندوق ووضعته بين يديها وأنا أخبرها بأن تضعه بين يدي ((زين)) بنفس الطريقة، و تخبره أن يبحث عن نفسه، عن الشخص الذي كُنا نألفه، الذي كان ينشر الفرح والبهجة أينما حلَّ، والذي أصبح الآن شخصًا نجهله.

***

تحدثتْ إليهِ بعد أن سلمته الصندوق، ورغم أنها كانت أصغر منه سنًا إلا أن هذا لم يمنعها أن تكون حادةً وهي تحدثه عما كان، أخبرته بأنه ليس ذلك الشخص الذي عرفناه طوال العمر، وأنه أصبح ضعيفًا، صامتًا،



لا يفعل شيئًا لأحدٍ ولا حتى لنفسه، يخالف الجميع ويطيع زوجته، قالت له إنها تفتقده، ووالدته تفتقده، وأن هناك فتاةً أَحَبها لوقتٍ طويلٍ، اشتهرت بوجوده معها، أحبها وأحبته وبنوا سويًا آمالًا وأحلامًا عريضةً، كانا سويًا طيلة الوقت لا يفترقان، هذه الفتاة الآن تفتقده، ولا تتوقف دموعها بسببه، قد كُسر قلبها ورحلت عن الحي بأكمله، وحتى الوداع الذي رغبت فيهِ لم يكترث له ونام.

((زين)) عليه أن يبحث عن نفسه الآن.

❊❊❊



(13)

يقول العم ((برنارد شو)) : ((إن الطريقة الوحيدة لتجنب التعاسة تكمن في ألَّا يكون لديك وقت فراغٍ تسأل فيه نفسك فيما إذا كنت سعيدًا أم لا))، وتقول الجدة ((حسيبة)) : ((لا يمكن أن تشعر بلذة الحياة دون أن يكون لك أهداف واهتمامات تشغلك وتدفعك للركض خلفها في كل حين)). أي أن الفراغ أول أسباب التعاسة.

يبدو أن العم ((جورج)) والجدة ((حسيبة)) دائمًا ما كانوا على حق في أقوالهم، حتى أنا كان لدي يقين بأنه عند تخطى المرء لمرحلةٍ صعبةٍ من حياته يجب عليه إكمال ما تبقى منها كناجٍ وليس كضحية، فلا يجب علينا أن نستسلم للهزيمة أو نتقبل أوضاع فُرضت علينا دون إبداء أي مقاومة، لا يجب علينا أن نبقى كفَزَّاعَةُ الطُّيُورِ المصنوعة من القش، تختفي أسفل ملابس متهالكة، تقف في ثُباتٍ بلا حول لها ولا قوة تنتظر أن يخافها الجميع دون أن تبدي لهم شيئًا من القوة، فمع الوقت تألف الطيور ضعفها، وتعتاد على ثباتها فلا تأبه لها، إنما يجب علينا التمرد والتفهم أن الذي يريد تجاوز أحزانه عليه ألَّا يعتكف، أن يواجه لا أن يهرب، فإن الربيع وإن تأخّر، إلَّا أنه سيأتي، وأن الفلاح الكسول لن يجدي مع المطر نفعًا.

دفعني إيماني بتلك الكلمات للبحث عن شيء أنشغل بهِ، فبدأت



بالبحث عن عمل، خاصةً بعد أن رسبت في الدراسة ولم تعد لدي رغبةٌ مِن الأساس في إتمامها.

في بداية الأمر رفض السيد ((جمال الدين))، لكن أمام تأخر حالتي النفسية وتأثيرها السلبي على حالتي الصحية مع مُساندة تلقيتها من جانب الأم ((فطوم)).. وافق.

التحقت بالعمل بعد إسبوعين في أحد منافذ بيع الملابس الرياضية لتوكيل شركة عالمية بداخل أحد المولات التجارية الشهيرة في حي الهرم.

هذه الأثناء قمت بتبديل شريحة هاتفي بأخرى جديدة، في محاولة مني للهروب من أي تواصل قد يثير حنين قلبي، واحتفظت بالشريحة القديمة في حافظة نقودي لعلي أحتاجها يومًا، انشغلت بالعمل والقراءة طوال الأيام، وكنت كُلَّما تذكرته وحن القلب إليهِ أتذكر ما كان منه، فيشب في قلبي صراعٌ بين حبهِ وكبريائي، بين حبه وعزة نفسي، فأعود إلى وعيي وأمضي قدمًا في عملي.

تعرضت كثيرًا للمضايقات من الشباب، تعرضت كثيرًا لمن يبتغون التقرب، يبحثون عن فرصةٍ واحدةٍ لفتح مجالٍ للحديث معهم، كثيرٌ منهم من يرغب في علاقة عابرة، وقليلٌ يرغب في زيارةٍ عائليةٍ لمنزلنا بغية الارتباط الرسمي، كنت أرفض الأمر تمامًا، فقد كنت ما أزال على قيد حبه، فكما يقول السيد ((ميلان كونديرا)) : ((إن المرأة وحدها تستطيع أن تحتفظ في داخلها بأملٍ لا يبرّره شيء))، و أنا كُنت معمية بهِ ولدي أمل.

***

أصبحت أضحك كثيرًا، أحاول بجهدٍ كبيرٍ ألا يتفاقم اكتئابي، وألَّا يتحول إلى نوبةٍ حادةٍ، فاكتئابي الآن من النوع اللطيف، الساذج، الذي بإمكاني أن أضحك فيه، وأكون طبيعية بعض الشيء.

الضحك ليس فرحًا فالمرأة عمومًا عندما تتعرض لضغوط شديدة، تضحك، مهما كانت المشقات تجدها ضاحكة وكأن لا بؤس في أعماقها، حُزنها عميق، مَزاجها مُتقلب، عَنيدة تُحب أن تفعل كل شيء برغبتها، مُتفردةً ومُثيرةً للحياة، تفاصيلها مُهلكة، جنونية في الحُب والغِيرة، طفلة لكنها تَملُك عقل أنثى نَاضجة، تَتقلب في كل الأشياء إلا الهَوى فهي ثابتة ولا تخون، فالمرأة الناضجة تُبالي كثيرًا حتى وإن تَجاهلت، تبدو لك بسيطة للغاية وحَالمة، تُعطي رغم ما تَفقد، ابتسامتها رغم الحُزن فتنة، جميلة لأنها هي هي، بَارعةً في أن تُخفي وتُظهر عكس ما بداخلها، بَارعة أيضًا في أن تَجعلك تَراها ثَابتةً حتى وهي تَسقُط، بَارعةً في أن تَسند وهي الأشد حَاجة للسَند، ورغم ما تَفقد فإنها أكثر من يُعطي، لا تَشتكي رغم أن عينيها تَنطقُ شوقاً لأن تعيش، لا تُثقل على أحد وهي الأشد حَاجة للاحتواء والكلام، عتابها حُب و صمتها وَجع، إن تَحدثت كثيرًا فإنها مُطمئنة لكنها حساسة للغاية فتتوقع ردًّا وفي الغالب لا يأتي، قلبها ملئ بالخَيبات، ورغم ما انطفئ بها وفَقدت، ورغم وحدتها وتَعبها إلا أنها صَامدةً وتُقاوم، تجعلك تَنبهر كيف لها أن تَصمُد رغم ما تَمُر به، كبرياؤها قاتلٌ وجميل.

❋❋❋

عدت من العمل إلى المنزل، ألقيت بنفسي في الفراش، أستجدي النوم لكنه لا يأتي، كان الحنين إليهِ حاضرًا يدق أبواب قلبي، فقد كانت ليلة الذكرى السنوية لميلاده، وشعرت أنني سوف أُصاب بالجنون لو لم



أتحدث إليه، نهضت عن الفراش، وجلست أمام الحاسوب في محاولة مني لإشغال نفسي بشيءٍ ما يلهيني عنه، لكنني فشلت، وجدتني دون إرادة مني أفتح حقيبة يدي الخاصة، أخرجت منها شريحة الهاتف القديمة ثم أعدت تشغيلها.. و أجريت اتصالًا.

أجابتني من الرنة الأولى، كانت فرحةً للغاية، تحدثت إلي بحفاوةٍ وصوتٍ بدت فيهِ السعادةُ الشديدةُ بالاتصال، تبادلنا السلام واطمئن كل منا على الآخر، ثم وبشغفٍ سألتها عنه، كيف حاله؟ ابنته؟ صحته؟ قبل أن تُجيب عليَّ بشيءٍ بكيت، ولم أهدأ إلَّا عندما تحدثتْ بادئةً حديثها بِـ :

- هو بخير ما دمتي بخير، لقد بحث عنكِ كثيرًا كالمجنون بعد أن اكتشف الحقيقة وزال السحر، حزن عليكِ ليالٍ طوال، حتى إنهُ ذهب إلى ابن عمك ((نزار)) في شقته وطلب منه بإصرار أن يدلَّهُ إلى أي مكان قد رحلتم، لكنه رفض تمامًا أن يعطيه أية معلوماتٍ عنك، حتى إنهما اختلفا سويًا، ولولا حبهِ لكِ لأصبح الأمر سيئًا.

- سحر !! أي سِحر ؟

- نعَم سحر .. إنها قصةً طويلةً و .. ..

- انتظري .. أريد أن أفهم !! أي سحر؟!

- بعد أن أخذتُ منكِ الصندوق، ذهبتُ إليه، دار بيننا حديث حاد للغاية، أخبرته برسالتك وبأنه ليس الشخص الذي نعرفه، واتضح لي أنه شخصيًا يستغرب لأفعاله وضعفه أمام زوجته، رغم قوة شخصيته أمام الجميع، وتساءل ما الذي يدفع فتاةٍ لقص شعرها بهذه الطريقة إلَّا إذا كان هناك شيء كبيرٌ بينهُ وبينها، تساءل أيضًا عما فعلتيه بنفسك ليلة زفافه.



- ماذا بعد ؟!

- لا شيء، جلس مع زوجته، وبصرامة استفسر منها، لماذا يبدو مسلوب الإرادة أمامها؟، وما السر وراء نسيانه أشياء نتذكرها نحن، كقصتك معه ولا يتذكرها هو؟ وهددها بالطلاق لو لم تعطيه إجاباتٍ واضحةٍ.

- و كان تعليقها ؟!

- كان تعليقها أنها سوف تقص عليه كل شيء بصدق شريطة أن يعطيها عهد أمام الله أن يتفهم الأمر ولا يطلقها، فوافقها، فقصت عليه أن والدتها عندما أقنعت والدتهُ في خضم الأزمة بين عائلتك وعائلتنا بأنه مصاب بالسحر والحسد، وحصلت على شيء من ملابسه، قد استغلت الأمر وقامت بصنع سحر أسود له بالوقوع في حبها وفقدان الإرادة أمامها.

***

رغم تأخر الوقت كان لدي يقين بأنه مايزال مُستيقظًا لم ينم بعد، فاتصلت عليهِ .. عند فتح الاتصال لم يتحدث ولم أتحدث، لا أعرف هل سيصدق شخصًا إن قلت إننا تعانقنا عبر أسلاك الهاتف أم سيقولون مجنونة، شممت رائحته، شعرت دفء أنفاسه، أخذني الحنين إليه بكل ما تعنيه الكلمة، ثم بكينا، بكينا وظل صوت البكاء يعلو لدقائق ..في النهاية تحدثت إليه وأخبرته بأسفي عن كل الأوقات الحزينة التي حاولت فيها جاهدةً أن أكون له صدرًا أو كتفًا، أو حتى نسمة باردة، ولم تسعفني المسافات، وظل الحديث بيننا متواصلًا لوقتٍ طويل.

أخبرني أنه كاد ينفصل عنها لولا أن عائلته توسطت وضغطوا عليه يمنعوه، خاصة أنها كانت قد حملت في طفلة أُخرى، قال إنه بحث عني

كثيرًا، وتألم كثيرًا ومازال يؤلمه الغياب، ثم بادلته أخباري العائلية وعن عملي ومكانه.

عند الفجر انتهت المكالمة، بعد وعدٍ متفقٍ عليه أننا سوف نتحدث من جديد، وبينما احتضنت الهاتف واستلقيت في الفراش متوردة الملامح تسري في شراييني لذة حب وشيءٍ من السعادة التي فارقتني لأوقاتٍ طويلةٍ، تحدثت ((جميلة)) التي كانت نائمة بالقرب مني على سريرها، ويبدو أنها سمعت كل شيء، قالت متهكمة من تحت الغطاء دون أن تكشف عن وجهها :

– زين زين زين .. أنتِ مجنونة.

***

إن المياه و إن عادت إلى مجاريها، فإنها لن تكون بنقاء أول مرة، لكن في الحب نحن دائمًا ما نكون معميين عن مساويء من نحبهم، نغفر لهم الذلّات وننسى الأخطاء، نظل نغفر لهم مرة تلو الأخرى حتى نصل إلى نقطة الغليان وعدم المقدرة على التحمل فننفجر ويتمزق الحب إلى أشلاء، وأنا لم أكن قد وصلت لهذه النقطة مع ((زين)) بعد، بل إنني كنت أراه يعاني من الظلم تمامًا مثلي، لذلك أعدنا إحياء ما كان بيننا من حب، فعادت بيننا المكالمات كما كانت، وعادت لقاءاتنا وبدأنا مجددًا نصنع شيئًا من الذكريات ونعيد التخطيط والترتيب للأحلام.

***

في إبريل للعام 2009 م، أتممت الواحدة والعشرين من العمر، كانت ((جميلة)) ماتزال ترفض الزواج انتظارًا لـ ((رشيد))، وكانت ((فطوم)) تعرف ذلك جيدًا، ولما فُتح الأمر واستشعرتُ أن هناك بوادرًا من القبول عند((فطوم)) وزوجها، استغليت الفرصة وفاتحتها أنا أيضًا في أمر

((زين))، أخبرتها ما كان بالتفصيل، كشفت لها عن رغبتي في أن أُصبح له زوجةً ثانيةً أو ثالثةً أو حتى عاشرة، فحُبهُ مايزال قابعًا في صدري، وطلبت منها أن تتحدث إلى زوجها، تخبرهُ بأنني مازلتُ مُتمسكةً بحبه ورغبتي في أن أكون السيدة الصغيرة لمنزلهم.

انتظرتني حتى انتهيت من الحديث، ثم فاجأتني بأنها تعرف كل شيء، كانت ((جميلة)) تنقل اليهم كل ما تسمعه، كيف نتحدث، وأين نلتقي، ولأي شيءٍ نخطط، حتى إن السيد ((جمال الدين)) لديه علم بما يحدث، رغم ذلك لم يتدخل.

تلقيت حديثها بدهشةٍ، وكما قلت مُسبقًا : ((أحيانًا يكون البؤس في معرفة الحقائق فور حدوثها))، أتساءل لماذا تفعل ((جميلة)) كل ذلك؟ أليس من المفترض أن تكون هي كاتمة أسراري لا أن تفضح امري؟!

سألتُها :

- ماذا بعد؟!

- والدكِ ليست لديه النيَّة هذه المرة على الاعتراض، لكن لديهِ شروطًا كي تصبحي زوجةً ثانيةً، أولها أن يحضُر لطلبك بكامل عائلته وليس وحده، كما عليه أيضًا أن يوفر سكنًا خاصًا لكِ وحدكِ بالقرب مِنَّا، لا أن تذهبي وتعيشي معهم في نفس المنزل.

لا ردود، لا تعليق، اكتفيت بالصمت والكثير من الشرود، تساءلت هل نحن في وضع يسمح لنا بوضع الشروط؟، وإن كُنا في هذا الوضع، هل على ((زين)) التخلي عن الحياة في منزلهم الكبير، الذي يتمنى أي شخصٍ آخرٍ أن يعيش بداخله كي يعيش معي في مكانٍ آخرٍ بالتأكيد سوف يكون أقل كثيرًا؟! هل على عائلته بعدما حدث في السابق أن يعودوا مُجدَّدًا لطلبي لابنهم ومواجهة نفس الأشخاص الذين رفضوهم



بطريقـةٍ مهينـةٍ مِـن قبـل!! هـل عليهـم الذهـاب لطلـب عـروس لابنهـم المتزوج دون الاكـتراث للزوجـة الموجـودة بالفعل بينهـم منـذ سنوات ولها أطفـال منهـم؟!؟

كان الأمـر صعبًـا للغايـة، حتـى عندمـا ذهبـت للحديـث مـع ((زيـن)) وأخبرتـه بـما قيـل، دار بيننـا نقـاشٌ أعتقـده كان حـادًا، حيـث بـدأ حديثـهُ مُنـدِّدًا بأفعـال العائلـة:

- تستمر العائلـة في حملنـا عـلى مـا نكـره حتـى نسـقط في فـخ العنـاد معهـم، فنقـف لهـم وكأنهـم أعـداء، يدفعوننـا بقـوة نحـو الخطـأ ثـم يعاقبوننـا إذا أخطأنـا، متناسـين أن لنـا الحـق في تقريـر مصائرنـا، إنَّ والـدكِ مايـزال يرضـخ للعـادات والتقاليـد التـي فَنَـتْ قبـل عـشرات أو ربـما مئـات السـنين، ليتـه قـد قـرأ قـول العـم ((كافـكا)): ((إنـه لمـا يؤلـم غايـة الألـم أن يُحكـم المـرءُ بنـاءً عـلى قوانـين لا يعرفهـا، وضعهـا أشـخاص قـد رحلـوا عـن الحيـاة قبـل عـشرات وربـما المئـات مـن السـنين))، أخبريـه أن الأمـور تبدلـت كثـيرًا.

- حتـى لـو اتفقنـا عـلى مـا تقولـه يـا ((زيـن))، هـذا ليـس مـبررًا لاسـتخدام القـوة، فعـلى المـرء أن يكـون تحـت أمـر ضمـيرهِ و ليـس قوتـهِ، أن يكـون تحـت أمـر إيمانـهِ وليـس تكبّـرِهِ، حينهـا فقـط يسـتطيع مجابهـة الظـلام، لـو جابهناهـم بالعنـاد والقـوة قـد نكسرهـم وفي كسرتهـم كـسر لنـا، ثـم إني وكـما أخبرتـك مسـبقًا أضعـف مِـن أن أكـسر قلـب والـدي وأنـتَ قـد رأيـتَ مـا قـد حـلَّ في قِصـة ((شـاهندة))، ومـا آلـت إليـه الأمـور بعـد ذلـك.

- عـن ((شـاهندة))، أنـا لا أتعاطـف مـع أهلهـا، هـم فعلـوا ذلـك بأنفسـهم، أمَّـا عـن ضعفـك فيقـول ((تولسـتوي)): ((لا يوجـد إنسـان ضعيـف، بـل يوجـد إنسـان يجهـل موطـن قوتـه))، وأنـتِ تجهلـين مـا عليـكِ فعلـهِ، وهـذه المـرة قـد تضيـع قصتنـا للأبـد.



- ويقـول ((تولستوي)) أيضًـا : ((أقـوى المحاربـين همـا الوقـت والصبر))، فدعنـا نصبر قليـلًا يـا ((زيـن))، ألا أسـتحق منـك الصبر ؟!.

- ليس كل الصبر يجدي، صبرنـا سـابقًا فتزوجـت مـن غيرك، ورحلتـي عـن الحـي، وافترقنـا لشـهورٍ طـوالٍ دون أن أعـرف عنـكِ شـيئًا، إلى متـى تريديـن أن نصبر مجددًا؟!.

- اسـمعني يـا ((زيـن))، واسـتمع إلى صـوت العقـل، يقـول ((ليـزلي كارون)) : ((لكـي تحصـل عـلى سـعادة عظيمـة عليـك أن تصـارع ألمًـا عظيـمًا لأنـك لـن تشـعر بالسـعادة يومًـا إن لم تختـبر الألم))، كـما يقـول العـم ((جوزيـه سـاراماغو)) : ((إن لم نسـتطع أن نحيـا كالبـشر، علينـا أن نحـاول ألَّا نحيـا كالحيوانـات))، أليـس هـذا مـا تعلمنـاه سـويًا مـن قـراءة الأدب والكتـب؟!، أليـس هـذا مـا اتفقنـا عليـه مـرات عديـدة في النقاشـات بيننـا ؟!

- و بِـمَ اسـتفدنا مـن الأدب والكتـب؟! بـل مـاذا يعنـي الأدب إن كنـا نحيـا وسـط مجتمـع عقيـم تحكمـه العـادات والتقاليـد؟! مـاذا يعنـي في مجتمـع مُتعصـب تسـيطر عليـه الأنانيـة وقوانـين الغابـة؟! يـا ((هبـة الله)) إن الأشـياء إن أتـت مُتأخـرة فقـدت قيمتهـا، ونحـن تأخـر جمعُنـا كثيرًا ولا يجـب أن نتأخـر أكثـر مـن ذلـك، للمـرة الأخـيرة فكـري بالعقـل والمنطـق لا بالعاطفـة.

***

لأيـام.. عُدنـا مُـجددًا لممارسـة الصمـت وشيء مـن الصبر، لكـن الصمـت مـع غيـابٍ مـن تعـودت وجـوده بالقـرب يصبـح مميتًـا، أشـعر بالغربـة حـين أفتقـد أحاديثنـا الليليـة، وحـين أسـمع خـبرًا سـارًا ولا أجـدهُ لأنقلـهُ إليـهِ، وحـين يرهقنـي العـالم ولا أجـدهُ لأخـبرهُ أنـهُ ملجئـي الوحيـد.

الصـبر مـؤذٍ، والفضفضـة لا تخفـف مـن الألم، قهـر كبـير في أن تصبـح مثـل



جميع من حولك، صامتًا مرتديًا قناع السعادة المزيف، فجميعهم يرتدون أقنعة السعادة رغم أنهم يخفون أوجاعًا عظيمةً، يرتدونه كل صباح قبل أن يغادروا غرفهم الخاصة كجزء من ملابسهم، ثم يخرج لمقابلة العامة بوجهٍ بشوشٍ رغم ما يسكُنهم مِن ألم.

أعتقد أنني بدأت أفقد إنسانيتي تدريجيًا، أصبحتُ أُشبه إنسانًا آليًا يعيش بمشاعر مزيفة يومًا بعد يوم دون تغيير، لست أدري هل هي قلة حيلة مني واستسلام للضعف والأمر الواقع؟! أم أنها أعراض موجة اكتئابٍ وانتحارٍ داخلي، أتذكر كلمات الطبيب في الفترة الماضية ((لستِ مريضةً أنتِ فقط ترفضين الحياة)).

أتساءل في نفسي إن كان عليَّ موافقة ((زين)) والوقوف ضد رغبة العائلة؟! ومحاربة العادات والتقاليد والثورة عليهم للنجاة بنفسي من أجل الحب؟! أم عليَّ أن أتحلى بالصبر المُرّ، لكن إلى متى سيستمر هذا الصبر ؟! وتُرى ما الذي عليَّ فقدهِ هذه المرة جزاءً للصبر.

***

تخلل هذه الأيام شللٌ تامٌ لعلاقتنا، لكن هذه المرة بلا أسباب، فقط حلَّ الصمتُ بيننا، ثم بدأت الأيام تتحول لأسابيع ثم شهور .. أنهى ((زين)) دراسته وشق لنفسهِ طريقًا خاصًا في العمل بجانب إدارته لأعمال والده، بينما كنت في العام الأخير للدراسة التي أكرهها، كنت أتصنع القوة، أمثل أنني لا أفتقده وأنهُ مُجرد قصة تحتضر وقريبًا سوف تُنسى كما فعلت الذاكرة بأشياء كثيرة كنا نظنها مخلدة فينا، لكن يبدو أن ما ظننته لم يكن إلا وهمًا فَفي كل يوم أنزل إلى الشارع وبدلًا مِن أن أسلك الطريق المستقيم نحو الجامعة أركب محطتين عكس الطريق، أذهب لزيارة ((أُم بربارة)) أتبادل معها بعض الكلمات القليلة قبل أن أشتري منها «الشباكية» كالمُعتاد ثم أرحل.



كنت أمشي في الشارع أترقب الأماكن التي كان يفاجئني بالظهور فيها، عندما أقتربُ من هذه الأماكن كان قلبي يخفق بسرعة، تسري في عروقي نشوة السعادة آملةً في ظهوره المفاجيء كالعادة، كنت آمل أن تُكحل عيني برؤيته كالأيام الخوالي، لكنني كنت أصل دون أن أجده فيخيب أملي وتغيب الابتسامة ويحل الأسى محل الفرح.

لعامين متتاليين أركب الحافلة وأحجز له مكانًا بالمقعد الملاصق لي، وفي كل يوم أقطع له تذكرة الركوب تحسُبًا أن يظهر ولو مرةٍ واحدةٍ كما كان يفعل ويأتي كما أول مرة وكما اعتدنا لأوقاتٍ طويلةٍ أن نفعلها فيجلس بجواري ويطيب خاطر هذا القلب الجريح، لكنه أبدًا ما أتى.

لقد كانت خيبة أمل، وخيبة أمل مرهقة، فقد عادَ إليَّ شعور أنني في فوضى عارمة، وأحتاج لأن أُعيد ترتيبُ حياتي من جديد، فالأحداث تتراكم وتجر معها الكثير من الوقت، لقد فاتني أن أفهم أنني أنزلق نحو الهاوية ولا مجال للتوقف، لذا لا بد من وقفةٍ مع الذات.

حينها بدأت نظرتي للأمور تتبدل، وبدا لي أن القوة هي التي تجلب الحب وكلاهما يكمن في محبة الذات أولًا، وفي النجاح الشخصي، فنجاحك الشخصي هو ما يجبر الجميع على السعي وراءك ومحاولة التقرب منك، فأنتَ إن خسرت نفسك لن تربح شيئًا أبدًا، وأمام اقتناعي بهذه الافكار قمتُ بالتركيز في الدراسة حتى تخرجت، لم أسعَ للعمل في مجال المحاماة والقانون، إنما أكملت عملي في نفس المكان الذي سبق لي والتحقت به، وكقصة أصحاب الكهف ضَرَبْ الله عَلَى أُذُنِي فتفاجأتُ بأنه قد انقضت ثلاث سنوات دون أن أدري كيف حدث ذلك؟!، أوماذا حدث؟، ثلاث سنوات لم يحدث بيني وبين ((زين)) أكثر من بضع مكالمات تُعد على إصبع اليد، وبعض المناسبات تخللتها بعض الرسائل التي بدت لى



وأنا أعيد قراءتها في وقتٍ لاحقٍ كأنها من باب المجاملة بين غرباء كانوا يومًا مقربين ثم عصفت بهم الحياة فضَلُّوا السبيل لبعضهم، ولكن يبقى المؤسف دائمًا في أمري أن ما في قلبي لا يتبدل في البُعد أو الجفاء، وأنني إذا أحببت أحدًا أفرطتُ في الوفاء إليهِ، ثم إنهم يرددون دائِمًا ((إذا أردت شيئًا بشدة فأطلق سراحه إن عاد إليكَ فهو ملكك وإن لم يعد فهو لم يكن لكَ مِن البداية))، كذبوا، والله وبالله وتالله كذبوا، فأنتَ إن أردت شيئًا بشدة وجب عليكَ أن تتمسك به، وتسعى إليهِ بقوةٍ دون كللٍ، وتحارب لأجله، فالأشياءُ الجيدة لا تأتي مُصادفة والسماء لا تمطر ذهبًا.

***

ثلاث سنوات انقضتْ، أصبحتُ في بداية الرابعة والعشرين من العمر ومازلت متوقفة في مكاني ويكأنني فتاة السابعة عشر كما كنت، لا شيء تغير، كنت في وضعٍ مملٍ للغاية، حياةٌ فارغةٌ مِن كل شيء إلا العمل، أقضي فيهِ أوقاتي من التاسعة صباحًا و حتى ما بعد الخامسة مساءً ثم أعود للنوم، نسيت الكتب وابتعدت عنها، حتى ((منكوشة)) أهملتُها رغم أنها أصبحت قطةً كبيرةً وأخشى أنها هي الأخرى ربما تودعني قريبًا وترحل، فأبقى وحيدة كما قالت الجدة ((حسيبة))، كانت ((جميلة)) قد وصلتْ أواخر السادسة والعشرين من عمرها وماتزال رافضة أن تتزوج بغير ((رشيد))، بينما ((زين)) قد انتهى مِن واجبه العسكري تجاه بلاده ومضي في حياته بعيدًا .. بعيدًا بدوني.

في حياتنا أشياءٌ قليلةٌ قد تغيرت، فثلاث سنوات تنقضي من عمر شباب في مرحلة العشرينات قد لا تشكل فرقًا كبيرًا في حياتهم، لكن في أعمار من وصلوا نهاية الخمسينيات يُصبحوا حدثًا جللًا، فقد بدا المشيب واضحًا في ملامح السيد ((جمال الدين))، وَهِنَتْ صحته، وتمكنت منه



أوجاع السنين، ثم حلت عليهِ لعنة المرض، وأمام تدهور صحته وانعدام مقدرته على مزاولة العمل أُحِيلَ للتَّقاعُدِ من قبل الشركة التي يعمل بها، منحوه مبلغًا مُجزيًا عن فترة خِدمته، ومنحوهُ أيضًا الحق في حصوله على العلاج كأي مواطن مصري على نفقة الدولة.

رغم كل ذلك كان السيد ((جمال الدين)) يأبى أن يترك الأمور تسير كما هي، فقد أشار إلى ((جميلة)) بأنه وافق على زواجها من ((رشيد)) وطالبها بأن تخبره بأنهم ينتظرونه برفقة عائلته في أي وقت، ثم أتى إليَّ وقال بلكنة قد بدا فيها التوسل أكثر من الأمر إمَّا ان يأتي ((زين)) موافقًا على ما اشترطناه أو تتزوجي من ((نزار)) ابن عمك على أن يتم زفافك مع زفاف ((جميلة)) و ((رشيد)).

تلقيت الحديث صامتة، بشيء من اللامُبالاة. فسواءً تزوجت من ((نزار)) أو ((زين)) أو أعيش بلا زواج لم يعد يشكل الأمر فارقًا عندى، بعد أن يعاني المرء من الآلام المتكررة خاصة التي تأتي من المقربين يفقد شغفه تجاه كل شيء، ثم إن شعوري بأن ((زين)) قد أهملني ولا يُحدث معه غيابي فارقًا جعلني في حالة من البرود التام. رغم ذلك تواصلت معه .. أخبرته بأنه لطالما كان سبب قوتي و ضعفي معًا .. تارة يجعلني أضحك وأخرى أحزن وما بين الشعورين وحدي كنت أترنح. لقد كانت رحلتنا طويلة للغاية رغم قصر المسافات، لكن الآن لم يعد هناك مفر من اتخاذ قرار ينهي ما بدأناه.. وكان رده باهتًا كعادة ما أَلَفْتُه منه في الفترات الأخيرة.. أخبرني أن كل شيء قد تبدل.. أنه غير قادر على الارتباط بي هذه الأيام، خاصةً أن والدته تمر بأزمة صحية شديدة للغاية تكاد تكون بين يدي الله.

❋ ❋ ❋



(14)

كان المرض قد تمكن منه، فأنقص وزنه كثيرًا، ووهنت قواه، شعر أن نهايته وشيكة، لذا قام بأحضار مبلغ مكافأة نهاية خدمته في العمل ثم أضاف إليهم مبلغًا ليس بقليل كان قد جمعه من سنوات عمله الطويلة ثم قسمهم إلى نصفين، وذهب لوضعهم كوديعة في البنك باسمينا أنا و ((جميلة))، عاد يومها من البنك وجمع ثلاثتنا ((الأم وابنتيها)). أجلسنا حوله، صمت قليلًا، كأنه يفكر فيما سيقوله، ثم وبعينين مغرورقتين بالدموع (تأسف) .. تأسف كثيرًا على كل شيء كان وما لم يكن، قال إنه فقط كان يريد دائمًا لنا الخير لكنه اختار دومًا ما رأى فيهِ الخير من وجهة نظره الشخصية، قال أيضًا إنه عاتب على نفسه كونه لم يأخذ الأمر مشورة بيننا ولكن الأمر لم يكن ديكتاتوريًا إنما هو نفسه قد تربى على ذلك وكان يأمل لو استطاع ألا يدير أمور الحياة معنا كما أديرت معه من قبل عائلته من قبل. لكن هذا ما كان. أخبرنا يومها لو أردتم العودة إلى ((شفشاون)) فمنزلكم كما هو بانتظاركم كما أن أبناء عائلتكم والوطن يجعلونكم في أمان، وإن أردتم أن تكملا هنا فلتتزوجا، تزوجا ليطمئن قلبي عليكما. ثم أنهى جلستنا بسيلٍ من الدموع.

***



ليلتها / العاشرة مساءً: جلست منزوية في غرفتي أتحدث إلى نفسي بينما جلست ((جميلة)) تتحدث هاتفيًا مع رشيد لتخبره بما كان، كنت تائهةً شاردة، أشعر بالضجر وبشيء من المهانة بسبب ما أراه من تفكير والدي وصمت زوجته ومن المجتمع بأكمله، بينما كانت ((جميلة)) تبوح بالأسرار مع رشيد فتخبره أن الوالد قد وضع لها وديعة كبيرة في البنك باسمها لتكون لها سندًا إذا ما فارق الحياة، كنت أفكر كيف للعائلة والمجتمع أن يبثوا في الفتاة أنها ما خلقت إلا لتصبح ((زوجة)) تابعة لذكر، بدلاً من أن تربيتها لتكون امرأة واعية، مثقفة، مستقلة بحياتها، لا تخضع لسلطة أحد. بينما كانت ((جميلة)) تتحدث مع ((رشيد)) عن زواجهم وأنها قد تساعده بالمال فيما بعد ويستغلونه في بناء مشروع ما يعيشون منه في نعيم واستقرار. كنت أشعر بالضجر من الجميع لأنهم اختذلوا حياة المرأة وفرص نجاتها في عقد زواج وقد كان من الأفضل أن يعلموها كيف تعتمد على نفسها أولًا ودائِمًا، كيف تواجه الحياة بمفردها، أن يبثوا فيها الإرادة لتحقيق أهدافها وطموحها وأن تعرف كيف تكون مستقلة بحياتها ثم في النهاية تأتي فكرة أن تتزوج. فالزواج خطوة اختيارية بهِ تكتمل الحياة أو بدونه وليس خطوة إجبارية ضرورية يتوقف الكون من أجله. إن المرأة تسقط في فخ الهزيمة والضياع والوهن إذا ما اعتمدت على الرجل فقط، فالرجل ليس الجني في مصباح علاء الدين بل حتى وإن كان فهذا الجني له عدد معين من الأمنيات ثم بعد ذلك يرحل. وإن فُقِد المصباح لصالح شخصٍ آخر أصبحت الأمنيات لذلك الآخر وليست لك، إن الجني الحقيقي يكمن فيك أنت، في نجاحك الشخصي، ثقافتك ووعيك وتعليمك، في تمكنك من الحصول على عمل واستقرار مادي يعينك على مشقات الحياة.



كنت شاردة، غاضبة، أفكر فيما يحدث، بينما كانت ((جميلة)) مستمرة في التحدث مع ((رشيد)) عبر الهاتف. كنت أبغضه من الوهلة الأولى، وكأن الله قد أمر من فوق سبع سماوات أن أكرهه فكرهته، كان يملك صوتًا مرتفع دائمًا، يضحك ويمزح كثيرًا، مُستهترًا، عيناه حمراء كالشياطين يُقال من فعل الخمور والمخدرات التي لطالما أنكر أنه يتناولها ويقول ((كذبًا)) إنها من فعل السهر في العمل ليلًا والدراسة صباحًا، كانت نظراته مريبة، شهوانية تؤذيني كلما قابلته، لكنها كانت تحبه، تتعلق به وكأنه آخر البشر على الأرض، عندما علم منها بشأن ما كان من الوالد تمسك بفرصته .. كنت موقنة منذ البداية أنه معها فقط لأنها جميلة وجميلة للغاية، لقد كان فقط يبحث عن فتاة مُميزة ومُدهشة يتسكع معها داخل الجامعة وبعدها لم يكن ليخسر شيئًا فأكمل في العلاقة، مجرد فتاة معلقة في رقبته في أي وقتٍ شاء سوف يقطع علاقته بها، ثم إنه بالتأكيد كان في علاقات أخرى كثيرة يحصل من كل علاقة على ما يستطيع الحصول عليه. لكنه في النهاية لم يتزوج إلا من فتاة يحصل منها على منفعة ما، وقد توافرت له الفرصة الآن بعدما علم بشأن الوديعة.

***

كانت الأيام تمر بطيئة، شعور الخيبة يرافقني فيها، أتساءل دائِمًا: ماذا فعلت ليصادف ربيع عمري كل هذه الخيبات؟، وقد كنا وقتها بعيدين، بعيدين حد الشعور بـ الآسى كلما تذكرت كم كنا قريبين، كلما تذكرت أن الهواتف كانت لا تنطفيء أضواء شاشاتها من كثرة ورود الاتصال وتبادل الرسائل والحَكَايا، كنا قريبين كضفتي غلاف كتابٍ رائع تنتهي من قراءته وتشعر أنك فتحته توًا ولكن من فرط لذة ما قرأته انتهيت منه سريعًا. و لأنني لا أغادر من حياة أحدٍ ما ألا وقد قاتلت بما فيه



الكفاية لكي أبقى وجب عليَّ التواصل معه ولو مرة أخيرة. ولما لم يكن الوقت يتحمل الانتظار اتصلت به، تواصلت معه هاتفيًا ودون مقدمات دخلت في الأمر مباشرة، أخبرته بما حل بنا بداية من مرض السيد جمال الدين وإحالته خارج العمل نتيجة ظروفه الصحية، مرورًا بتخوفه من الموت، وانتهاءً بِ مطالبته لي و ((جميلة)) بالزواج كي يطمئن قلبه.

كنت أتوقع منه ردة فعل تطمئن قلبي، كنت أود منه مخالفة وكسر قاعدة العم ((جورج برنارد شو)) في القول : ((أن الكل سوف يؤذيك ..)).كنت أنتظر منه استغلال الفرصة والوقوف إلى جواري. و انتظرت أن يهتدي و يختارني لمرة أنا الذي اخترته بإصرار في كل مرة و وستختاره دائمًا وتنتظرة حد الفناء لو أنه فقط قال انتظريني ، لكنه لم يفعل .. لم أجد منه سوى مواساة باردة، بعضًا من الأسف على ما آل له الحال وكثيرًا من الصمت الغير مجدي والذي لا يعني لي سوى أنه تخلى عني، ثم أخبرني أن والدته بحالة صحية متأخرة للغاية، من الصعب جدًا عليه الآن اتخاذ أي خطوة في قصتنا، للحظة بدا لي أن القدر يرفض بأن نفترق ولا يقبل أيضاً بأن نكون قريبين من بعضنا، شيء ما بالمنتصف هو ما كتب لنا بأن نعلق به إلى الأبد. لكنه قطع هذا الشعور عندما قال امضِ في حياتك، امضِ فيما فيه خير لكِ.. للحظة : شعرتُ كما لو أن شيئًا ما انتزع مني بالقوة، كما لو أنه غرز كلتا يديه الجائرة في جسدي لينتشل قلبي من صدري. فقط للحظات ظننت العالم سيتوقف والطيور ستموت والشمس لن تشرق من جديد، لقد ظننت بأن كل شيء سينتهي فور أن نبتعد. لكن كل شيء لازال كما كان نحن فقط توقفنا. ولما استحال عليَّ تحمل برود المحادثة وشعرت أنني أفرض نفسي عليهِ أخبرته :

- زين .. كن بخير .. بخير فقط. ..



وأنهيت الاتصال.

***

كنت واقفة بالقرب من النافذة المطلة على الشارع، أنزلت يدي الممسكة بالهاتف، ارخيتها تمامًا باستسلام ثم تراجعت خطوات ابتعدت عن النافذة، جلست عند حافة السرير صامتة تمامًا، أومأت برأسي يائسة ألا أمل ولا نجاة، هل تعرفون هذا الشعور بالألم الذي يبدأ من القلب .. ينتقل للرئة .. ثم لبقية الجهاز التنفسي والهضمي .. ثم للأطراف .. هذا ما حدث معي لحظتها. لقد خَرَتَ قواي وأصبحتُ هشةً كـ القشِ. أصابني يأس، انطفأ في داخلي شيء ما، أدى لإنطفاء كل شيء. أصابني يأس اقتلع من صدري العاطفة وكل حقيقة، وكل شعور، جعلني أتجاهل مشاعر القلب وصيرني رمادًا خفيفًا تذروه الريح.

ببطء انفتح باب الغرفة.. دخلت ((فطوم)).. أغلقته من خلفها.. جلست إلى جواري تمامًا.. ربتت برفقٍ فوق كتفي الأيسر ثم سألت وهي تنظر في عيني مباشرة باستحياء : ماذا بعد؟! والدك ينتظر منك إجابة!! دون تردد أجبتها كما أجاب نبي الله ((اسماعيل)) عليه السلام أباه.

- أخبريه أن : ((يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ)). الصافات:102.

بعد سماعها ما قلت .. ربتت على كتفي مرة أخرى قبل أن تقوم وتخرج من الغرفة، توجهت إلى السيد ((جمال الدين)) أخبرته بما دار بيننا .. بعد دقائق قليلة عادت إليَّ .. كنت ما أزال جالسةً حيثما تركتني.. جلست بالقرب مني ملاصقة لي تمامًا، وهمست :

- الجمعة القادم يأتي رشيد بصحبة عائلته لخطبة ((جميلة)) وبنفس



اليوم تُقرء فاتحتك على ((نزار)) على أن يكون خلال شهر من بعدها حفل زفافكم.

سمعت كلماتها ولم أعلق، لم أحرك ساكنًا، اكتفيت بابتسامة باردة مصطنعه، لم أكن أعي لحظتها بأنني تسرعت، بأنني القيت بنفسي في بحر من الظلمات. كان عليَّ تفهم أن الغضب يجعل المرء أحيانًا يقترف أمورًا لا يُحمد عقباها، وأحيانًا يجعل الخوف المرء يقترف أمورًا لا يُدرك عقباها .. الغضب والخوف يُخرجان المرء عن المألوف منه. لذا يجب توخي الحذر والتريث في اتخاذ القرارات عند الوقوع أثيرًا تحت واحد من هذه المشاعر، ومرت الليلة .. مرت باردة تمامًا، فقد تصنعت القوة وتمسكت بها، لم أطلب ليلتها يدًا تمسح دموع الفزع، ولم أُوقظ أحدًا ليعانقني كي أهدأ، علام يجب أن أكون ممنونًة؟ لقد عشت أسوء اللحظات السابقة بمفردي والآن عليَّ التحمل.

***

الجمعة مساءً : نهاية الليلة جلست ((جميلة)) تتحدث إلى رشيد عبر الهاتف، كانت عيناها ممتلئة بالسعادة ملامحها متوردة، أخيرًا كللت قصة حبها ل رشيد بارتباط رسمي ترعاه العائلة.. ((جميلة)) التي أحبت نذل، سكير، أخلاقه مزيفة ونظراته تشبه نظرات الخنزير مليئة بالشهوة ولم يتخذ خطوة واحدة في سبيلها إلا بعد علمه أنها حصلت على وديعة بنكية فطمع فيها، أصبحت الآن معه في علاقة رسمية برعاية الأهل. أمَّا هبة الله التي أحبت زين زين زين، رفيق الكتب، الشهم، أشهر من في الحي، والذي سعى إليها مرة تلو الأخرى هو وعائلته فقد افترقا.. افترقا والآن أصبحت في طريقها للزواج من ابن عمها حسب العادات والتقاليد ورغبة السيد ((جمال الدين)). ستتزوج ابن عمها المخمور



ليلًا ونهارًا رفيق السيئين. الأمر أشبه بمزحة سيئة للغاية تلقاها أحدهم فبكي ولم يضحك.

لم أكن و ((نزار)) يجمعنا حديث، حتى إنني لم أكن أملك رقم هاتفه، ولو كنت أملكه فبما سوف أتحدث إليه وأنا قلبي و عقلي وكلي مع ((زين))!! الأمر بشع للغاية .. استلقيت في السرير لبعض الوقت في محاولة مني لاستجداء النوم أن يأتي لكن دون جدوى، فنهضت عن السرير.. جلست عند حافته.. سحبت هاتفي من فوق المِنْضَدَةُ بعد أن ابعدت عنه أسلاك الشاحن.. فتحت شاشته ثم توجهت بداخله نحو نافذة دردشة أحد مواقع التواصل الاجتماعي. بحثت عن نافذة دردشة باسم ((زين)). ثم بدأت أسرد له رسالة طويلة أصف له فيها ما أشعر به ..

مرحبًا ((زين)) .. أمَّا قبل .. مرة أخرى لا أعرف بما أناديك.. كل شيء قد تغير .. أمَّا بعد أريدك أن تعرف لم يكن غيابك مفاجئًا .. لكنه كان .. وما زال .. وسيظل : موجعًا. عرفتك قبل سنوات تحديدًا في نيسان .. عشنا سويًّا أوقات طويلة كانت كلها جميلة برفقتك.. كنت فتاةً صغيرة تبدو كالربيع، و دائمًا برفقتك كنت مزهرة، والآن ها هو نيسان يحل عليَّ من جديد، لكن هذه المرة أنا وحيدة تمامًا، مشوهة لا أعرفني، لا أعلم من أنا، أجهلني كثيرًا كفتاةً أخرى غطاها خريف مصفر كأرض أجدبها الجفاف كسحابة كادت أن تهطل وانقشعت قبل ذلك، ككل الأشياء اللامكتملة، امرأة متقلبة المزاج في الدقيقة ألف فرح وبكاء ولا أعرف الفرار من حتفي، كمدينة حرب هرب سكانها مهاجرين مع أسراب الحمام، كلوحة قديمة على حائط يبكي برودة أركان، كنافذة دون عصفور صباح وقهوة موعد باردة على منضدة انتظار، حتى كلماتي خذلتني، وذاتي طعنتني، كنت برفقتك زاهية مقدسة يشع مني الضوء والخير والفضيلة



كـ ((طليطلـة الأندلسـية))، أمَّـا الآن أمسـيت أشـبه ((يوليـش الألمانيـة)) في العـام 1945م. لم يتَبـقَ مني غـير الحطـام ورائحـة المـوت والبـارود وسـكون المقابر، بعـد رحيلـك غـاب الاطمئنـان ولا بـؤس أشـد عـلى المـرأة مـن فقدانهـا للأمـان، إنني الآن يـا ((زيـن)) بـلا قلـب، بـلا أى شيء وخاليـة مـن كل شيء، كـكل الأشـياء حـولي فارغـة تمامًـا حتـي مـن نفسـي .. لـذا قـررت أن أكتـب لـك، أروي لـك مـا حـدث لي بعـد قـرار غيابـك أشـرح لـك كيـف أن قلبـي أهلكنـي بـك ولأعلمـك أن اختيـارك للرحيـل مـرة ثانيـة كان هـو خطيئتـك الوحيـدة التـي سـتبقي حاجـزًا بينـي وبينـك للأبـد والتـى لـن تغتفـر أبـدًا .

لكـن !! .. قبـل أن أروي لـك مـا كان عليـك أن تعلـم أن كثـيرًا مـن الفـوضى تـدق في رأسي، وأن أجـراس الخيبـات تـدق في مسـاحات عقـلي المتخمـة بالخـوف و الجـزع مـن هـول مـا رأيـت، في حقيقـة الأمـر أنـا متعبـة حقًّـا، لـذا ..! فلتتحمـل كلـماتي مهـما كانـت مثقلـة بـالألم والحـزن وكثـير مـن الاتهامـات التـي يؤسـفني أنهـا حقيقـة. ولتعلـم أيضًـا قبـل أن أروي لـك شـيئًا، أني لسـت حزينـة مـن رحيلـك بقـدر مـا أنـا خائبـة مـن نفسـي حـين صدقـت حكايـات البقـاء التـي كنـت ترويهـا لي وحكايـات رجولتـك الذائفـة، حزينـة لأنـى سأشـيب و أنـا أتجـرع مـرارة فقـدك، وأنـا أشـكو حرقـة الغيـاب المـؤلم وأشـكو جفـاف الطرقـات مـن خطـوة أقدامـك نحـوي، والأسـوء مـن ذلـك شـعوري بالفـوضى العارمـة في صـدري، حزينـة يرافقنـي كـسر كبـير في قلبـي، أحـن، أتوجـع ، أضحـك، أبكـي وأحمـل صوتـك في مسـامعي ثـم أنـام .. حقًّـا أنـا حزينـة لرحيلـك و بفعـل خذلآنـك.

عليـك أن تعلـم أنـه بعـد رحيلـك مـرت الأيـام بطيئـة، أبطـأ ممـا ينبغـي، وعـلى أى شـيء مـرت!! مـرت عـلى وجـع، مـن ألم إلى ألم، مـن خـذلان إلى خـذلان، فـكل شيء حـولي آذاني بشـدة أكثـر ممـا تتخيـلل، لدرجـة أني كنـت



دائـمًا مـا أتسـاءل أي ذنـب اقترفتـه كـي أعاقـب عليـه بـكل هـذا الوجـع والألم والخذلان، وحتـى الآن لم أجـد الإجابـة وهـذا يسـحق روحـي بشـدة. ولتعلم أنـه في الوقـت الـذي تعتقـد فيـه أنـك رحلـت أنـت في الحقيقـة تـوهـم نفسـك بذلـك، نعـم هـذا وهـم فـأنت تحيـا بداخـلي دومًـا، قـد تكـون رحلـت في أعين الجميـع، قـد يعتقـدون حتـى إنـك رحلـت إلى الفنـاء، لكـن في الحقيقـة وحتـى لـو أنـك رحلـت إلى الفنـاء فـأنت تحيـا بداخـلي كل يـوم وكل سـاعة وكل دقيقة، تعيش بداخـلي دومًـا .. ولتعلـم أيضًـا أنـه في الوقـت الـذى اعتقـدت أنـت فيـه أن الأيـام تمـر وكل شيء يتغـير وأن هنـاك أشـياء أمسـت مجـرد ذكريـات، أرى أنـا نفسي لازلـت متوقفـة هنـاك عنـد أول لحظـة تلاقـت فيهـا عينـي بعينيـك قبـل سـنوات، تلـك اللحظـة الخالـدة في ذاكـرتي والتـي لا تفـارق مخيلتـي أبـدًا، لازلـت هنـاك أتذكـر كل شيء، نظرتـك العميقـة ، صوتـك، رائحتـك المميـزة، أتذكـر كيـف كنـت حلـمًا رائعًـا تحـول إلى كابـوس أسـود شـوَّه كل شـيء حـولي .. وآهٍ لـو أنـك تـدرك مـدى اسـتيائي مـن الأوقـات التـي لا تحمـل شـيئًا منـك، لمكثـت بالقـرب منـي ولـم تبتعـد أبـدًا ولـم تخـذل قلـب أحبـك بصفـاء لم تدركـه بحياتـك مـرة أخـرى، لـو أنـك كنـت أكثـر وفـاء وأقـل زيفًـا، لـو أنـك كنـت أكثـر إنسـانية ولـم تمـزق قلـب فتـاة كل ذنبهـا وثقـت بـك، لـو أنـك لم تغـرس أصابـع خذلانـك بقـوة فى صـدر فتـاة أحبتـك بطهـر العالمـين .. آهٍ آهٍ و آهٍ وليـت الآهـات تفيـد بشيء.





((أُختَ هارون ـ عذراء شفشاون))



(1)

انقضت فترة الخُطوبة التي سبقت الزواج الرسمي، أربعة شهورٍ كاملةٍ، كانت ثقيلة أيامها على قلبي، أثقل من أن تُحكى أو تُدَّون على الورق، كان ((رشيد)) يحضر كثيرًا لزيارتنا، ربما كل يوم، لم يكن يكتفي بالاتصال الهاتفي طوال الوقت مع ((جميلة))، بينما لم يكن ((نزار)) يسأل عني مُطلقًا، كأن خطبتنا لم تتم من الأساس، كنت بائسة، لا يُمكنني أن أصِف مدى شعوري بِالتَّقَزُّزِ تجاه جميع الأشياء في هذه الشهور وبخاصة الآونة الأخيرة.

مائة وعشرين يومًا كاملة و أنا أحيا في عزلة، معتقدة بأن في العزلة راحة للروح المنهكة وشفاء للقلب، لكن سرعان ما اكتشفت أن العزلة هي أكبر كذبة في محاولة الشفاء .. العزلة حالة امتلاء بالأشياء التي نهرب منها، فأنا لازلت ممتلئة به والقصة وإن انتهت في الظاهر إلَّا أنها بداخلى لم تزل ممتدة.

لكني أؤمن بأن الجفاء يقتل الحب، والحب لا يكفي للمغفرة، و أنا تعبت من اتخاذ دور الشجرة في هذه القصة، لقد سئمت كل هذا الوقوف الغير مجدي و أنا أدعي بأني لازلت أثمر بينما جذوري تتآكل قهرًا، و أخيرًا .. ها أنا أرفع رايات قلبي أمام كل هذه التعب ها أنا بكلي وقلبي أسقط، لقد صبرت أكثر مما بإمكان امرأة أن تصبر فها أنا أستسلم بعد



كل شعوري، لقد يئست انتظار أشياء كان يجب أن تأتي بتلقائية وحب من ذات نفسها، يئست أن أكون الطرف الذي يعطي و يحب أكثر و ينتظر دائمًا، تعبت أن أكون مَن تريد مرضاة العائلة والحبيب والأصدقاء رغم كل شيء وبكل شيء، تعبت من اختبارات العائلة، الحب والصبر وحدي و تعبت حرصي و تمسكي بمكانٍ باهتٍ في قلوبهم جميعًا ..

في حقيقة الأمر .. إننا نحتاج وطنًا لايتعب من إحتضاننا، أن نقول هذا الشخص هو عائلتنا، نتكيءُ عليهِ فيكون ملاذًا آمنًا عند التعب.. جميعنا في أحتاج أن يأتي أحدهم ويكمّل نقصنا، يرى في وجودنا حقيقةً عظيمةً، يُخرج منّا شيئًا جميلًا لم نتوقع أنه موجودٌ فينا، يكون مرآتنا التي لا تكذبَ علينا، نُشاركه أحاديثنا السخيفة وأحلامنا التافهة دون أن يستخف بنا، نتصل به عند الثالثة فجرًا فقط لنخبره أن شيئًا تافهًا يؤلمنا، يساعدنا في أي مأزق ونحن موقنين أنَّه لن يتركنا وحدنا. لكن العائلة .. العائلة لا تفهم ذلك.

أخبرتهم مرارًا أني فتاة طيبة، هشة للغاية تخاف أن تعيش وحيدة، تخاف أن تندم، فاختاروا جميعًا للأسف أن يتركوني خائفة وحيدة مع ندمي في عالم مرعب. والآن .. كان على العائلة وكل عائلة أن يُقيِّموا شخصية صغيرهم، ما يصلح له وما لا يصلح والطريقة الصحيحة للتعامل معه. لكنهم بديلًا عن ذلك اختاروا تجاهل رغباتي، اختاروا تحطيمي لدرجة لم أعد أدري شيئًا عن ماهيتي، لا أعرف كيف أصف ما أنا فيه، يكفي أن أرى في مرآتي ذلك التيه الذي تمادى فيّ وانتشر في ظِلّي وخطوط يدي وصوتي.. حتى صارني. أشعر بتوقف حياتي وربما تباطوء نبض قلبي ذاته. ما يمُرّ هو الوقت، أما أنا فأقف بخطوةٍ هزيلة طالها ما



يكفي من التعب والأسيّة.. أنا التي أشعر دائمًا أن الحياة ماراثون طويل، أو دربٌ لا آخِر له. لماذا؟ لأننا في الحقيقة لا نستريح؛ إننا في ركضٍ دائم خلف الأشياء. خلف كل ما نريده وما نحلم به وما لا نصل إليه، نبحث عن دهشةٍ لأيامنا، عن سعادة واحِدة حقيقيّة تنساب إلى يبَاس اللحظة والثواني وتتّسع في أيامنا بالندى والضوء.أقف تحديدًا على أطراف الكلام، الكثير ممّا لا أقوله ويخطو بِوقعه المُرّ على صدري لا أنجو منه ويحال سكينة الأزرق فيّ إلى قلقٍ وفزع.

إنني في هذه اللحظة تحديدًا أقف في المنتصف، وجهي مُلطّخ بالجمود وفي صوّتي حشودٌ تعزف كل أغاني الصبر والقوة، إنني متعبة لأنني واقفة بين عجزي عن المواربة وبين الصمت الذي ينفيني إلى أحَدّ جهاته وأكثرها وحشة، حيث لا قوة تكفي للتماهي مع المزيد من الصمت ولا مجاز بِوسعه أن يُصوّر فظاعة الأمر..أنا يُنهكني العوز، وفكرة أني لا أميل الى استجداء يدٍ تمسح ما تبقّى من المِلح على عيني قبل أن ينهمِر الى العدم، أو كتفٍ واحدة تسير معي لتكون مظلّتي في وجه الجفاف والخوف. أنا البطلة وأنا كل الجماهير في مسرح العالم المِوحِشْ، في كل مشاهد الحياة الرديئة التي تمتدّ فيّ بالوحشة وتسرق من روحي الزهو والأمل، لا شيء معي في رهبة الموقف، ولاشيء سوى أن في قلبي مِقبض باب وأن الوحدة هي كل ما انتهي إليه خلف عتبة بابه.

أقف في المنتصف، يتهادى عليّ التعب وأُقاصيه، لا نجمة تُضيء عتمة روحي، ولا طمأنة تنتشل وجهي الغارق في الخوف، لا شيء سوى موسيقى مأخوذة بالشجن كموسيقى حزينة للّحظة، وتنهيدة طويلة على مقاس العمر الذي جرى خلف الضياع، وليل يُبالغ في عتمته حتى تُشبه



تلك العتمة الكثيفة في صدري.، أقف في المنتصف أتساءلُ في نفسي لماذا على النساء أن يتظاهرن بأنهن شيء لسن عليه؟! لماذا علينا أن نتظاهر بالغباء في حين أننا لسنا غبيات؟! لماذا علينا أن نتظاهر بأننا عاجزات في حين أننا لسنا كذلك؟! لماذا علينا أن نتظاهر بالأسف في حين أنه ما من شيء لنأسف عليه.

إنني أتهاوى في هذه اللحظة، أظُنني فقدت إيماني، فقدت اليقين بأن هناك شيئًا من السلام الروحي قد يأتي، وليس هناك ما هو أسوأ من فقدان الإيمان وعدم اليقين. لقد صنعوا مني أرض بوَّرَ غير صالحة للزراعة من قبل الآخرين، وكأنني كنت شجرة لا تنبت إلَّا مرة واحدة استهلكوها تمامًا في هذه المرة ثم تركوني لا فائدة مني، مُستهلكة فاقدة الإيمان بذاتي، أشعر بأنني لم أعد صالحة لأي شيء في الحياة، لم يعد لدي ما أفعله سوى الاستسلام.

* * *

لازمتني هذه المشاعر السوداوية أيامًا، كان شعور التية يتسع داخل صدري، كانت ليالي شهر «تموز» مرتفعة الحرارة، عندما كنت جالسة عند حافة السرير أتصبب عرقًا وكأنني فوق صفيح ساخن، أتذكر أن غدًا حفل زفافي على ((نزار))، لقد انتهت قصة زين زين زين، ولم أعد فتاته بعد اليوم.

في رأسي كانت تلك الواقعة شديدة البؤس، فاللحظة التي تعي فيها أنك غير قادر أن تصبح الشخص الذي تحلم به وأنك خسرت معركتك الأهم في اختيار شريك تكمل معه باقي محطات حياتك هي اللحظة الأشد بؤسًا في مشوار العمر.



وكنت وقتها غاضبة من نفسي دائمًا، ألوم عليها، خاصة عندما تذكرت قول ((غراهام غرين)) : اليأس والبؤس هما الثمن الذي يدفعه المرء لسعيه وراء هدف يستحيل تحقيقه. لكن من قال إن التحاقي بكلية الفنون الجميلة كان هدفًا يستحيل تحقيقه ؟ من قال إن الارتباط بـ ((زين)) الذي يشبهني تمامًا في الروح، الصفات، وحتى الشكل هدفًا يستحيل تحقيقه؟ لا أعرف. أشعر أنني حمقاء في هذه اللحظة. أعتقد أنني كنت يائسة وعند اليأس يصبح المرء مُشتتًا ولا يستطيع اتخاذ قرار مناسب.

مساء اليوم التالي، نفس التوقيت تقريبًا، كنت جالسة عند حافة السرير، لكن هذه المرة قد تبدلت بعض الأشياء، فالسرير ليس لي، ليس في غرفتي التي شاركتها مع ((جميلة)) إنما سرير غرفة نوم ((نزار)) . داخل شقته القديمة في ((شارع العريش)) ، تلك التي تواجه شقتنا القديمة التي تركناها سابقًا بعد واقعة زواج ((زين)) وما تلاها من أحداث. لقد عُدت مجددًا للقرب منه، لاستنشاق رائحته عندما يمر من الشارع، لكنني عدت مرتدية فستانًا أبيض، امرأة لرجل آخر.

كان قد توجه نحو الحمام بينما كنت في هذه اللحظة تحديدًا لا أشبه سوى أسفنجة محتقنة بالكثير من الوجع كفيلة بعصرة واحدة لتنهال باكية. كنت حزينة، خائبة بشكلٍ موحش وينقصني البكاء .. و هذا ما حدث بالفعل عندما انفتح باب الغرفة وظهر أمامي وكان شبه عاريًا، نظر إلي مُبتسمًا، نظر داخل عيني مباشرةً وقد بدا كمن يتهيئ للحصول على جائزة لم يكن يتخيل حصوله عليها أو من يتهيئ للانقضاض على فريسة شهية لم يتذوق طعمها أبدًا.

هذه اللحظة تحديدًا شعرت بالخوف يسري بداخل أوردتي لا الدماء،



شعرت بأنني كطاولة قديمة كهلة الأرجل، مهشمة المقاومة، قررت أن تسقط، أن تتحرر من مهمة تراكم الفوضى على سطحها.

شعرت لحظتها أنَّ روحي انسحِبْ بِبُطء شديد من جميع أجزاء جسدي ثم تكورت بحجم كرة المضرب ثم هربت فزعةً، بسرعةٍ شديدةٍ، كمن يطاردها الموت إلى أقصى مكان مظلم داخل الجسد لتختبيء فيه، شعرت أن روحي سجينة، مرهقة، تبدو لي آثمة، مُعذبة، بطريقة مأساوية. فبكيت بحرقة للحظات قبل أن تسقط الطاولة مغشيًا عليها.

❊ ❊ ❊



(2)

((ما من شيء تدرك قسوته إلَّا ويجعلك رهين ألمِهِ،
وما من شيءٍ تدرك لينهُ إلا ويجعلك عارفًا بأمانه)).

كنت مُمددةً في الفراش فَاقِدةً الحِسَّ والحْرَكَة عندما فتحت عيني ببطء لأجدني في مكانٍ لم آلفه، تفقدت سقف الغرفة للحظات قبل أن ألتفت لليسار فتسقط عيني على ((نزار)) مُمددًا هو الآخر بالقرب مِني على نفس الفراش.

فزَّيتُ فزعةً مِن مكاني وأنا أتفقد الملابس على جسدي أطمئن إن كنت بخير، كنت لا أزال مرتديةً فستان الزفاف، وحتى الحذاء مايزال يطوق أقدامي، بينما كان ممددًا شبه عارٍ وبالقرب منه على المِنْضَدَةُ زجاجةٌ من الخمر ومطفأةٌ قد امتلأت عن آخرها ببقايا السجائر الملفوفة، أدركت لحظتها أنه نام مخمورًا، وأنني مازلت عذراء فتنفست الصعداء لثلاث مرات مُتتالية كانت الثالثة فيهم هي الأطول، وكأنني قد نجوت للتو من الغرق، لكن هذا لا يمحو قسوة إدراكي بما فعله الأهل بي وما فعلته بنفسي.

لقد تركني أستلقي فاقدةً للوعي، لم يهتم بأن يعيدني إلى وعيي، لم



يفكر إن كنت قد مُت أو أنني في خطر، وأنا .. أنا .. في الحقيقة أنا المخطئة وليس عليَّ أن أتساءل لماذا جعلوا مني ضحية لاستغلالهم؟ ليس هذا هو السؤال الذي عليَّ أن أسأله لنفسي، إن السؤال الحقيقي والذي أرفض مواجهته هو : لماذا جعلت نفسي فريسة لهم؟؟.

تلك اللحظة استشعرت بأنني في احتياجٍ شديدٍ لزيارة الحمام، ورغم معرفتي الجيدة لكل غرفة في الشقة التي سبق وزرتها مرارًا والتي تشبه تمامًا شقتنا القديمة المواجهة لها إلا أنني كنت تائهةً، ضائعةً، خائفةً، ولا أعرف أي اتجاه عليَّ أن أسلكه أو أضع فيه أقدامي، رغم ذلك استجمعت قوتي، تحركت صوب الباب، وضعت يدي بحرصٍ على المقبض .. فجأةً .. ارتفع صوت ما، ففزعت منه، فتحت الباب بسرعة وخرجت مهرولةً نحو الصالة التي تتوسط الشقة، اكتشفت بعدها أنه لم يكن سوى صوت تنبيه ساعة الحائط، يدق معلنًا تمام التاسعة صباحًا.

توقفت مكاني واتكأتُ بكلتا يديَّ على الحائط في محاولة مني لالتقاط بعض الأنفاس، حيث كانت أنفاسي متسارعة كمن تجري منذ يوم ولادتها ولم تصل بعد إلى أي وجهة، لحظتها شعرت بالخوف يتزايد أكثر، فوضعت وجهي بين كفي وبكيت.

***

قضيت بداخل الحمام ما يقرب من 45 دقيقة واقفة أسفل الماء، كانت المياة الباردة قد ساعدت على تهدئتي قليلًا، إلا أنني كنت ما أزال قلقة بشأن ((نزار))، ماذا بعد أن يستفيق، ماذا سوف يحدث.

بعد دقائق .. كنت قد انتهيت من الحمام وبدأت في ارتداء ملابسي بعد أن جففت جسدي من المياه جيدًا، عندها دق جرس الباب، ففزعت مرة أخرى، روحي انكمشت خوفًا بداخل الجسد.



أسرعت في الانتهاء من ارتداء ملابسي، ثم هرولت نحو باب الشقة، نظرت من العين السحرية لأرى من بالباب، اكتشفت أنها((فطوم)) يرافقها السيد ((جمال الدين))، ومن خلفهم تقف الجدة((أُم بربارة)).

عند رؤيتهم دقت في أذناي أصوات مؤثرٍ موسيقيٍ حزين للغاية، شعرت بسكونٍ أحاط بي يبدو كسكون المقابر. فتحت الباب .. كانت عيني لا تزال فيها آثار الدموع.. كان القلق والشحوب باديًا تمامًا في ملامح وجهي، كما أن بشرتي بدت من الخوف زرقاء قاتمة وكأن لون عيني قد سرى فيها، كانت لحظات اتسمت بالجمود.

لم يدخلا من الباب لحظة فتحه لهم، لم يبتسما في وجهي ولم نحتضن بعضنا البعض، إنما وقف ثلاثتنا نتبادل النظرات في ذهول، كانت لحظات مؤلمة بدا فيها العتاب المليء بالحسرة من ناحيتي بينما شرعت ((فطوم)) تنظر نحو الأرض في ضعفٍ واستسلامٍ للأمر الواقع وشيء من قلة الحيلة، أمَّا السيد ((جمال الدين)) فقد كانت عيناه ممتلئة بنظرات الألم والاستسلام، كان المرض قد استهلكه تمامًا.

بعد لحظاتٍ من الصمت تحركت السيدة ((فطوم)) بما تحمله في يدها من هدايا، مرت عن يساري ولحق بها السيد ((جمال الدين)) عن يميني دون أن ينطقا كلمةً واحدةً ودون أن أحرك أي ساكنًا مني، بينما أنزلت الجدة ((أُم بربارة)) صندوقًا صغيرًا كانت تحمله في يدها اليُسرى وحقيبة متوسطة الحجم كانت في يدها اليُمنى ثم احتضنتني بلطفٍ وقبلت رأسي.

***

انقضت ساعةً كاملةً، لم أتحدث فيها بضعُ كلمات، ربما فقط بعض الإجابات المقتضبة على والدتي، بينما كانوا يتحدثون مع ((أُم بربارة))



عن الحنين للشقة القديمة في ((شارع العريش)) والأيام التي قضوها فيهِ، كنت صامتةً، مكتفيةً فقط بنظرات العتاب إلى السيد ((جمال الدين)) بينما كان يتهرب مني.

شردت لحظات، أتخيل كيف كانت هذه المقابلة لو أنني في منزل ((زين))؟! اختنقت، هزمتني الدموع وقد اعترتني حالةً من الحزن الواضح في ملامحي، وبينما لمعت عيني بالدموع وقبل أن تتساقط على خدي خرج صوت المواء من شنطة الجدة ((أُم بربارة)) فانتبهتُ له ونظرت إليها مندهشةً غير مُصدقةٍ لما أسمع، ثم قلت بفرحةٍ كبيرةٍ :

- منـــكوووووشة !!

قلتها مُتفاجئةً وقد تبدلت ملامح وجهي من العبوس والحزن إلى الفرح والسرور، بينما فتحت ((أُم بربارة)) الصندوق الصغير الذي كان مايزال بجوارها كنت قد نزلت عن المقعد وجلست على الارض أستقبلها بالأحضان.

- علمت أنكِ ستفتقدينها فأتيتُ لكِ بها، وببعضٍ من الكتب التي تحبين أن تكون بقربك.

هذا ما قالته ((أُم بربارة)) بينما كنت أُقبِّلُ ((منكوشة))،التفتُ إليها ومددت يدي الأخرى أفتح حقيبة الكتب، وشرعت أتفقد عناوينها وأنا أتحسس الأغلفة كمن وَجَدت جزء منها كانت قد افتقدته.

كان لوقع المشهد على السيد ((جمال الدين)) وزوجته ((فطوم)) أثر كبير، لقد شعروا أخيرًا أنَّ ابنتهم ما تزال تحيا بروحٍ نقيةٍ وقد حكموا عليها بالنفي، فنظرا نحو بعضهما البعض نظراتٍ ذات مغزى تعني أنهم بالفعل نادمين، وأنهم قد أخطأوا في حقي، فلمعت عيناهما بالدموع.



حاولـت ((فطـوم)) فتـح موضـوع يشـغلنا عـن التفكـير في الاشـياء السـيئة، فبـدأت كجميـع الأمهـات تتحـدث عـن الأثـاث الجديـد في الشـقة ولـون السـتائر الجميلـة التـي حرصـت عـلى أختيارهـا بنفسـها عنـد فـرش الشـقة. لكـن خطتهـا لم تفلـح، فوجهـي لم تتغـير ملامحـه المليئـة بالعبـوث. عندهـا قالـت ((أم بربـارة))

– سـواء كان البيـت قـصرًا منيفًـا أو كوخًـا متواضعًـا، لا هنـاء أو راحـة إلَّا حيـث يتواجـد التفاهـم والتناغـم بـين مـن يسـكنونه، التفاهـم وحـده يصنـع السـعادة التـي تجعـل مـن البيـوت قصـورًا مهـما كانـت متناهيـة الصغـر والبسـاطة.

إبتسـمت لمـا قالتـه الخالـة، كانـت محقـة تمامًـا، لكـن كلامهـا أوجـع والديَّـا.. عندهـا خشـيت أن أحملهـم فـوق طاقتهـم، لأنهـم في نهايـة الأمـر ورغـم كل شيء والـديَّ، هُـم مِنـي وأنـا منهـم. نهضـت عـن الأرض، قمـت بتقبيـل رأس السـيدة ((أُم بربـارة)) قبـل أن ألتفـت إليهـم مواريـةً حـزني، ثـم داعبتهـم بابتسـامةٍ مُصطنعـةٍ وأنـا أسـألهم :

– لماذا لم تزوجوني إلى أُم بربارة؟!.

على الأقل هي تفهم ما الذي أحبه وما الذي يسعد قلبي.

تبدلـت ملامحهـم مـن الجمـود إلى ابتسـامة لكنهـا بـدت بـاردة، تحجـرت الدمـوع في الأعـين جميعهـا، وقبـل أن يعلقـوا بكلمـة، انفتـح بـاب غرفـة النـوم، خـرج ((نـزار))، وكان مايـزال شـبه عاريًـا، ممسـكًا في يسـراه مـا يدخنـه، تفـوح منـهُ رائحـة المخـدرات، وفي يمنـاه مـا تبقـى مـن زجاجـة الخمـر التـي كانـت إلى جـواره وهـو نائـم.

لم يُلـقِ التحيـة، أعتقـده لم يكـن قـادرًا عـلى رفـع صوتـه، اكتفـى فقـط بالإشـارة بيـده إلينـا بينـما اسـتند بيـده الأخـرى عـلى الجـدار وأكمـل في وجهتـهِ نحـو الحـمام.



لحظتها شعرت بالقرف منه ومن نفسي ومن الدنيا بأكملها، كدت أبكي كما حدث في اللحظات الأولى لإدراكي أمر أنني تزوجته وأصبحت معه بداخل شقةٍ واحدةٍ.

نظرت إلى والدي، ولديّ رغبة شديدة في سؤاله:

- هل هذا من رأيت الأمان والاطمئنان في أن أكون معهُ؟!،

هل هذا من ارتضيت أن تزوجه هبة الله؟!.

ثم بدلت زاوية النظر، وجهة وجهي إلى السيدة ((فطوم)) التي تهربت من مواجهتي بالنظر تجاه الأرض، شعرت وقتها برغبةٍ في البكاء.. البُكاء الذي لا يجدي.

***

مرت ليلتنا الأولى بسلامٍ دون أن يمسسني، بينما في الثانية اصطنعت حجةً واهيةً فمرت أيضًا بسلام، ولحقت بها بعض الحُجج في الثالثة والرابعة، ساعدني في ذلك خروجه المتكرر كل يومٍ عند استفاقتهُ من النوم منتصف النهار ثم عودته مخمورًا آخر الليل.

***

اليوم الخامس - الحادية عشر صباحًا : استفاق من نومه وكان كالثور الهائج، يريدني في الفراش، لكنني رفضته بكل قوتي، ومنعته عني، دخلت موجة بكاءٍ هستيريةٍ وأخبرته لو لمسني سوف أقتل نفسي فابتعد عني وكان غاضبًا.

بعد ساعةٍ .. خرج من الشقة كعادة كل يوم، لكن هذه المرة توجه أولًا نحو شقة السيدة ((فطوم))، قصَّ عليها الأمر بأكمله ثم رحل إلى حيث يذهب.

***



بعد ما يقرب من الساعة .. أتت السيدة ((فطوم))، جلست إلى جواري، أخبرتني بأن الأمر كالموت وقد نفذ أمر الله، قالت إنها تعلم الآن جيدًا أنهم أخطأوا وأنني لم أكن أستحق ما ألمَّ بي، لكن غدًا يصلح الله حال زوجكِ، وأنَّ ما أفعله الآن حرام عند الله لأنه زوجي وهذه حقوقه.

ضحكتُ ساخرةً من حديثها .. لم يكن استهزاءً بها إنما استهزاءً بالثقافة والحجج الواهية، لا أعرف في الحقيقة من الذي جعلهم يصدقون أن الزواج دون رغبةٍ تامةٍ من طرفيهِ يكون زواجًا من الأساس ؟!، أو أن الزواج دون حب يصلح، أقسم بأن في الأمر مفسدةً عظيمةً.

❋❋❋

بعد عودتها لشقتها، تشاجرتْ مع زوجها السيد ((جمال الدين)) وأخبرته أن البنت تموت، وجهها مُكْفَهِرّ بشدة، قاتم السواد مائل إلى الزرقة من شدة البُكاء والفزع، وبكت ((فطوم))، بكت كما لم تبكِ من قبل حتى دخلت في غيبوبة سكر مفاجأة.

اتصل عليَّ السيد ((جمال الدين))، أخبرني بما حدث وأنه طلب لها طبيبة ويستحسن أن أحضر الآن لأكون بالقرب منها فتطمئن.

أغلقت معه الاتصال ثم اتصلت بـ ((نزار)) أطلب منه الإذن بالذهاب إلى منزل عمه لأطمئن على والدتي، لكنه لم يجب، فأعدت الاتصال مرة تلو الأخرى وفي كل مرة كان يرفض الاتصال.

انتظرت ما يقرب من نصف ساعة ربما أنه مشغولٌ وسوف ينتهي مما يفعله ويتصل بي، لكن شيئًا من هذا لم يحدث.

❋❋❋



قضيت برفقتها بضع ساعاتٍ حتى استعادت وعيها، كانت ((جميلة)) هي الأُخرى قد حضرت برفقة ((رشيد)) الذي قام بإيصالها ولم يطُل بقاؤهُ معنا أكثر من دقائق معدودة قبل أن يستئذن الرحيل بحُجة تركنا على حريتنا وأن لديهِ عمل، لم يأخذ في الحسبان أننا في باديء الأمر وآخره بلا رجُل، خاصة أن السيد ((جمال الدين)) قد وهن بفعل المرض الخبيث الذي أصابه، لكن على أية حالٍ من لم يكن أصيلًا في البداية لن يتغير ليصبح فجأة أصيلًا في النهاية.

❋❋❋

في المساء .. كنت جالسة عند حافة السرير بالقرب من السيدة ((فطوم))التي استفاقت من غيبوبتها واستعادت وعيها بسلام بعد أن أعاد لها الطبيب ببعض الأدوية منسوب السكر في الدم لمعدلاته الطبيعية، وبينما كانت ((جميلة)) تقف أمام المرآة تقوم بتعديل زينتها ووضع المزيد من أدوات التجميل استعدادًا لعودة ((رشيد)) كي يصطحبها نحو منزلهم، وكان السيد ((جمال الدين)) جالسًا على كرسي متحرك بالقرب من باب الغرفة يكتفي بالصمت وتأمل المكان وما يدور فيه، شعرت وقتها بأنَّ عليَّ الانسحاب ومغادرة المكان تجاه المنفى.

التفتت أنظر نحو ساعة الحائط المعلقة على الجدار بالقرب من النافذة المطلة على الشارع وكانت عقاربها قد توقفت عند العاشرة تمامًا، و حتى هذه الساعة كان ((نزار)) لا يجيب على الاتصالات الموجهة إليه، حتى الرسائل القصيرة بقيت دون رد رغم ظهور إشعار بأنه قد تم التسليم، عندها اصطنعت ضحكة بدا فيها الزيف أكثر من الحقيقة ثم قلت :

- أُف .. تأخرتُ على ((نزار)) ..

سأرحل وسوف أطمئن عليكم بالاتصال وإن استطعت المجيء غدًا لن أتأخر.

نهضت عن الفراش .. قمت بوضع قبلة على جبين السيدة ((فطوم)) قبل أن أخطوا خطوتين باتجاه السيد ((جمال الدين)) لأمسك بيده وأضع قبلتين متتاليتين على ظهرها وأنا أخبره :

- أرجوك .. كن بخير دائمًا.

ثم وأنا أفتح باب الغرفة قلت لجميلة :

- جميلة ..أرجوكي كوني بخير.

❋❋❋

أغلقت باب الشقة من خلفي ثم بدا لي وكأنه كان إذنًا لدموعي بالانهمار، ففي لحظةٍ واحدةٍ لمعت عيني بالدموع التي حضرت في طرفة عينٍ وكأنها كانت تنتظر فقط إغلاق الباب، وقفت متسمرةً أمام الباب لثوانٍ معدودةٍ تمالكت فيها نفسي ثم مسحت دموعي التي وصلت حتى أطراف شفاتي فشعرت بأنها أَمَرُّ مِنَ الحَنْظَلِ، بعدها تحركت خطواتٍ قليلةٍ، لم تكن باتجاه المصعد إنما نحو السُلَّم وكأنني أرغب في التأخر أو التمسك بكل لحظة أقضيها بعيدًا عمَّا ينتظرني في شقة العريش، خطوت ببطءٍ على السلالم، كان الحنين يتملكني بشدة فكل درجة هنا لي معها ذكريات لا يمكن نسيانها، في اللحظة ذاتها كان يتخلل الشعور بالحنين شعوربالحنق الشديد من ((نزار)) كونه لم يهتم باتصالاتي، فحتى لو كان بيننا خلافٌ ما فأنا مازلت ابنة عمهِ قبل أن أكون زوجتهُ، ثم أنه لشيءٍ كارثي يشبه الكابوس الأسود اكتشاف أنك ارتبطت بشخصٍ عديم المسئولية لا يعرف القانون الأول في الاحتواء وهو «ليس مهمًا أن تطيل البقاء بقدر أهمية أن تُجيد الحضور».



عند المنحدر الأخير من السُلّم والمؤدي مباشرة إلى الشارع انقبض قلبي، شعرت بدقاته تتباطء، وكانت المفاجأة، صوبت نظري للأسفل فوجدتهُ أمامي مباشرة، كان حاملًا في يده حقيبة صغيرة بدا لي من النظرة الأولى أنها تحتوي على بعض الأدوية، كان ينظر أمام أقدامه مباشرة، عادة ما يفعل ذلك عندما يسمع صوت خطوات أقدام شخصٍ ما تقترب منه و يميز بأنها خطواتٍ لامرأة.

وقعت عيني عليه أولًا وقد كان متوجهًا نحو باب المصعد، تسمرت مكاني، انتفض قلبي وتسارعت دقاته، اجتاحت شراييني موجات من الإدرينالين، لحظتها رفع عينيه هو الآخر ببطء، على استحياء، ليراني أمامه.

لثوانٍ معدودة وقفنا نتأمل بعضنا، البعض بعدها تَشَبَّثَت بحقيبة يدي جيدًا وكأنني أتقوى بها ثم أكملت بخطىً بطيئةٍ نزول الدرجات الأخيرة من السُلّم، خطوت بأقدامي تجاهه حتى أصبحت أمامه مباشرة تفصلنا بضع سنتيمترات من المسافة وآلاف الأميال من الوجع والخيبة.

نظرت في عينيه الزرقاء مباشرةً وقد كانت تبدو شاحبةً هي الأخرى كعيني تمامًا، شعرت بالشتات أمام عينيه، أردت صفعه بقوةٍ شديدةٍ ورغبتُ أيضًا احتضانه بقوةٍ أكبر، أردت الحفاظ على العادات والتقاليد والقيم، ورغبت استعادة نفسي في أحضانهِ باستنشاق رائحته، وددت الصراخ والصراخ حتى ينخلع قلبي، لكن صمته أصابني بالجمود فصمتت مثله تمامًا، تصنعت القوة وافتعلت الصمود أمامه .. فقال مُرتبكًا :

- السيدة ((فطوم)) مريضة للغاية، كانوا قد جلبوا لها الطبيب،((أُم برباره)) قالت هذا.



- ...

- هل هي بخير الآن؟؟

- ....

- هبة الله، لماذا لا تجيبيني؟

- ....

- على أية حال لقد أحضرت لها بعضًا من أدوية السُكر المستوردة وجهازٍ حديثٍ لقياس نسبته في الدم، أردت فقط أن أوصلهم إليها وأطمئن أنها بخير، ولا تحتاج لشيء.

فشلت في تصنع القوة أكثر من ذلك، لم يعد صمودي يجدي شيئًا أمامه، فأغمضت عيني لثوانٍ في محاولة بائسة لتهدئة نفسي واستنشاق بعضًا من الأُكسجين، ثم فتحت عيني مجددًا فسالت منها الدموع وأنا أنظر إليهِ في ودٍ وحب كالنظرة الأولى التي نظرها «يعقوب ليوسف» عليهما السلام لحظة عودته إليه.

مد يده، مسح الدموع عن جانبي وجهي دون أن ينطق بكلمةٍ واحدةٍ، لحظتها كانت هناك أصوات لأقدام شخص ما يقترب، وكان الوقت متأخرًا ولا يجب أن يرانا أحد في وضع كهذا، فاستجمعت قوتي ونطقت:

- دمت لي نبضًا يرافقني حد الفناء، حد الفناء يا ((زين)).

***

الثانية عشر ليلًا: لمدة قلت عن الـ 10 دقائق وقفت تحت الماء، فعلت ما توجب عليَّ فعله بسرعةٍ، كنت خائفة وقلقة مِن أن يعود وأنا بداخل الحمام، من شدة القلق كنت قد أخذت معي ملابسي كاملة.

خرجت من الحمام، توقفت في الصالة بمنتصف الشقة، لم أكن أعرف



لأي مكانٍ أتوجه، وأين سيكون المبيت هذه الليلة؟، أتذكر ما حدث في الصباح وأخشى ما قد يترتب عليهِ عند عودته، أخشى أنه قد يحاول الحصول على مُبتغاه بالقوة والإجبار.

في النهاية لم أجد مكانًا أذهب إليه سوى غرفة النوم، فتوجهت إليها، استلقيت في الفراش متوجسة الخوف أنتظر عودته حتى ننهي أمر منعه عن لمسي وأنا في وعيي، انتظرته ساعة تلو الأخرى حتى حانت صلاة الفجر ولم يكن قد أتى، فأيقنت لحظتها بأنه سيبيت هذه الليلة في الخارج ولن يعود، وقد تسبب هذا الشعور ببث شيء من الأمان والسكينة داخل روحي، فمددت جسدي وأخذت شيئًا من الراحة في الاستلقاء بالفراش ثم شردت أتخيل ((زين)) حتى غفوت دون شعور مني.

❊❊❊



(3)

اليوم السادس - منتصف النهار .. كانت نَغَمَه الهاتف المُخصصة لـ ((جميلة)) تُعاد رنتها للمرة الثالثة على التوالي، عندها فتحت باب الحمام وخرجت مِنهُ مُهرولةً بأتجاه الهاتف الموجود على المنضدة في الصالة بمنتصف الشقة، كنت واضعةً فوطة فوق رأسي أُجفِفُ بها المياه المبلل بها شعري، بينما قطراتٌ مِن الماء الدافيء تتدلى على جسدي العاري إلَّا مِن قطعةٍ صغيرةٍ مصنوعةٍ مِن القطن الأبيض كانت تتوق أسفل خصري وقد كانت مُنخفضةً عن موضعها، كنت ما أزال أُكمل في ارتدائها، أمسكت الهاتف باليد اليسرى بينما اليمنى كانت مُمسكة بطرف القطعة القطنية ترفعها لأعلى في محاولةٍ مني لأكمال ارتداءها، استقبلتُ الاتصال، وقبل أن أنطق بكلمةٍ واحدةٍ إذا بباب الشقة ينفتح و يدخل مِنهُ ((نزار)).

صعقت، شُلَّتْ يدي، وتجمدت الدماء في داخل شراييني، أغلقت الاتصال في وجه ((جميلة)) وقد ارتعشت يدي بشدةٍ لدرجة أنَّ الهاتف قد سقط مني على الأرض، للحظة فكرت في الهروب سريعًا باتجاه أي غرفة أُخرى، لكن قدماي خذلتني، تسمرتا في مكانهما، وتذكرت نظرية الكلب : «لا تهرب من الكلب لأنه سيطاردك، ثباتك أمامه قد يجعله يتركك في سلام»، لكن شيئًا مِن هذا لم يحدث، كنت أرى انعكاس نفسي في المرآة، فتاة بيضاء كاللبن، جعلت المياة الساخنة جسدها مصبوغًا باللون الأحمر،



تمتلك صدرًا ناهضًا تمامًا يشتهيه كل رجل من فرط جماله حتى لو كان لا يمتلك شهوة، جسدًا مُقسمة تضاريسهُ لدرجةٍ تسلب العقل، كنت أتأملني في المرآه فيزداد قلقي.

خطا باتجاهي وهو يدقق النظر في قطعة الملابس القطنية الصغيرة أسفل خصري ويتفقد جسدي المبلل بالماء، كنت أتنفس بصعوبة، أشعر أن قلبي سيتوقف مع كل خطوةٍ يخطوها مُقتربًا مِني، إلى أن وصل إليَّ، ابتسم في خبثٍ وهو يرفعُ كلتا يديهِ ويضعهُما على رقبتي، كانت عيناهُ مُمتلئةً بنظرات الاشتهاء وهو يقوم بدفعي برفقٍ إلى الخلف، رضخت له خوفًا مِنهُ وتراجعت أمامهُ كما شاء حتى التصقت مؤخرة ظهري العارية بالحائط.

اقترب بوجهه مِن رقبتي، بدأ يستنشق رائحة جسدي وشعري وهو يمسد بيده اليسرى على شعري، حرك أطراف أصابع يُمناه يمسح بها بعضًا من قطرات الماء المتبقية أعلى كتفي الأيمن ثم وضع شفتيهِ على كتفي الأيسر، قَبَلهُ بِشهوةٍ، ثم ترك بعضًا مِن ريق شفتيهِ عليه، ثم فجأةً وبشيء مِن الخشونة أنزل يديه الاثنين أمسك بكلتا يديَّ مِن المعصم وثبتهما على الحائط، كبلني بالقوة تحسُبًا للمقاومة، حاولت المقاومة لكن من دون جدوى، عندها تهور فيما يفعله، فخُيَّل له لحظتها أنني استسلمت، وهذا بالفعل ما جعلته يشعر بهِ، فلمَّا وجدني مُستسلمةً تمامًا نظر داخل عيني للحظةٍ وقرر الحصول على ما يبتغيه، فصرخت، صرخت بفزعٍ وبكيت بفزعٍ أكبر كما لو أنني رأيتُ ملك الموت يتجسد أمامي وقد جاء ليقبض روحي، لحظتها تزايدت ارتعاشة جسدي وأطرافي مِن شدة الخوف، تسبب ذلك بأنني فقدت اتزاني وقدرتي على الوقوف، فتركت جسدي يتهاوى نحو الأرض، تركني أسقط أرضًا وقد



اعترته نظرة استغراب مع القرف، تراجع خطوتين للخلف وهو ينظر إليَّ بغضبٍ وكأنني قد صفعتهُ على وجهه، وبدت في ملامحه علامات الغضب الشديد مع الحيرة.

أشاحَ عَنْي وَجْهَهُ دون أن يتحركَ مِن مكانه لبضع ثوانٍ قليلةٍ قبل أن يلتفت إليَّ مُجدَّدًا وقد بدت في عينيه نظرةً ذات مغزى لم أفهم معناها، بعدها انصرف باتجاه غرفة النوم وتركني على الأرض مهزومة أبكي.

***

لم يطل بقاؤه داخل الغرفة سوى دقائقٍ معدودةٍ، خرج بعدها وقد بدل ملابسه، وكنت ما أزال جالسةً على الأرض أحتضن نفسي، مُستسلمة، أرتجف وغير قادرة على النهوض، كنت أبكي بأنفاسٍ متقطعةٍ، بكاء ضعفٍ وخيبةٍ وشيءٍ من العجز.

كان الهاتف على الأرض مايزال ترتفع منه نغمة الرنين المُخصصة لـ ((جميلة))، توجه نحو الهاتف، ثم وقف ينظر إليَّ باستهجان، بعدها أزاحه تجاهي بقدمه وهو ينظر إليَّ مُجدَّدًا لكن هذه المرة كانت نظرته مليئة بالغضب وقد بدا في عينيه شيئًا من العزم على الانتقام، كان يبدو مُستاءً للغاية مما فعلته، ولكن لا شيء في يدي، فـ أنا لا أعتبره زوجًا لي حتى هذه اللحظة وغير قادرة على تقبله، لا أكرهه لكننا لسنا مُنسجمين ومعظم العلاقات بين الناس تفسد ليس بسبب الكراهية إنَّما بسبب الافتقار إلى الانسجام.

خرج من باب الشقة وأغلقه خلفه بقوةٍ شديدةٍ، عندها فقط تنفست الصعداء، مددت يدي وأمسكت بالهاتف، كانت ((جميلة)) تتصل ربما تقريبا للمرة العاشرة فأجبتها برقةٍ مفتعلة، وتصنعت شيئًا من الإرهاق.



سألتني عن سبب تأخري في الرد عليها وأخبرتها بأنني كنت في الحمام ولم أسمعها، فعادت تسألني إن كنت سأقابلها ونذهب سويًا إلى السيدة ((فطوم))، وأجبتها بكلماتٍ مقتضبةٍ مفادها أنني لم أنم جيدًا ومازلت مرهقة للغاية، لذا عليها أن تذهب وحدها وأنا ربما الحقُ بها عند المساء.

لم أكُن أكذب عليها عند إخبارها بإنني مُرهقة، فأنا لم أكن قد نمت جيدًا منذ خمسة أيامٍ مضت بسبب الخوف والقلق والتوتر، كما أني بكيت كثيرًا، بالإضافة إلى الإرهاق النفسي الذي أُعانيه وهو أشد بكثير من الإرهاق الجسدي، لذلك أغلقت الاتصال معها وتوجهت إلى الحمام، أكملت ارتداء ملابسي الداخلية ثم توجهت نحو غرفة النوم مباشرة.

كانت الحرارة مرتفعة والرطوبة أيضًا، وكنت أعلم بأن ((نزار)) لن يعود حتى منتصف الليل كعادة كل يوم، وأنا لن أنام كل هذه الساعات، لذا اكتفيت بارتداء شيءٍ خفيفٍ وقصير فوق جسدي حتى لا أُعاني من شدة الحرارة، ثم ألقيت بنفسي في الفراش لأفقد وعيي في ثوانٍ قليلة.

❋❋❋



(4)

اليوم السادس - بعد منتصف الليل ..كانت رَائِحَة عطره المميزة قد انْتَشَرَتْ، سبقته إلى غرفة نومي، لم أكن أدري إن كان بالخارج أمام باب الشقة أم أنه قد تجاوز الباب وأصبح بالداخل فقد كانت رائحة عطره قوية للغاية، لكن التساؤل لم يسْتَمَرَّ كثيرًا فما إن فتحت عيني ورفعت رأسي قليلًا عن الوسادة لأتأكد إذا بباب غرفة النوم ينفتح ويدخل منه ((زين)) مباشرة قبل أن يغلقه من خلفه.

كنت ممددةً شبه عارية، يختفي جزء من جسدي أسفل قميص نومٍ أسودٍ رقيقٍ وقصير للغاية، أدناه قطعة ملابس مثيرة تظهر أكثر مما تخفيه أسفل الخَصْر.

تلاقت أعيننا بشغف، ابتسمنا سويًا ابتسامة كانت قد غابت عنا لوقت طويل، خطا مقتربًا وهو مايزال يبتسم في رقة وعذوبة، جلس عند حافة السرير، لم ينطق أي مِنَّا بكلمة واحدة، اكتفينا فقط بالنظر في عيني بعضنا البعض للحظات، بعد ثوانٍ من الثبات والصمت كان الأدرينالين قد تدفق بغزارة في كلا الجسدين، وبدأت الرغبة تتأجج، كان جسدي ساخن للغاية وكأنه محموم، شبه مُبتل من العرق، وكانت شفاتي قد طالها البلل من الريق، فهبط بشفتيه نحو شفتاي وانقض عليهما بشغف وبدأ كل منا يسارع في الارتواء من رَيْق الآخر، وبينما تعلقت بكلتا يديا



في عنقه زحفت كلتا يديه على جسدي فواحدة تتجول بلطفٍ على كلتا نهدي والأُخرى تتحرك ببطءٍ حركةٍ دائريةٍ على خصري، وكانت أنفاسنا تعلو وتعلو مع اشتعال الرغبة في جسدينا، وبينما يرتفع صوت أنفاسي المدموجة بالآهات كانت أنفاسه ترتفع هي الأخرى، وكان العرق قد بدأ يتصبب مِن كلانا فيختلط بعضه ببعض، تمنيت للحظة لو يجن جنونه أكثر ويزيد فيما يفعله وهو ما كان، زاد من حركة شفاههُ على شفاهي، وسحب طَّرَفُ قميص النوم للأعلى مُعريًا بذلك جسدي، جعله فوق خصري تمامًا ثم أبعد شفتيهِ عن شفاتي ونظر في عيني مباشرة، شعرت بأعصابي قد ارتخت تمامًا فأغمضت عيني وتأوهت بغنج.. ثم ..

تبدلت رائحة عطره المميزة لرائحة عَفِّنٌة، نتنة للغاية، بدا فيها أثر الخمرة والمخدرات لدرجة لا تُحتمل، ثم شعرت بقبضةٍ قاسيةٍ تمسك بضَفِيرَة شعري من الخلف، آلمتني المسكة للغاية، فأستفقت، فتحت عيني لأكتشف أنني كنت نائمة أحلم بـ ((زين)) بينما الآن أنا واعية تمامًا وقد وقعتُ في يد ((نزار)) الذي عاد لتوِّه من الخارج.

كانت جديلات شعري بداخل قبضة يده اليسرى مُمسكًا بها بقوةٍ شديدةٍ بينما يده اليمنى تنتهك أنوثتي، تتجول بكل قسوة بين صدري وخصري الذي قام بتعريتهم بالقوة، كانت عيناه حمراء تبدو كعيني شيطان.

صرخت خوفًا، فلطمني بقوة على وجهي ونزل بشفاته كالمجنون يقبل كل جزءٍ يقابله من جسدي، فبكيت وارتجفت، ثم بدأت في مقاومته، فلطمني بقوة على وجهي مرة أُخرى فازداد بكائي من شدة اللطمة وازدادت مع البكاء مقاومتي، فمد يده وانتزع ملابسي بالقوة، كانت الملابس مبللة بالعرق وتفوح منها رائحة الشهوة، قام بوضعها بين



أسناني بداخل فمي ليمنع بها صراخي، ثم قام بتكبيل كِلتا يديَّ خلف رأسي بيد واحدة مستخدمًا فارق القوة لديه ثم مد يده الأُخرى وجعل إصبعيه يغوصا في البلل المحرم عليه مرة تلو الأُخرى حتى استسلمت لهُ تمامًا وتحول البكاء إلى آهات ما بين لذة لحظيةٍ وألمٍ وحسرة طوال الوقت، قام باغتصابي مرةٍ بعد مرة حتى وقتٍ متأخرٍ من الليل، وكل ذلك بدون أدنى مقاومة مني، إلَّا من بعض الدموع التي كنت أذرفها كلما تذكرت ما وصلت إليه حياتي التعيسة.

***

في الربع الأخير من اللَّيل غفا، وبقيت وحدي متيقظة بجواره حتى أشرقت الشمس فسمعت صوت الزحام ينتشر في الشارع، كان نائمًا بالقرب مني وقد بدا لي كجثة متعفنة، نتنة تفوح منها رائحة لا تُطاق بعد أن امتزجت رائحة الخمر والدخان برائحة الشهوة والعرق، بينما كنت أستشعر ألمًا لا يحتمل، كان هناك نزيفًا من الدماء على غير عادة ما يحدث، يبدو أنني تعرضت لتهتكٍ شديدٍ نتيجة ما فعله، كنت أحتاج لزيارة الطبيبة لأطمئن على ما أشعر به.

حاولت إفاقته مرارًا لكن بلا جدوى، كان فاقدًا للوعي تمامًا، فاتصلت على ((جميلة))، أخبرتها أنني أنزف، وطلبت منها أن تأتيني على الفور بدون أن تخبر أحدًا سوى زوجها إن أرادت، ولم أزودها بأي معلومات أخرى عن سبب النزيف.

***

كانت الطبيبة صغيرة السن بدت لي في نهاية العشرينيات من عمرها، يبدو أنها قد تخرجت حديثًا قبل عام أو اثنين على الأكثر، وقفتْ في نافذة الغرفة بردائها الأبيض الزاهي وعينيها العسليتين الواسعة وهي تطلع بهما

إلى السماء، بدت وكأنها لا تحتمل طلبنا لها بألا تتصل بالشرطة تخبرهم بالحالة التي وجدتني عليها، كانت تزفر غضبًا عندما التفتت وسألت في ضيق وهي لا تصدق ما أخبرناها به :

- هل حقًا هو ابن عمك ؟!

- نعم !!

- كيف لامرأةٍ بهذا القدر من الجمال والثقافة البادية في تعاملك أن تُصبح زوجةً لشخصٍ مليء بالدناء وحب الشهوة كالحيوانات لدرجة أن يصيبك بهذه التهتكات.

تدخلت ((جميلة)) قائلة :

- إنه النصيب، هل نعترض على النصيب ؟!

علقت الطبيبة متهكمة :

- النَّصِيب النَّصِيب النَّصِيب..

كل خطأ نورط أنفسنا فيه نلقي بهِ على النصيب.

- ألا تؤمنين بالنصيب أيتها الطبيبة ؟!

- بلى.. أؤمن بأن كل شيءٍ في هذه الحياة مُقدّر، وكل خطوةٍ نخطوها مكتوبةٍ في اللوح المحفوظ، لكنها كتبت من باب أن الله علام الغيوب «يعلم ما توسوس به نفسك»، وليس من باب الفرض على المرء، إن البشر مخيرون يا عزيزتي في أكثرية الأفعال التي يأتون بها، وإلّا فلما سيحاسبنا الله إن كان قد حدد لنا مُسبقًا ما نفعله الآن.

ولم قال - سُبحانه- أيضًا في سورة الحج : ((أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)).

تدخلت بصوتٍ خافتٍ مُتضامنة وأؤكد كلام الطبيبة :

- ((اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)).

هكذا يقول - سبحانه- في سورة الإسراء.

في هذه الأثناء هزمتني بعض الدموع التي ترقرقت أسفل عيني، شعرت أنني قد ورطت نفسي في شيءٍ لا أطيق تحمله، فإن كان هذا حالي في الإسبوع الأول بعد الزواج فكيف سيكون بقية العمر!!.

تدخلت ((جميلة)) قائلة :

- على أية حال لقد أصبحا زوجين الآن، ومع العِشرة سوف يأتي الحب.

تهكمت الطبيبة مجددًا قائلة :

- من الممكن أن تحترم شخصًا لا تحبه لكن من المستحيل أن تحب شخصًا لا تحترمه، ولا يمكن لشقيقتكِ أن تحترم شخصًا تعامل معها بهذه الطريقة الحيوانية، إن المرأة لا تنسى أو تغفر لشخصٍ قد غصبها على شيء.

قلت مستهزءة بكلام ((جميلة)) :

- حب !! أي حب !!.

وعلقت الطبيبة مجددًا :

- أعرف تمامًا هذه الحالة ..يقول ((جوستاف لانتييه)) : ((إن المرأة لا تهزأ من الحب ولا تسخر من الوفاء إلا بعد أن يخيب رجل ما آمالها)).

❋❋❋

بعد مرور أسبوعين كاملين، كانت ((جميلة)) قد حافظت على الأمر سرًا بيننا، فقد أكدتُ عليها ألَّا تخبر والدينا خشية أن أرهقهما بأمري،



يكفيهم ما حلَّ عليهم وما هما فيهِ، كنت قد تعافيت قليلًا من التهتكات ولم يكن ((نزار)) يقترب مني احترامًا لحالتي الصحية المتأخرة بسببه.

مساء هذه الليلة عاد مخمورًا أكثر مِن كل مرة، كان ينام في غرفة منفصلة منذ ما حدث، وكنت نائمة في غرفتي شبه عارية إلَّا من قطع ملابس صغيرة يعلوها قميص قصير، عندما دخل ورآني لم يستطع كَبَحُ جِمَاح شهوته، فأعاد فعلته واغتصبني بشدة، استعمل كل الطرق السادية لإخضاعي له وإشباع غريزته، ثم في الأيام التالية أصبح الأمر عادة كل يوم، أنا أرفضه وهو يستعمل فارق القوة ويغتصبني.

لا أعرف لماذا تحملت كل هذا ؟!، لا أعرف هل أحببت الأمر وأصبحتُ أستلذ باغتصابه لي ولكنني أكذب على نفسي وأتصنع الرفض؟! أم أن المرأة الحقيقية لا يمكنها أن تتقبل لمسة من رجل لا تحبه؟! كل ما أعرفه وموقنة منه أنه لا شيء يمحو شخصيتك أكثر من الزمن، وأنني في الحقيقة لم أعد كما كنت.

***

بعد ثلاثة شهور .. كانت ((جميلة)) برفقة والدينا قد أتوا جميعًا لزيارتي، لم أكن بخير وقتها فقد تعرضت لبعض الآلام في القدم مما جعلني لا أستطيع المشي بطريقة صحيحة، كنت أتمايل كلما تحركت، وقد لاحظت ((جميلة)) الأمر فظنت أن ((نزار)) قد أعاد الأمر واغتصبني مجدَّدًا وهذه الإصابة ناتجة عن نفس الأمر.

كان السيد ((جمال الدين)) يتطلَّع إليَّ طوال الجلسة ويدقق النظر فيَّ، وكأن لسان حاله يتساءل : أين ((منة الله)) ؟!، لا الوجه نفس الوجه ولا الهيئة نفس الهيئة، ولا طريقة الكلام نفسها، العيون شاحبة، الجسد نحيل، وقد استظل السواد تحت عينيَّ، استنشقت الأرق، أصبحت من



ذوات الملامح الباهتة، والابتسامة الباردة، صدري ضيق، وروحي تُخلع شيئًا فشيئًا مع كل تنهيدة.

يتساءل .. أين تلك المرنة، الضاحكة، صاحبة الابتسامة التي لا تنطفيء، لم يكن مُدركًا أن المرأة تنطفيء، يموت شغفها، وتفارق ابتسامتها الحياة ما إن تحيا في ظل رجل لا يشبهها، لا يعرف كيف يسلب حزنها، المرأة تنطفيء من رجل لا يجيد الحضور، يخنقها كل ليلة برائحة الخمر والدخان، يعيش دور الآمر الناهي، إن المرأة قد تعيش إن تزوجت من رجل لا تحبه لكنه يحترمها ويفهم احتياجاتها، لكنها تموت في اللحظة ألف مرة إن عاشت مع رجل تحبه لكنه لا يفهمها فما بالك أن تعيش مع رجل تكرهه ولا يفهمها.

***

توجهت إلى المطبخ أُعد لهم شيئًا يشربونه، فأتت من خلفي ((جميلة)) ووقفت إلى جواري قبل أن تهمس قائلة :

- والديك يتساءلان.. يقولان أنك مريضة !!

- نعم.

- مريضة بماذا !؟

- بمزاج مُتقلب لا أحد قادر أن يحتويه أو يفهمه.

- لم تكوني هكذا من قبل.

- من قال؟! لطالما كنت، فالمرأة بطبعها مُتقلبة المزاج، لكنها بسيطة للغاية، تهدأ بحُضن مهما بلغت عصبيتها.. إنَّ النساء تُحتَوي في صمت ولديَّا زوجًا لا يجيد لا الكلام ولا الصمت، يجيد فقط المكوث خارج الشقة طوال اليوم ثم إشباع رغباته عندما يعود آخر الليل.



- أَفَّ منك .. تعودين لفلسفة الكتب والروايات مرة أُخرى، وليست لي طاقة بهذا الهُراء، أخبريني فقط ماذا أقول لوالديكِ.

- أخبريهم بأنني أسكُن مدينة العُزلة والحُزن، وليس بي طاقة لأتخطي أسوارها ولا أحد يهتم بأن يَمُد يَده ويَكسرُ السور حولي، قولي لهم أن دائرة الوحدة تَضيقُ عليَّ أكثر، وأني مُحاطة بكل شيءٍ حزين، وأحاول الثَبات لكنني هَشة لا أبوح، أحاول الهروب دائمًا، أهرب من القُرب ومن البشر وحتى من نفسي، لم أجد الراحة وكأن كل شيء ضدي، وقلبي .. قلبي مُمتلئُ بالخوف من أن يستمر الحال هكذا.

خرجت من المطبخ مُمسكة بكوب زجاجي كبير كانت قد ملأته عن آخره ببعضٍ من العصير، كانت تشرب العصير بنهم غير مكترثة لما دار بيننا، في الحقيقية أعتقدها لم تفهم شيئًا مما قلته، إنها لم تفهمني أبدًا فيما مضى عندما كنا متجاورتين في غرفةٍ واحدةٍ ليلاً ونهارًا فهل تفهمني الآن وقد أصبحتْ كل مِنَّا في حياة وعالم منفصل ؟! لا يمكن.

***

بعدما غادروا، لم تستطع ((جميلة)) الاحتفاظ بالسر الذي بيننا أكثر من ذلك، فاض منها الكلام على والدينا، فقصت عليهما أنني كنت قد تمنعت عن ((نزار)) بعد الزواج لعدة أيامٍ وتصنعت المرض، لكنه اكتشف حقيقة الأمر فقام باغتصابي عنوة مما تسبب لي في تهتكٍ وإصاباتٍ خطيرة.

أخبرتهما أن الأمر لم يتوقف عند ذلك بل أنه أعاد فعلته مرة بعد مرة وأننا حتى اليوم وبعد مضي ما يقرب من ثلاثة شهور على الزواج إلَّا أنَّ الأمر لا يزال كما هو، خلافات وتمنع واغتصاب، وأنني قد أردت إبقاء الأمر سرًا و ارتضيت لنفسي هذه الحياة خوفًا على الحالة الصحية لهما.



لم يعلق السيد ((جمال الدين)) على ما سمعه، اكتفى بالشرود وشرع يتخيَّل ملامحي، أو ربما شرد يتذكر ((فتاة شفشاون)) الصغيرة، والتي كانت تشبه زهرة الفل البيضاء، المتفتحة يفوح عطرها والآن انطفأت، بينما اكتفت السيدة ((فطوم)) بالنظر إليه نظرة حزينة، نظرة عتاب وقد سكنت عينيها دمعة متحجرة فلا هي تنزل لتريح عينيها ولا هي تجف فتجعلها ترى.

ليومين كاملين امتنع السيد ((جمال الدين)) عن الكلام، وأضرب عن الطعام، اكتفى بالاستلقاء وحده في غرفة نومنا أنا و ((جميلة)) وخاصة في الفراش الذي ما يزال يحمل شيئًا من رائحتي.

في صباح اليوم الثالث ..كانت ((فطوم)) قد استفاقت من نومها مبكرة وقد ملأها العزم على فعل شيء ما حيالَ زوجها كانت قد انتوته ليلًا، فهي يعز عليها أن تترك زوجها شريك مشوار العمر هكذا.

توجهت نحو الحمام، حصلت على بعض الهدوء والسكينة عبر مكوثها أسفل الماء الدافيء لمدة بضع دقائق، بعدها خرجت متوجهة نحو غرفة نومها، ارتدت قميص نومٍ أزرق خفيف قصير لا يصل حتى ركبتيها، كانت ما تزال تضج بالأنوثة محتفظة بجمالها وجسدها المَمْشوق، ثم جلست أمام المرآة، اعتنت بشعرها الأبيض فبدلت لونه للأسود عبر صبغه، ووضعت في كلتا يديها بعضًا من طلاء الاظافر ذات الألوان الزاهية الخاص بنا، كنا قد تركناه في شقتنا قبل الزواج.

توجهت إلى المطبخ، أعدت له ((رَفيس - الرفيسة العمية))، وهو النوع المحبب له من الطعام المغربي، حيث خَليطُ الطَّماطِم والبَصَلِ والحلْبَةِ والتَّوابِلِ والزَّيْتِ والخُبْزِ الذي يحبه منذ زمن طويل، أعدتها له وكلها إصرار بأنها لن تتركه إلّا وقد أكل حتى الشبع.



حملت الطعام في صينية بين يديها وتوجهت بهِ إلى غرفة النوم، توقفت أمام باب الغرفة وقد استحضرت في نفسها روح الطفلة التي تحيا بداخل كل امرأةٍ مهما قطعت من مشوار العمر، فألقت بشعرها المنسدل للأمام على كتفها الأيسر، ثم تغنجت في حركتها وابتسمت وهي تدفع باب الغرفة برفق وتدخل منه.

وقفت بالقرب من السرير وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة خجل، كانت تنتظر منه أن يستفيق عند دخولها من باب الغرفة فيلتفت ليراها كما أحبت أن يرى، لكنه كان ما يزال نائمًا، متكورًا على هيئة الحرف (د)، وكأنه طفل صغير قد أغضبه أحدهم فهرب نحو الفراش باكيًا ثم نام على وضعيته، كان مُغمض العينين لا يستشعر الحركة من حولة، تحركت ببطء نحو المِنْضَدَةُ، وأنزلت الطعام من بين يديها، ثم دنت مقتربةً منه، جلست عند حافة السرير وقد تعمدت ملامسة كتفه بنهديها الشبه عاريين، على أمل أن يستشعر لمستها فيستفيق، لكن خاب أملها، كان جسدهُ باردًا تمامًا، ساكنًا كقطعة من الخشب المبتلة بالماء المجمد، انخلع قلبها .. لقد رحل السيد ((جمال الدين))، فارقته الروح، كانت عيناهُ مُغرورقةٌ بالدموع، يبدو أنهُ قد بكا كثيرًا حتى إن الوسادة أسفل رأسه كانت مُبتلة هي الأخرى بالدموع.

وسط حالة من الذهول وعدم التصديق من جانبنا أودعناه في مقبرةٍ تابعةٍ للجالية المغربية في ((مصر)) بعد أن وجدنا في وصيته ما ينص على رغبته بالدفن في أرض الله كما قال.

حضر الجنازة كثير من الناس، ما بين أصدقاء العمل، وغرباء لا نعرفهم، وأيضًا بعضًا من المسيحيين يتقدمهم العم ((رؤوف)) زوج



السيدة ((أُم بربارة))، وفرض ((زين)) نفسه في مقدمة الجنازة وأحيانًا كثيرةً أسفل النعش يتبادل حمله مع ((رشيد)) و ((نزار)) وبعضًا من الحضور، وليومين متتالين حضر ((زين)) للعزاء جنبًا إلى جنب مع ((رشيد)) و ((نزار))، وفي اليوم الثالث اختفى.، علمت بعد ذلك أن والدته السيدة ((فريدة)) قد توفاها الله هي الأخرى.

***



(5)

لم أكـن أبـدًا سـوداويةٌ كئيبـة، إنـَّما مفتونـه بزرقـة السـماء والبحـر، رقـة الـورد و ضحكـة الأطفـال، العيـون الحُلـوة و كـوب الشـاي بالنعنـاع، الشـعر و الكتـب، الأغـاني والعـود و صـوت فـيروز و عبـادي .. مفتونـةٌ بالفسـاتين الورديـة و الأشـياء القديمـة، سـحر الأحمـر و الشـعر القصـير، شـجن طـلال وبحـة حليـم و خشـوع السـيدة أم كلثـوم، تفاصيـل الصـور و رقـة الخلخـال .. مفتونـةٌ بـدفء العائلـة و عذوبـة الرقـص الشرقـي و وميـض الفـلاش و نعومـة رغـوة القهـوة وإحسـاس البلـل تحـت المطـر و سـحر الغـمازة .. لم أخلـق سـوداوية كئيبـة، إنـَّما أنانيتهـم المُفرطـة صنعـت مني مـا ترونـه الآن.

أنانيتهـم المفرطـة جعلتنـي فَاقـدة لـكل شـيء يجعلنـي بخـير، فَاقـدة للأمـان والهـدوء، للفـرح والسـعادة، للوَنـس و السَـند، فَاقـدة لنفسـي ولكنـي رغـم فَقـدي الشـديد أُعطـي، أُعطيـت رغـم الفَقـد ومازالـت أُعطـي، خُذلـت و سُـرق مني كل شيء حتى أصبحـت بَاهتـة، لكنـي ورغـم كل شـيء و كَثـرة الفَقـد و الخُـذلان فإننـي أبـدو للجميـع كالبيـت، كالسَـكن، أسـند و أُطمئـن و أحـنّ ولا أعـرف القسـوة، لسـت سـيئة بـل جميلـة، والجميـلات دائـمًا حَظهـم قَبيـح للغايـة.

لسـت سـوداوية إنـما فقـط تهـزني الذكـرى .. و كـما قيـل في قصيـدة الدمـع العـصي :



تهزنـي الذكـري لأيـامٍ خلت .. مثل الشراع تهزه الأنـواء، ذكـري الـذي رمي الفـؤاد بسـهمه فأصابني وأذيعت الأنبـاء، وأصابـه سهمـي وبرحنـا الهـوي بدمائنـا فكأننا الشهـداء، الجـرح فـي القلبيـن جرح واحدُ، ووصالنا لـو تعلمـون دواء، إن القلـوب إذا أصيبت بالهوي فـلا يرتجي مـن ذا المصاب شفاء، فـإذا الجراح تصاعدت أهاتها وعلى الرمـال تجاوبت أصـداء، فأعلـم بـأن البُعـد هـمٌ قاتـلٌ، ودواء أهات القلـوب لقـاءُ، فيا أرض الأحبـة طـال عهـد فراقنـا، والبعد عنكي مذلـة وشقـاء.

❋❋❋

انقضـت تسعة أشهر بعد وفـاة السيد ((جمال الديـن)).. ظننـت فيهـم أن ابـن العـم قـد يليـن قلبـه، تمنيت في نفسي لـو يحنـن الله قلبـه علـيَّ بعـد أن أمسيت مثلـه يتيمـة، أملـت لـو يتفهـم أنـه قـد أصبـح الآن رجـل العائلـة الأول ويتحمـل مسئولية الأمر، لكـن شيئًا مـن هـذا لم يحدث، فهـو لم يعـرف أبـدًا معنى أن يكـون مسئولًا عـن شيءٍ آخرٍ أو حتـى عـن نفسـه، المسؤلية لا تـأتي مُصادفـة إنـما تنشـأ مـع المرء أثنـاء مراحـل حياتـه واحتكاكـه بالأشـخاص الذيـن يتفهمـون أنهـا جـزء مـن رجولتهـم كالشـهامة تمامًـا، بسـبب ذلـك عشـت في جحيـم لا يتوقـف، ضُربـت بِشِـدَّةٍ وَعُنْـفٍ مـرارًا وتكـرارًا بـلا أسـباب، لُعنـت بأفظـع الشـتائم تلـك التـي يخجـل حتـى الشـيطان عنـد سـماعها بـل ويهـرب مـن المـكان خشـية أن يصـب الله لعناتـه عليـهِ وعـلى مـن فيـهِ، اغتُصِبتُ بطريقـةٍ حيوانيـةٍ ليلـة بعـد ليلـة، لم يفكـر ولـو لمـرةً واحـدةً بـأن مـا لا يـأتي بالعنـف يـأتي طواعيـة مـع اللطـف والحنيَّـة.

هـوَّن علـيَّ الأمـر مُرافقتـي للسـيدة ((فطـوم)) يوميًـا لخدمتهـا، فقـد اعتـدت و ((جميلـة)) تنـاوب زيارتهـا يوميًـا، كنـت حريصـة بشـدة ألَّا أغيـب



عنها بينما ((جميلة)) كانت أحيانًا قد تتغيب عنها لأيام أو تزورها لساعاتٍ قليلةٍ ثم تغادر.

كنت في كل مرة يضربني ((نزار)) ألعن ((زين)) وألعن تخليهِ عني، وأدعو لوالدي أن يغفر الله له ما ارتكبه في حقي، كان بإمكاني كثيرًا أن أشتكية للشرطة، أو أن أُطالب بخلعه، لكن في كل مرة كانت السيدة ((فطوم)) تتوسل إليَّ بألَّا أفعل وأن أنتظر، تخبرني بأنه غدًا عندما يرزق بطفل سوف يتغير ويهدأ كثيرًا، لكن شيئًا من ذلك لم يحدث حتى الآن، فهو لم يتغير مُطلقًا، وقد تبدلت الشتائم بلا أسباب إلى عنفٍ لأتفه الأسباب، ثم تحول العنف لأتفه الأسباب إلى عنفٍ بلا أسباب، ربما لمجرد التسلية.

تحملت الأهانة مرارًا، أخبرت نفسي بأنني ربما قد أكون سيئة!!، ربما إذا تبدلت معه ونسيت ما يقال عن حقوق المرأة وأمسيت الخادمة المطيعة قد يتغير يومًا ما كما تقول ((فطوم))، لذا صبرت عليه، صبرت وصبرت لكنه لم يتغير، فتفهمت جيدًا أن ثقافة الرجل الشرقي تجعله يتفهم الصبر على أنه ضعف واستسلام وربما اعتراف مني بالخطأ وشهادة له بأنه على حق، كان عليَّ الاقتناع بأنه لا أحدٍ يتغير لأجل أحدٍ آخر، لكنني ما اقتنعت فدفعت الثمن.

أشعر باليأس فتعود ((فطوم)) وتخبرني مُجدَّدًا :

- غدًا سوف ترزقين بالأطفال ويتغير لأجلهم.

فأتساءل في نفسي :

- ماذا لو لم يتغير؟ وقتها سيصبح أطفالي مرضى نفسيين نتيجة ما قد يرونه من عنف تجاه والدتهم .. ثم؟! ثم يكرهونني لأنني جعلتهم يرون أقرب الناس إليهم تُضرب وتتعرض للعنف، لأنهم سيشعرون بالضعف



أمـام تلقـي والدتهـم الإهانـة في صمـتٍ وضعـفٍ مـع عـدم مقدرتهـم أن يدافعـوا عنهـا.

***

تسـعة أشـهر أحـاول أن أنسـى، والنسـيان لا يـأتي .. النسـيان ليـس شـيئًا نرغـب فيـه فيأتينـا طواعيـة، لـذا أصبحـت ألجـأ للهـروب مـن الذكريـات، فافتعـل الكثـير مـن الفـرح التافـه، وأتصنـع القـوة، أواسي ((فطـوم)) في وفـاة زوجهـا بالتحـدث إليهـا كثـيرًا، ومـا أصعـب أن تـواسي أحدهـم بكلامٍ أنـت في أشـد الاحتيـاج لسـماعه، لكنهـا كانـت في حالـة مـن الذهـول التـام، ترفـض تخيُّل فقـدان زوجهـا بعـد رحلـة حيـاة زوجيـة مليئـة بالمـودة والرحـم دامـت لمـا يقرب مـن أربعـين عـامٍ كاملـة، بعـد وفاتـه، اعتـادت أن تنـام في سريـره بشـكل أفقـي، كانـت هـذه طريقتهـا في التعبـير عـن أنهـا افتقـدت شـيئًا عزيـزًا إلى الأبـد، كنـت كلـما حاولـت مواسـاتها وإخبارهـا أن المـوت سُـنة الحيـاة والحقيقـة الوحيـدة المؤكـدة في هـذا العـالم تلمـع عيناهـا بالدمـوع.. ثـم تبكـي وتقـول :

– كان يتقي الله فيَّ عُمرًا بأكمله، فكيف أنساه!!.

كنـت في يومـي ابتسـم وأضحـك، أظهـر ملامحًـا بشوشـة في وجـه الجميـع، أتحـرك كثـيرًا طيلـة النهـار، وعنـد منتصـف الليـل أتحـول لمسـمار ومطرقـة، أنقـر الحائـط، تاركـةً رسـالة تخـبر العـالم الخارجـي القابـع خلفـه بأنـه لا شيء عـلى مـا يـرام.

كل ليلـة أتمـدد عـلى فـراشي كالحطـب المبلـول، ترفضنـي النـار، ولا تتراقـص معـي ريـاح المقاومـة، وقبـل بـزوغ الفجـر أبكـي عـلى الشـجرة التـي نزعـوني منهـا .. ثـم مـاذا؟ ثـم إن شـعري بـدأ بالتسـاقط نتيجـة الأشـياء المحشـوة، المتكدسـة داخـل رأسي.

***



ليلتها ..عند العِشاء، وقفت بالقرب من النافذة المطلة على شارع العريش، رأيته يدخل الشارع مشيًا على الأقدام برفقة رشيد، وكانا يتحدثان إلى بعضهم البعض بشيءٍ من الجدية، بدا لي أن هناك أمرًا ما بينهما، وقد استغربت أمر تقاربهما المريب في الفترة الأخيرة، فما الذي يجمع الشامي بالمغربي؟!، وأيضًا استغربت أمر عودته مبكرًا للمنزل على غير العادة.

توقفا عند مدخل العمارة الرئيس لدقائق، تواريت فيها خلف الستائر أترقب بحذر ما يدور بينهما في محاولة حثيثة مني لتفهم أي شيء لكن دون جدوى، كنت أشعر بالقلق فأنا لم أتقبل رشيد يومًا ولم أكن مُطمئنة لهذا التقارب المفاجيء بينهما.

بعد قليل تصافحا ثم غادر رشيد عائدًا من حيث أتيا، بينما توغل ((نزار)) داخل شارع العريش مبتعدًا عن مدخل العمارة حتى توارى عن عيني.

***

بعدما يقرب من الساعة ونصف، عاد إلى الشقة، فتح الباب بصعوبة لكي يدخل، فقد كان حاملًا بين يديه بضع أكياسٍ مختلفة الأحجام والألوان، كانت أول مرة منذ أن تزوجنا يعود فيها وقت العِشاء، وكان هذا باكرًا للغاية.

وقفت في منتصف الصالة بمواجهة باب الشقة، تعلو جسدي عباءةً فضفاضةً تعمدت ارتداءها قبل عودته، عندما نظر إليَّ ابتسمت له ابتسامة مُصطنعة، ثم افتعلت أنني مندهشة، أبديت له شيئًا من الاستغراب، وأوحيت إليه بأنني متفاجأة لعودته الباكرة، فقابل ردت فعلي بابتسامةٍ لطيفةٍ وهو يخبرني :



- ألم تساعديني في حمل بعض من هذه الأشياء؟!

كنت مرتبكة للغاية، تحركت باتجاهه دون تفكير، فعلت ذلك دون أن أنبث بكلمةٍ واحدةٍ، كانت خطواتي بطيئة مثقلة، مترددة يشوبها شيء من القلق، بينما حافظ على هدوئة التام ونظراته الممتلئة باللطف، كان مقيتًا أنه ورغم مرور سنةٍ كاملةٍ على الزواج بيننا إلّا أنني مازلت أخافه، ولا أشعر بالأمان في وجوده.

حملت عنه ما استطعت وتوجهت بهِ نحو المطبخ، وقد تبعني بما تبقى معه، كنت متوترة للغاية فتعثرت قدمي اليمنى بحامل المزهرية التي سقطت على الأرض وتحطمت، ثم سقطت فوق قطعها المتناثرة، لم يطل بقائي على الأرض للحظات، فقد نهضت مهرولة بضع خطواتٍ للأمام وأنا أشعر بالفزع، و كنت ما أزال ممسكة بالأكياس في يدي لم أُسقطها، التفتُ بخوفٍ أنظر إليه خشية أن يضربني بشيءٍ مما يحمله، لكنه لم يفعل، بل هرول في اتجاهي محاولًا مُساعدتي والاطمئنان عليَّ وهو يسأل :

- هل أنتِ بخير ؟!

أومأت إليهِ برأسي أنني بخير .. فابتسم بلطفٍ وهو يشير إليَّ يطالبني باستكمال خطواتي في اتجاه المطبخ.

***

على قطعة من الرخام في زاوية من المطبخ بدأت في رَصّ الأكياس متجاورة وأنا أترقب دخولة من خلفي، كان قد تأخر قليلًا، فقد توقف ليجمع القطع المتناثرة على الأرض من بقايا المزهرية، ثم لحق بي، عند دخوله المطبخ توقف جواري تمامًا، تعمد أن يلصق جسده بمؤخرة جسدي من الأسفل وهو يبتسم إليَّ في ود، شعرت بأنه يريد بث بعضًا من شعور الطمأنينة في قلبي مع الاشتهاء، بعد ذلك بدأنا في أفراغ



الأكياس سويًا، كان بعضها يحتوي على أنواع من الفاكهة المختلفة، ومشروبات غازية، وبعض أكياس الحلوى وقطع من الخبز الطَّرِيُّ المحشو بالشيكولاتة السائلة، وكان من بين الاكياس واحدًا يحتوي على صُّنْدُوق صغير تم لفه بعناية ببعض من الأشرطة الزاهية بألوانها الفسفورية.

فجأةً استشعرت ألمًا لا يطاق وشيئًا ما يسيل بغزارة على ساقي نزولًا إلى القدم حتى توغل بين أصابعها، بدا لي أن قدمي قد أصيبت على أثر السقطة مع المزهرية، حاولت جاهدةً أن أتحمل وألَّا أُبدي له شعوري بالألم، لكنه لاحظ تبدل ملامح وجهي فسألني باهتمام إن كنتُ بخير؟! وكانت الإجابة أنني تنفست بضع أنفاسٍ متقطعةٍ ثم بكيت، أمسكت بمعصم يده بيدي اليسرى أستند عليهِ ثم انحنيت بجسدي أميل نزولًا بيدي اليمنى نحو الساق المتألمة، تحسست مكان الألم للحظاتٍ قليلةٍ قبل أن أرفع يدي لأتفاجأ بها مبللة تمامًا بالدماء.

❋❋❋

حملني بين ذراعيه بقوةٍ وحرصٍ شديدين وهو يتوجه نحو غرفة النوم، كان يحتضنني بين يدية كدُميةٍ صغيرةٍ يحبها بشدة، أو كطفلته المُدللة، ولأول مرة شعرت معه بشعورٍ لطيف، وأنه يعاملني بمثل هذه الحميمة.

وضعني برفقٍ في السرير، مدد قدمي المبللة بالدماء على أخرها ثم قام بتعريتها حتى أعلى ما فوق الركبة بقليل، ثم مد يده مرة أخرى أمسك بوسادةٍ صغيرةٍ ووضعها أسفل القدم لتحملها قبل أن يخرج من الغرفة، تغيب لما يقرب من دقيقتين قبل أن يعود حاملًا في يدهِ وعاءً صغيرًا مُمتليء بالماء الدافيء ومعه لفافة من الشَّاش وكيسٍ صغيرٍ من القطن الأبيض و زجاجة من المطهر.



أخذ بيده فوطةً صغيرةً كانت موجودة بالقرب منه على المِنْضَدَةُ، بلل طرفها بالماء الدافيء ثم همَّ برفقٍ يمسح ويزيل الدماء عن الساق والرسغ وما بين الأصابع، بعدها أمسك بقطعة قطنية أخرى، بللها بالمطهر قبل أن يقوم برفقٍ شديد بإزالة ما تبقى من الدماء بداخل فتحة الجرح، كنت كلما تأوهت وجعًا ينظر إليَّ مُبتسمًا في رفقٍ وود ويضع قبضة يدي بداخل قبضة يده ويضم عليها في محاولة منه لتهدأتي.

بعد انتهائهُ من تطهير الجرح وضع عليهِ قطعة أخرى من القطن المبلل بالمطهر ثم قام بلف الشَّاش فوقها ومن حول الساق ليثبتها جيدًا، بعدها نظر في عيني مباشرة وهو يبتسم فبادلته بابتسامة رضا وامتنان عما فعله، غمز إليَّ بعينيه يغازلني قبل أن يقذف نحوي قُبلة في الهواء وهو يهمس :

- أَحْبَكِ.

بعدها ساد الصمت تمامًا بيننا، فلم ينبث أحدنا بكلمةٍ واحدةٍ، وبعد ما يقرب من دقيقة صمت وتبادل للنظرات فيما يشبه عناق بالأعين مال بجسدهِ ببطء نحو قدمي المصابة، اقترب بشفتيه من أصابعها ثم قام بتقبيلهم بشفتيه واحدًا بعد الآخر وهو يترك شيئًا من ريقه فوق كل واحدٍ منهم.

❋❋❋

في العاشرة مساءً كان مايزال مُتغيبًا لما يزيد عن نصف ساعة، ظننت لوهلة أنه قد غادر الشقة وتركني وحيدة، لكن ارتفاع صوت الخَلاَّط المفاجيء في المطبخ أفزعني للحظات قبل أن أستوعب وأدرك أنه ما يزال موجودًا في الشقة.

كان قد حصل على حمام دافيء ثم توجه نحو المطبخ وشرع في إعداد بعض العصير لأجلي.

دخل من الباب وقد تبدلت ملابسه، كان قد ارتدى بنطالًا من القطن يعلوه قَمِيصٌ أَبْيَضُ لَهُ كُمَّانِ قَصِيرَان حاملًا بين يديه دَوْرق من عصير المانجو، وضع الدورق بحرصٍ على المِنْضَدَةُ، ثم جلس عند حافة السرير بجوار رأسي تمامًا، وضع قدمه اليُسرى على الأرض بينما رفع اليمُنى ومددها على السرير، رفع رأسي برفق عن الوسادة، ثم سحب جسدي برفق باتجاهه وهو يساعدني على تخطي قدمه الممددة ليصبح جسدي ممددًا بين قدميه، بعدها رفع جسدي قليلًا وجعله منحدرًا للأعلى يستند على جسده حتى إنَّ رأسي أصبحت فوق صدره تمامًا.

أمسك بدورق العصير، سكب بعضًا منه في كأس زجاجي ثم بدأ بتقريبه من شفتي يسقيني منه، كنت كما أنا مُمدَّدةً بين قدمية، جسدي الملتهب سخونةً والضاجج بالأنوثة يلامس فخذيه، يستشعر سخونة جسده، بينما كان صدري الناهض يظهر نصفه من فتحة العباءة حتى إن نهديَّ كانا بارزين تمامًا من الفتحة.

كانت لحظات هادئة، تبدو وكأنها لحظات جس نبضٍ أو تمهيد لشيء ما سوف يحدث. وبينما شردنا قليلًا انسكب بعضًا من العصير على صدري، سال سريعًا أسفل شفتيا مرورًا برقبتي حتى توسط بين النهدين فبللهما تمامًا.

في صمت نظر كل منا تجاه الآخر بخجل وكأننا لسنا زوجين، ابتسمنا فجأةً ثم تبادلنا بعضًا من نظرات الرضا الممزوجة بالشوق والحميمة، مد يده اليسرى على استحياء أدخلها من فتحة العباءة، ولم أمنعه، بدا لي أنه يحاول مسح قطرات العصير المتدلية بين النهدين، لكنه تحسسهما بدلًا من ذلك، ثم وبرفقٍ أمسك بأحد النهدين الناضجين وبدأ يتحسسه أكثر وأكثر ويحرك أصابعه عليه حركةً دائريةً جعلت حرارة جسدي ترتفع،



كانت أول مرة أستشعر منه لمسة حميمية دون خوف، شعرت بالخدر يسري في جسدي بأكملة وشيئًا من اللذة مع كل لمسة منه، ودَّدتُ لو يزيد مما يفعله لكنه على غير عادتةُ وعادة جرأته الشديدة، تراجع، وبدأ في سحب يده يبعدها عن صدري ويخرجها من داخل العباءة، فمددت يدي بلهفةٍ أمسكتها وأعدتها حيثما كانت، نظر في عيني نظرة ذات مغزى تعني استفساره إن كنت أريده أن يكمل أو لا، فأومأت إليه برأسي أطالبه بأن يكمل ما يفعله.

أعاد الكرَّه لكن هذه المرة بجرأةٍ أكثر وشغفٍ أكثر وأكثر حتى أنه زجَّ بيده الأخرى داخل فتحة العباءة وبدأت كلتا يديه تفرك في النهدين بخشونةٍ أحببتها، انحنى مقتربًا من أذني وهمس ببضع كلماتٍ جنسيةٍ جريئةٍ للغاية جعلت نار الرغبة تشُب في جسدي بأكمله، فتأوهت له وتأوهت في نفسي مُبديةً رغبتي الشديدة فيه.

مد يده أمسك بكوب العصير، أخذ منه رشفة طويلة ولم يبتلعه، إنما انحنى بشفتيه وضعهم في شفتيَّ وبدأ يسقيني العصير من فمه قبل أن ينفد ويبدأ كل منا في الارتواء من ريق الآخر.

استمرينا في فعلها لما يقرب من خمسة دقائق كاملة، قبل أن يتوقف فجأةً ويبدأ في استرداد أنفاسه المتقطعة كمن كان يجري في سباقٍ طويل، بعدها قَبَل رأسي برفقٍ واحتضنني، ثم أخبرني وهو يهم بالنهوض عن حافة السرير :

- سوف أنام بجانبكِ على الأرض، تحسُباً أن تحتاجي شيئًا ما أثناء الليل.

- نعم!! ولم لا تنم في السرير!!



- أخشى عليكِ.. أخشى أن يتألم الجرح.

- لا عليك. يمكنك أن تكون حريصًا.

قال متلعثمًا ..

- أخشى أنَّ مُلامستي لكِ تجعلني.. أشتاقكِ وربما أريدك.

- وما المانع!! الستُ زوجتك.

- سوف تتألمين من الحركة.

قلت له في غنجٍ وأنا أجذبه من معصم يدهِ أقربه مني.

- يمكنك فعلها برفق، برفقٍ شديدٍ للغاية فأنا.. أحب ذلك.

***

في الصباح كنت مستلقيةً على ظهري في السرير شبه عاريةً يغْشاني بعضًا من النعاس، وكانت آثار ليلة الأمس ما تزال تفرض نفسها على ملامحي، غير أنَّ أرجاء الغرفة كانت تضج برائحة الجنس والعرق.

دخل من باب الغرفة عائدًا من الحمام وقد لف رأسهِ بفوطةً يجفف بها ما تبقى من الماء، وقف أمامي مباشرة وهو يبتسم، ثم وبصيغة الأمر الممزوج بشيء من اللين أخبرني محذرًا أنه لا نهوض من الفراش حتى يشفي الجرح تمامًا، فأخبرته مبتسمة وقد اعترتني حالة من الخجل كانت بادية تمامًا على وجهي أن عليَّ التوجه إلى الحمام للحصول على بعضًا من الماء الدافيء بعد ليلة أمس المجرمة،أ طلق العنان لابتسامةٍ واثقةٍ وهو يغمزني بعينه ويوميء لي بالموافقة.

في الحمام: لم يطل وجودي تحت الماء سوى عشرين دقيقة تقريبًا، حرصت فيهم أن أبعد قدمي المصابة عن الماء، خرجت بعدها لأجده وقد أعد الإفطار والعصير بنفسه ووضعه مُجهزًا فوق السرير، لا أعرف



إن كنت في واقعٍ مُعاكسٍ قد تبدل 180 درجة أم أنني في حُلمٍ وقد أستفيق منه على كابوس.

جلست أمامه مباشرةً يتوسطنا الطعام وكان جسدي ما يزال مُبللًا ببعض الماء الدافيء يُخفيهِ بشكير قمت بلفه عليه قبل الخروج من الحمام، بدأ في إطعامي بنفسه وقد كان يتعامل معي بلطفٍ لم أعهده من قبل، رغم ذلك كانت الريبة تدق في عقلي، أتساءل عن السر وراء كل هذه التغيرات المفاجأة، فلا يمكن أن يهتدي المرؤ هكذا ما بين ليلةٍ وضحاها.

❊ ❊ ❊



(7)

عـادا مـن البنـك حاملـين معهـم الوديعـة بعـد الانتهـاء مـن إجـراءات سـحبها، كانـت تشـعر بسـعادةٍ غامـرةٍ فقـد فعلـت لزوجهـا مـا طلبـه، وهـو الآخـر يشـعر بالسـعادة الغامـرة فقـد حصـل عـلى مبتغـاه وسـوف يبـدأ قريبًـا في الخطـوات الفعليـة للبـدأ في إنشـاء عملهـم الخـاص كـما أخبرهـا.

لم تكـن قـد أخـبرت أحـدًا بـما أقدمـت عليـهِ، كعادتهـا منـذ الصغـر تفعـل مـا يحلـو لهـا دون اللجـوء لاسـتشارة أي شـخص مـا مهـمًا كان حجـم مـا تُقـدم عليـه، ظنًـا منهـا أنهـا بارعـةً في كل شيء، وتسـتطيع تدبـر أمرهـا، كانـت تعتقـد أن في المشـورة مـا يقلـل مـن شـأنها، وهـذا مـا اعتبرتـه أنـا دائـمًا فـخ، فـإن أكـبر فـخ يقـع فيـه المـرء هـو ظنـه الدائـم بأنـه يمتلـك العقـل الرزيـن، والخـبرة الوافـرة، وأنـه أصبـح كبـيرًا يسـتطيع الاعتـماد عـلى نفسـه في كل قـرارات الحيـاة.

في الحقيقـة لا يوجـد أحـد لديـه الخـبرة والحكمـة لمواجهـة مسـاويء وغـدر النـاس، ثـم إن النبـي ((محـّمـد ـ صـلى الله عليـه وسـلم ـ)) قـال :

– ((مَنْ أَرَادَ أَمْرًا فَشَاوَرَ فِيهِ، وَقَضَى للهِ، هُدِيَ لِأَرْشَدِ الْأُمُورِ)).

كـما أن الأديـان جميعهـا أوصـت بالمشَـورة، والقـرآن الكريـم فيـه سـورةً كاملـةً باسـم ((الشـورى)) وقـد قـال فيهـا الله سـبحانه :

– ((وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ)) الآية 38.

لكـن وللأسـف يميـل البـشر دائـمًا للمغامـرة والمـرور بالتجربـة ثـم فى النهايـة ينـدمـون.

كان ((رشـيد)) قـد تملكهـا تمامًـا، كـما يقـول المصريـين ((أكل بعقلهـا حَلـوَى))، صنـع منهـا امـرأة مهووسـة بالجنس، فأصبحـت تعيـش معـه مجرد خادمـة لنزواتـه وساديتـه، لم يكـن يفعـل ذلـك حبًـا فيهـا كزوجتـه إنـما سـلبًا لعقلهـا وتعليقًـا لهـا بـه، تمهيـدًا لمـا ينتويـهِ معهـا.

كان يعـزم منـذ البـدأ عـلى أخـذ وديعتهـا بحجـة إنشـاء عمـل خـاص بهـما يكـبرا ماديًـا مـن خلالـه وتصبـح لهـما حيـاةً مرفهـةً، وأعتقِـد أنـه نجـح تمامًـا فيـما فعلـه فقـد حصـل أخـيرًا عـلى وديعتهـا، ووالله لـو أنـه فعـل ذلـك عـن حـبٍ وصـدقٍ لمـا رأيـتُ فيـه مـن عيـب، فـلا عيـب في أن تكـون المـرأة معينـةً لشريـك حياتهـا مـا دام صالحًـا يسـعى بجهـدٍ لرفـع المسـتوى المعيشي لهـم، لكنـه أبـدًا لم يكـن صالحًـا ولم يكـن ينتـوي الصـلاح، وكان يظهـر ذلـك واضحًـا في أفعالـه وخياناتـه المتكـررة لهـا وكانـت في كل مـرة تغفـر لـه نزواتـه.

***

في المسـاء .. كنـت مرتديـةً قميـص نـومٍ قصـير للغايـة، ممـدِّدةً أقدامـي بطـول السريـر، عندمـا دخـل مـن البـاب وجلـس إلى جـواري، أمسـك بشـنطة الأدويـة، فتحهـا وأخـرج محتوياتهـا ثـم قـام بالتغيـير عـلى الجـرح، نظفـه مُجـدَّدًا ثـم وضـع عليـه الشَّـاش والقطـن وقـام بلفـهُ جيـدًا كـما في المـرة السـابقة، في تلـك الأثنـاء بـدأ في الـكلام وهـو يكمـل مـا يفعلـه دون أن ينظـر في عينـي، أخبرني بأسـفهِ عـلى كل يـومٍ مضى وبيننـا شـجار، قال إنـه اهتـدى إلى الصـواب وعـرف قيمـة أن يكـون لديـه زوجـةً جميلـة، وخاصـةً إن كانـت ابنـة عمـهِ.

أبلغنـي بـأن شـخصًا مـا يعرفـه قـد لاقـي مصـيرًا سـيئًا للغايـة بعـد أن أهمـل في نفسـهِ وعملـه وأهـل بيتـه وزوجتـه فخسر كل شيء حتـى مـات منتحـرًا،



وأنه بعد تفكيرٍ عميق قرر ألَّا يكون هو نفسه ذلك الفاشل السيء الذي يكرهه الناس ويكره نفسه.

كما أنه فكر جيدًا وتفهم أن الرجل الحقيقي هو من لا يؤذي زوجته، بل من يكون لها سندًا، ويعوضها غياب الأب والأم والصديقات، وأن عليه أن يكون ودودًا معها لا عدائيًا.

بعدها قال بأنه فكر كثيرًا في العمل بجدية لكنه لم يجد فرصة العمل المثالية أو على الأقل التي تناسبه، ففكر لو أنه أخذ مني مبلغ الوديعة التي وضعها السيد ((جمال الدين)) باسمي في البنك وأنشأ بها مشروعًا ما فإن ذلك سوف يكون أفضل ويساهم كثيرًا في استقرار الحياة والعلاقة بيننا.

لحظتها شعرت بالفزع، تذكرت القول : ((الذئب لا يتودد للأغنام محبةً إنما تمهيدًا لافتراسهم))، شعرت بالقرف من نفسي، خجلت بشدة، وشعرت بالغثيان وبالمغص الشديد يقطع أحشائي، كان يغتصبني يوميًا بالقوة لكني كنت أعزي نفسي أن ذلك يحدث دون رغبة مني، لكنني سلمت له نفسي، وجعلته يتجرع كئوس أنوثتي بأرادتي ظنًا أنه يستحق فرصة أخرى، وأنني مُقصرة في حقه، و نسيت ((زين)) والحب وهبة الله نفسها، في النهاية وعند هذه اللحظة تحديدًا، بدا لي أنه ليس إلَّا كومة من الحقارة والدناءة وما فعله لم يكن إلَّا محاولة منه لإقناعي بما يريده لاحقًا.

في قلق وتوتر مددت يدي ببطء أمسكت طرف الغطاء الموجود بالقرب مني، سحبته نحو الأعلى غطيت به جسدي وقد بدت في ملامحي الريبة وشيئًا من الخوف بينما كان مايزال يكمل حديثة، فقال إنه قد اتفق مع((رشيد)) على إنشاء عملٍ كبيرٍ وأن ((رشيد)) هو صاحب الفكرة كما أنَّ ((جميلة)) سوف تساعدهم.



سألته باهتمام إن كانوا قد عرضوا على ((جميلة))الأمر؟! وماذا قالت؟! فأخبرني أنها ورشيد متفقان تمامًا على كل شيء بل إنهما قد ذهبا إلى البنك أثناء النهار وسحبا الوديعة وهما الآن ينتظران أن نفعل مثلهما.

وضعت رأسي بين يديَّ ونظرت بخيبة أمل نحو الأرض، فعلت ذلك دون أن أنبس بكلمةٍ واحدةٍ، فنظر إليَّ وكان يترقب ردة فعل مني لكنني صمت تمامًا، لم أحرك ساكنًا، كنت أفكر وشردتُ مع نفسي، تذكرت مُجددًا قول العم ((برنارد شو)) : ((الجميع سوف يؤذيك بطريقة ما))، لقد كان محقًا تمامًا فحتى الآن الجميع يتلذذ بأذيتي وأنا أكتفي بلعب دور المتفرجة فقط.

حاولت الحصول على بعض من الهدوء الداخلي، كنت أحتاج لحظاتٍ قليلةٍ فقط أُعيد فيها ترتيب أوراقي، فتصنعت الاحتياج إلى الحمام ونهضت عن السرير في عجلةٍ من أمري مهرولةٍ إلى خارج الغرفة.

في الحمام أغلقت الباب عليَّ من الداخل وأسندت ظهري إليه، حصلت على ثوانٍ قليلة أفكر فيها .. استجمعت شتات أمري ورددت في نفسي بأن ما حدث لم يكن سوى خطأ صغير، أحسنت الظن فيهِ، ظننته يتغير، كانت سهوة مني وخطأ صغير أستطيع إصلاحه، عليَّ الآن فقط استعادة هبة الله وعقلها.

بعدما يقرب من 5 دقائق عُدت إلى الغرفة، كان مايزال جالسًا عند حافة السرير .. و كنت قد فكرت جيدًا وأرتأيت بأنه ليس على المرء أن يتحمل ضرورة غيره، فيما عليه تحمل كل هذه الضرورات في حياته، ولكي يواصل العيش بهذه الطريقة فستكون ضرورات غيره عبئ لا يطاق فوق عاتقه. لذا جلست أمامه، ثم نظرت بجرأةٍ كبيرةٍ في عينيه وأخبرته :



- الرجل الحقيقي هو من يُعيّل زوجته لا من يكون عالةً عليها، ثم إنَّ سند المرأة الحقيقي يكمن في استقرارها المادي التي تحصل عليهِ من تعليمها وشهادتها، استقرارها في عملها الثابت وإثبات نفسها في المجتمع كي يصنعوا لها قوة تستند عليها إذا ما مال بها الزمان،وبما أنني لم أحصل على التعليم والشهادة المناسبين بسبب خطأ ارتكبته مسبقًا في حق نفسي، عندما قلت نعم وكان ينبغي عليَّ أن أقول لا، فلم يتبقَ لي سوى تلك الوديعة التي تركها لي عمك، أنا و((جميلة)) تحسبًا للظروف، فكيف لي أن أفرط فيها ؟! ثم في الحقيقة أنا لا أثق فيك، فقد سبق وأضعت ميراثك من والدك.

- أسفة.. أرفض ما تطلبه.

❋❋❋



لا شكّ أننا جميعًا أوغاد بدرجاتٍ متفاوتة، جميعنا يخطئ بطريقة ما، لكن هناك من يخطئ في حق نفسه، وهناك من يخطئ في حق الجميع، وأنا للأسف طوال هذه السنوات الماضية وحتى الآن لم أؤذي أحدًا غير نفسي، لكن يستحيل عليَّ أن أستمر في فعل هذا للأبد.

ما هو إلا أسبوع أو أقل وحاول ((نزار)) مجددًا التودد إليَّ وإقناعي بالتخلي عن الوديعة، لكن دون جدوى، فأنا الآن أتعامل معه بمبدأ ما قاله الروائي ((سُعدة)) : ((لا تنخدع بكلام العدو الحلو، قد يكون سُمًّا داخل العسل))، كما أني لا أنسى القول : ((لا يلدغ المؤمن من جحرٍ مرتين))، ثم إن المشاعر التي تغيرت بسبب الإدراك لا تعود، لا تسعى لكسب إنسان من جديد بعد إدراكه لمن تكون، المُدرك ليس كالغاضب ولا كالغيور، المُدرك لا يعود .. رغم ذلك كان ما يزال يتعامل معي برفقٍ شديد وينصاع لرفضي له في الفراش مجددًا دون أن يتضجر أو يغتصبني كما اعتاد سابقًا.

كنت قد تحدثت إلى ((جميلة)) أحاول أقناعها أن ما فَعَلَتَهُ خاطئ تمامًا، حاولت ردها عن فعلها والحصول على ما تستطيعه من ((رشيد)) لكن دون جدوى، لم نتفق كالعادة، هي ترى فيهِ ملاكًا فوق الأرض، تراه



الصادق الـذي لا يكـذب وأنـا أخبرهـا مـرارًا : ((أنـه لا يوجـد أحـد مـن العشرة المبشريـن بالجنـة يعيش الآن فـوق الأرض)) وهـي لا تسـمع.

***

عـاد ((نـزار)) للخـروج مجّـددًا وقـت اسـتفاقته مـن النـوم لكنـه يرجـع في توقيتـات مختلفـة وليس في آخـر كل ليلـة كـما كان سـابقًا، وعـدت أنـا مـرة أخرى للفـراغ الـذي لا يملئـه سـوى زيـارة السيدة ((فطـوم)) والتـي كانـت مريضـة بشـدة مؤخـرًا.

في ذلـك اليـوم أتـت ((جميلـة)) بعـد الظهـيرة وجلسـنا قليـلًا برفقـة ((فطـوم))، كنـت أشـعر بـأني لسـت عـلى مـا يـرام، شيء مـن الصـداع قـد تمكـن مـن رأسي مـع كثيرٍ مـن التفكـير، رائحـة ((زيـن)) وذكريـات مـا بيننـا تـدور في رأسي تأبـى أن تتوقـف، فأسـتأذنتهم أن أغـادر، وأبلغـت ((جميلـة))، بـألَّا تترك((فطـوم)) إلَّا وقـد اطمأنـت تمامًـا عليهـا وقضـت جميـع حوائجهـا.

في الشـارع أثنـاء العـودة لشـقتي كنـت أشـعر أن ((زيـن)) في كل مـكان، أشـم رائحـة عطـره، كان هنـاك شيء مـن الحنـين يحيـط بي مـن كل اتجـاه، كنـت أمـشي ألتفـت يمينًـا ويسـارًا، فَـكُل هـذه الأماكـن كان لنـا فيهـا ذكريـات صنعناهـا منـذ وقـت ليـس ببعيـد.

عـدت للشـقة، دخلـت غرفـة النـوم، ألقيـت بنفـسي في السريـر كجثـة هامـدة تبـدو مرهقـة منهكـة تمامًـا وكأنهـا عـلى مشـارف مفارقـة الحيـاة. بـدون رغبـة مني وكأنـني مسـلوبة الإرادة أمسـكت بالهاتـف، فتحـت نافـذة إرسـال رسـالة جديـدة، كتبـت رقمـه الـذي أحفظـه تمامًـا عـن ظهـر قلـب وكتبـت:

- هُناك نقص في ((الإندورفين - Endrophin)) فماذا أفعل؟!.



كانت الرسالة مقتضبه، ربما لا يفهمها الكثيرون باسْتِثْناء بعض الأطباء، لكن الأكيد في الأمر أن ((زين)) سيتفهمها جيدًا جدًا، فنحن لم نقرأ سويًا كل هذه الكتب والآلاف من المقالات العلمية لنجهل أن هرمون ((الإندورفين)) هو ما يسبب زوال القلق والشعور بالأمان.

وضعت رأسي على الوسادة، أغمضت عيني للحظات، شردت في ذكريات جميلة كانت يومًا بيننا، شعرت بالاشتياق إليه، تذكرت عينيه الزرقاء، شفتيهِ الورديتين، طريقة نطقه للحروف وابتسامته الصافية التي لم تكن تفارق شفتيه فابتسمت رغمًا عني، كنت أعرف أنه سيتقبل رسالتي وكأننا على وفاق، كما كنَّا دائما، مهما اختلفنا نحن على وفاق، كنت أفكر وما تزال الابتسامة تعلو شفتيا حين قطعتها صوت وصول رسالة منه كُتب فيها:

- ((رسالتُكِ محملة بجرعة زائدة من ((الدوبامين - Dopamine))، جعلت قلبي يبتسم وانضبطت دقاته تمامًا.

كان يعني حرفيًا أن رسالتي جعلت جسده يفرز هرمون السعادة بكثرة، قرأتها فابتسمت من القلب ثم كتبت إليه:

- إذًا .. فلنكمل الأمر ونطلق العنان لهرمون ((السيروتونين - Serotonin)) ولو لدقائق، أحتاج ذلك بشدة .. فما رأيك؟!

كنت أقصد من الرسالة أن نلتقي، أن يأتي وأراه كما كنَّا نفعل قديمًا فتفرز أجسادنا هرمون السيروتونين المسئول عن الشعور بالراحة النفسية.

❋❋❋

- الكثير من ((السيروتونين - Serotonin)) ينتظرك أسفل النافذة.

كانت هذه رسالته النصية القصيرة التي وصلتني بعد مضي ما يقرب من الساعة، قرأتها فابتسم قلبي، وضج وجهي بحمرة الخجل وتهللت ملامحي فرحًا، شعرت في داخل روحي الكثير من السلام النفسي، هرولت مسرعة باتجاه غرفة النوم، خلعت عن جسدي عباءة المنزل وارتديتُ بلوزة فاقع حمارها وبنطلون من الجينز الضيق ثم هرولت باتجاه الشرفة. كنت عازمة على تصنع الجدية وأن أفتعل شيئًا من الغضب والضيق، أن أصب عليه وابل من نظرات العتاب وأحرمه من رؤية ابتسامتي ولو قليلًا، فلم يكن من المعقول بعد كل ما حدث أن أقابله بملامح باشة وأبتسم في وجهه هكذا بكل بساطة.

خرجت للشرفة ولم أبحث عنه كثيرًا فقد كان جالسًا على كرسي أعلى الرصيف في مقدمة المقهى المواجه للعمارة، شرفة غرفتي تُطل عليهِ مباشرة يفصل بيننا عرض الشارع فقط، استندت بكلتا يدي على سور الشرفة ووقفت أتأمله بعينين لامعتين من الأعلى، وقد تصنعت الجدية وافتعلت أنني لست على ما يرام.

اقترب منه شخص من عمال المقهى وقد حمل بين يديه صينية صغيرة تحتوي على كوبٍ من الماء وفنجان من القهوة ووضعهما أمامه على الطاوله وهو يبتسم إليهِ في ودٍ قبل أن يلتف ويذهب باتجاه طاولة أخرى يعمل على خدمة رواد المقهى.

بملامح ملأتها الجدية وقفت في الأعلى أتأمله لثوانٍ قليلة، شعرت في داخلي وكأنه لم يتغير، كأن كل ما كان لم يكن وكأننا في يوم خلافه مع ((جميلة)) أول مرة رأيته، ما يزال الجميع هنا يعرف من هو زين زين زين، فهو مايزال محبوبًا، مُبهجًا ينشر شيئًا من الراحة والسعادة أينما حل، كان كثيرًا من المارة يتبادلون معه التحية المصحوبة بالابتسامات الودودة.



كنت أتأمله بكل حب، ما يزال كبيرًا في عيني، وما يزال هو أقرب الناس لقلبي، ليس سهلاً على المرأة أن تكره شخصًا أعطاها الأمان يومًا ما، وهبها لحظات من السعادة عن طيب خاطر، احترمها وأحترم ارادتها وعقلها، وحتى رغباتها، كان يرتدي بنطالًا من الجينز الضيق يعلوه قميص قطني أسود اللون، لم يكن ينظر باتجاهي رغم يقينه أنّي خرجت للشرفة، اكتفى بتبادل التحية مع المارة وبعض الجالسين قربه مع تناوله بعض رشفات من القهوة.

بعد دقائق قليلة كانت صلاة العصر قد انتهت، خرج المصلون من المسجد فقام عامل المقهى بإعادة تشغيل قناة ((روتانا زمان)) كما يفعل طيلة الوقت، وكانت أغنية ((أم كلثوم - دارت الأيام)) هي التي تُذاع في هذه اللحظات، وما الذها من صدفة، فمجرد سماعي للموسيقى انشرح قلبي أكثر، وكم وددت لو أنه يتوقف عن تجاهلي أو محاولاته عدم لفت انتباه أحدهم لوقوفي بالأعلى، وأن يرفع عينيه لأعلى كي يجعلني أراهم بوضوح، لكنه لم يفعل، إلى أن قالت «أم كلثوم» :

- وهمس لي قالي الحق عليه

نسيت ساعتها بعدنا ليه

فين دموع عيني إللي ما نامت ليالي

بابتسامة من عيونه نسهالي

لحظتها فقط رفع عينيه ببطء، نظر باتجاهي مباشرة وابتسم، ابتسم بلطفٍ وأومأ برأسه وهو ينطق بشفاته كلمة أعرفها تمامًا، ولطالما كان سر سعادتي يكمن في سماعها منه، رغم ذلك لم أسمعها لبُعد المسافة بيننا ولأنه يقولها همسًا، لكني قرأتها على شفتيه وصوته دق في أعمق جزء من روحي.



تلاشت الجدية المصطنعه وابتسمت له ابتسامةً عريضةً، افتعلت أنني أتحدث في الهاتف وهمست من داخل أعماق قلبي وروحي بنفس الكلمة وكررتها مرة بعد مرة بعد مرة وأنا أنظر إليه مباشرةً.

تعلقت أعيننا ببعضهم لبعض الوقت، كان يرتشف شيئًا من القهوة ثم يعود للنظر إليَّ مرة أخرى، أما أنا فكانت عيوني معلقة عليه لا تتحرك يمينًا أو يسارًا، ولا ترمش ولو لثانيةٍ واحدةٍ، مع ذلك وكما العادة في كل مرة أحصل فيها على قسطٍ من السعادة لابد وأن ينتهي الأمر بمأساة وشيء من الأسى، فقد ظهر ((نزار)) من العدم، تفاجأتُ به يقف بيننا في منتصف الشارع، ينظر نحو((زين)) بحنقٍ شديد ثم يلتفت بعينيه ينظر إليَّ في الأعلى ويصب عليَّ وابل من نظراته الغاضبة.

انتفضت مفزوعة عند رؤيته، تراجعت خطوتين للخلف فاصطدمت مؤخرة ظهري بالحائط، كاد الهاتف يسقط من بين يدي لكنني أنقذته بالتقافة بسرعة قبل سقوطه أرضًا، قمت بدسّه داخل جيب البنطلون بعناية قبل أن ألتفت وأدخل مهرولة من باب الشرفة نحو الداخل، وقفت أنتظره في منتصف الصالة بمواجهة باب الشقة، وكل جزء في جسدي يرتعد خوفًا.

بعد ثوانٍ قليلة .. انفتح الباب ودخل منه مُندفعًا، لم يسألني عن شيء، مد يده مباشرة أمسكني من الحجاب فوق رأسي، شدني بقسوة شديدة باتجاهه ثم انهال عليَّ بالضرب المبرح، حتى سقطت على الأرض تحت قدميه، كنت أتوسل إليه أن يتوقف لكنه أبدًا لم يفعل.

تشبثتُ بقدميه وأنا أتوسل إليه أن يتوقف من شدة الألم، توقف للحظات نظر إليَّ فيهم بغيظٍ شديد قبل أن يشدني مرة أخرى من شعري بعد أن أسقط طَرْحَة رأسي على الأرض، جعلني أقف على قدمي ثم



اقتادني باتجاه الشرفة، أخرجني فيها ثم انهال عليَّ بالضرب المبرح أمام ((زين)) والمارة في الشارع.

وقف المارة في الشارع يشاهدون ما يحدث بينما ظل ((زين)) جالسًا في مكانه دون أن يحرك ساكنًا، كان يزفر غضبًا لكن بلا حول له ولا قوة منه، فهو لا يستطيع التدخل.

هربت من بين يديه بصعوبة، هرولت للداخل مرة أخرى لكنه لحق بي مجددًا، أمسكني ثم سحبني بالقرب من النافذة المطلة على الشارع، أوقفني وقد لف شعر رأسي بقسوة شديدة على قبضة يده اليُسرى فاستسلمت له تمامًا، وقف يتناوب الصفعات عَلَى الخَدِّين بِكَفِّ يده اليُمنى مرة بعد مرة بكل قوة حتى سالت الدماء من بين شفتي ومن الأنف، شعرت هذه اللحظة بموسيقى حزينة تدق في أذني، أي مذلة هذه التي تجعلني أتزوج من شخص لا أحبه، ثم يموت والدي ويتركني بين يديه، ثم يعاملني كخادمة والآن يضربني بكل قسوة أمام الغرباء والشخص الوحيد الذي أحببته في حياتي.

كانت دقات قلبي تتباطأ رويدًا رويدًا، التنفس أصبح صعبًا، الأنفاس كانت تمر بصعوبة داخل رئتي، شعرت أنني على مشارف فقدان الوعي، وكان ما يزال يصفعني بقوة مُستلذًا بضربي أمام أعين ((زين))، مددت يدي ببطء مع شعور بالمذلة مسحت الدم عن شفتي والأنف فصفعني بقوة كبيرة اختل على أثرها توازن جسدي لدرجة استندت بكلتا يدي على زجاج النافذة فطبعت الدماء عليه.

لحظتها انتفض ((زين)) ناهضًا عن الكرسي وقد تمكن منه الغضب ووصل ذروته، مد يده أمسك بكأسٍ صغيرة كانت ممتلئة عن آخرها بالشَّاي المغلي، وكان ينظر نحو الأرض يكاد الغضب يجعل رأسه تنفجر،



من شدة الغضب ضغط على الكأس بقبضته فتحطمت تمامًا بداخلها، جُرِحَت يده وسالت منها الدماء، لم يكن هذا كافيًا ليشفي غليله فمد يده المجروحة ذاتها وأمسك بكأسٍ آخرٍ، كان أكبر في الحجم قليلًا من سابقه، وكان مُمتليء عن آخره بالماء، ثم وبكل قوته قذفه باتجاه النافذة التي نقف من خلفها.

كانت عينيّ في هذه اللحظة تنظر نحوه مباشرة، رأيت الكأس وهي تخرج من قبضة يده تلتف في الهواء بسرعة كبيرة كأنها رصاصة قد خرجت من قناصة جندي ينتقم لشرف بلاده الذي يهان من مغتصب.

اصطدمت الكأس بمنتصف النافذة فحطمتها تمامًا حتى إن الزجاج تطاير في وجه كلينا ثم اصطدمت الكأس برأس ((نزار)) مباشرة.

استشاط غضبًا وهو ينظر إليّ في غيظٍ شديدٍ قبل أن يلتفت بغيظٍ أشد وينظر للأسفل باتجاه ((زين)) وقد شعر بشيء من المهانة لتدخله، دفعني للخلف بقوة شديدة للغاية فسقطت على الأرض، ثم هرول باتجاه باب الشقة متوجهًا إلى الشارع.

على الأرض كنت ممددةً أرتعد خوفًا، الآن يتواجه زوجي مع الشخص الوحيد الذي أحببته طيلة عمري، ما الذي فعلته بنفسي؟!، ما الذي فعلته بنا الآن العادات والعناد يا سيد ((جمال الدين))؟!، وما الذي ينتظرنا في الدقائق القليلة القادمة؟!.

كان علي النهوض سريعًا لأتابع ما يحدث، اتكأت بكلتا يديا على الأرض الممتلئة عن آخرها بقطع الزجاج الصغيرة المنثورة في كل مكان أحاول الوقوف فاخترقت قطعًا منه كفي يديا الاثنين، جَرَحتها فنزفت هي الأخرى، مع ذلك تحملت ونهضت مسرعة باتجاه النافذة أترقب ما سوف يحدث.



كان ((زين)) قد عاد للجلوس على كرسيه مرة أخرى وقد وقف بالقرب منه شخص يساعده بالماء على تنظيف جرح يده، بينما بدأ الناس يلتفتون نحو أشغالهم عندها ظهر ((نزار)) خارجًا من رواق العمارة باتجاه الشارع ثم قَطَعَهُ متوجهًا نحو ((زين)) تمامًا، وما أن اقترب منه حتى صرخ فيه يوبخه على تدخله فيما لا يعنيه، فاجتمع الناس مجددًا، التفوا حولهم وتوترت الأجواء، ارتفعت الأصوات من جانب ((نزار)) وبعضًا من الناس الذين يحاولون تهدئته إلَّا أن ((زين)) لم يحرك ساكنًا، كان يجلس في هدوء ينظر إلى الأرض أسفل عينيه مباشرة وهو يكمل تنظيف الجرح في يده، كان هدوء أعرفه تمامًا إنه ذلك الذي يسبق العاصفة.

فهم ((نزار)) أن ما يفعله ((زين)) هو استفزاز لهُ، برود منه، فمد يده داخل طيات ملابسه من الخلف وأخرج سِكينًا ثم وعلى حين غرَّة من الجميع غرس نَّصْلُ السِّكِّين في معصم يد ((زين)) الممدة على الطاولة وسط مشاهدة جميع الواقفين في دهشة.

صرختْ .. صرختْ بأعلى صوتي حتى أن جميع المارة في الشارع والواقفين في نوافذ الأبنية المجاورة توجهت أعينهم نحو مصدر الصرخة، لحظتها حاول ((نزار)) التعدي على ((زين)) وبدأ الناس في محاولة تفريقهم لكنهم لم يفلحوا في ذلك.

كان ((نزار)) يحاول توجيه الضربات إلى ((زين)) الذي اكتفى فقط بالدفاع عن نفسه وتلاشي ضرباته، كان((زين)) قوي البنية طويل القامة في استطاعته ضرب ((نزار)) وتلقينه علقة ساخنة لن ينساها في حين أن ((نزار)) كان ضعيف البنية، قصيرًا، أهلكته المخدرات والتدخين.



كنت أشاهد ما يحدث في هلع، مشاعر مختلطة بين القلق والخوف والفزع.. ولـمَّا اشتدت الأمور بينهم لم أستطع تحمل مشاهدة ما يحدث أكثر من ذلك، غادرت المكان مُسرعة بعد أن أخذت طَرْحَة الرأس بيدي من الأرض، نزلت إلى الشارع وكان ما يزال الاشتباك بينهما قائمًا، لا أحد يستطيع منعهما.

اقتربت من ((نزار))، تعلقت في معصم يده الممسكة بالسكين وتوسلت إليه أن يتوقف عما يفعله، كان ((زين)) مُكتفيًا بمشاهدة ما يحدث، توقف تمامًا عن الاشتباك معه، لكن ((نزار)) لم يتوقف، كان ما يزال مصرًّا على ما يفعله فقام بدفعي بكل قوته على الأرض، سقطت على الأَسْفَلْت بقوة شديدة فصرخت بشدة من الألم ومن الخجل.

انتفض ((زين)) مهرولًا باتجاهي، ساعدني على النهوض عن الأرض وتغطية جسدي، بينما استغل ((نزار)) الفرصة ووجه له دفعةً قويةً بقدمِهِ فأسقطهُ على الأرض ثم قام بتوجيه صفعة قوية إليَّ مُجددًا أسقطتني على الأرض مرة أخرى.

كنت على الأرض بالقرب من ((زين))، وكانت دمائي تسيل من الشفتين والأنف وكلتا كفي يديَّ أيضًا، كما أن عيني مغرورقة تمامًا بالدموع والوجه شاحب أزرق من كثرة البكاء.

انتفض ((زين)) واقفًا وقد لمعت عيناه بالدموع حُزنًا عليَّ وبدت في ملامحه علامات الغضب الشديد مع اليأس من أن يتوقف ((نزار)) عما يفعله، فتوجه مندفعًا صوبه وقام بتوجيه وابل من الضربات الشديدة إليه، كان يلكمه باليدين والقدمين دون رحمة حتى أسقطه أرضًا وسالت الدماء من رأسه ووجه.



نهضت عن الأرض سريعًا، اقتربت من ((زين))، أمسكته من معصم يده وكان ممسكًا ((نزار)) بيده الأخرى، أخبرته بصيغة الأمر أن يتوقف، توقف الآن وفورًا.

نظر إليَّ للحظةٍ ثم قام بصفع ((نزار)) على وجهه بقوة، فقمت فورًا برد الصفعه لهُ على وجهه بكل قوتي، ولـمَّا كان كف يدي غارقًا بالدماء نتيجة الجرح مُتسخًا بالتراب نتيجة السقوط أرضًا فقط تركت الأصابع الخمس علامات مرسومة بالدماء المخلوطة بالطين على وجهه.

وقف مندهشًا، لا يصدق ما فعلته، عقله يرفض تصديق ما حدث، بينما وقفت أرتعد ترتعش أوصالي، مُمسكةً يدي التي ضربته بها بيدي الأخرى وكان جسدي بالكامل مايزال ينتفض وكأن زلزالًا بقوة 10 ريختر قد ضربني، ليس خوفًا منه وإنما عجزًا عن استيعاب ما فعلته.

كان ينظر إليّ وكأن صاعقة من السماء قد ضربة رأسه، لم ينبث بكلمة واحدة، لم يحرك ساكنًا، اكتفى بنظرة عتاب لحقها بأغماض عينيه والإيماء برأسه وكأنه يحاول تهدئة نفسه واستيعاب ما حدث، عندها انهرت باكيةً وأخبرته بصوت متقطع يكاد يخرج من بين شفتي.

- ابن عمي يا زين..ابن عمي.

خطوت بضعفٍ ووهنٍ مهزومةٍ أقترب من ((نزار)) الذي كان ما يزال جالسًا على الأرض، مددت يدي إليه أساعده على النهوض، أوقفته ثم قمت بمسح الدماء عن شفتيه باستخدام كُمُّ البلوزة التي أرتديها، لم ينبث بكلمةٍ واحدةٍ بعدما أوقفته، اكتفى بالنظر إليَّ غاضبًا فقمت بدفعه برفقٍ أمامي أُحسه على التحرك لنعبر الشارع ونصعد إلى شقتنا، ولم يعترض.



كانت طرحة رأسي قد سقطت على كتفي أثناء المشاجرة لكنها بقيت ملتفة حول رقبتي، أثناء مروري بجوار ((زين)) وقفت، نظرت في عينيه مباشرة وكانت عيني ما تزال ممتلئة عن آخرها بالدموع، وأمام نظرته الممتلئة بالعتاب انهرت، فتحول البكاء الصامت إلى بكاءٍ بشهقات، كانت نظرتي إليه نظرة بدا فيها اللأسف والاعتذار واضحًا للغاية، لكنني لم أكتفِ بها، لذا قمت بفَكِّ الطرحة عن رقبتي ومددت بها يدي إليهِ لكي يستخدمها في إزالة الدماء عن وجهه، ثم أكملت اللحاق بابن عمي.

❊❊❊



(٩)

- ربما تزوجت بي من دون رضاكِ، ربما لا تتصرفين كزوجتي أيضًا، لكن عندما تفعلين شيئًا من شأنه المساس بالشرف والكرامة.. أقتلكِ.. الآن .. لا أريد رؤيتكِ، أجمعي أغراضكِ وأرحلي باتجاه والدتك.

كانت كلمات مقتضبة أطلقها في وجهي عند دخولي من باب الشقة، قالها بحزم وجدية، كانت نبرة صوته تشير إلى أنَّهُ شخص وجد نفسه، على نحو غير متوقَّع، في موقع قوة وسلطة، فقرر أن يستغلّ ذلك إلى أبعد الحدود، قالها بنبرة لم أعهدها وأيضًا لم أتوقعها، صعقتني كلماته، فَعلى الرغم من أنني لا أحبه ولم أرغب يومًا في اقتسام الحياة معه إلا أن هذا لم يكن وقتًا مناسبًا أبدًا أعود فيه منزل والدتي، كانت ((فطوم)) مريضة للغاية، لا تحتمل أن أدخل عليها منبوذة، مرفوضة من قبل زوجي رغم معرفتها بكل تفاصيل حياتنا المؤلمة. كما أنها لن تحتمل رؤية الإصابات والجراح المنتشرة في أنحاء جسدي الذي أصبح ضعيفًا كجسد عاهرة أهلكت نفسها في تناول المخدرات، أو عفيفة اغتصبها قطيع من ذئاب البشر.

كانت عيناها السوداويَّتان تتقدان وهو ينظر إليَّ، يرمقني بنظرة مُتفحصة تنمّ عن احتقار واضح وازدراء ظاهر، الواضح أنهُ اشمئزَّ مما فعلت، واشمئزَّ أكثر لأنني نزلت اليهم.



ترقرقت الدموع من عيني وانا أقول :

- أرجوك، لا ينبغي أن تتصرف تحت وطأة الغضب . . .

- إخرسي تمامًا، و أرحلي .. لا أريد رؤيتك هنا.

امتقع وجهي امام نظراته، كم يسهل على المرء أن يتحوَّل من الحبِّ إلى الكراهية! إن قلب الذَّكر في بلاد الشرق أشبهُ بالكره في نهاية رقاص الساعة، يتأرجح من طرف أقصى إلى آخر والرجال يعشقون عشقًا مبالغًا فيه، ويثورون ثورة مبالغًا فيها، ويكرهون كراهية أكثَّر مما يجب لها، فيتذبذبون بين أداء العاشق المتيم وبين دور المسرف في الاحتقار، معلقين فوق الحطام العاطفي الذي كان في يوم مضى شغفًا وحبًا.

أمام أصراره وقفت عاجزة تمامًا، لم تكن لدي خطة عن كيفية التصرف، لو بقيت أمامه ربما انهال عليّ بالضرب مجددًا كما يفعل دائمًا، وإن أطعته ربما ماتت فيها ((فطوم)) من القهر والحسرة على ما يحدث لابنتها. الأمر كان أشبه بأن تقف على قطعة أرضٍ ساخنة بقدمين عاريتين، لم يُفدك الركض ولا الوقوف على ساق واحدة، أنت لا تجد حلًا إلا أن تجعل قدميك تنصهر في صمت.

وكعادة كل مرة، اخترت أن أنصهر في صمت، لا شيء جديد فلطالما داويتُ جراحي بنفسي، لكن هذه المرة الجرحُ في جوفي، ولكم هو مؤلم الّا تصل يد المرء إلى جرحه. كنت أشعر بما يشعر به كهل يحمل دواء زوجته التي تُنازع الموت، كهلٌ يركض بخطواتٍ ثقيلة لإنقاذ آخر ما تبقى له دون أن يجد من يمُدّ له يد العون ليعبر الشارع.

منشغلة بسلامة الجميع، أخشى على ((فطوم)) أن تتأذى لأجلي، أخشى على ((زين)) أن يصيبه مكروه بسببي، أخشى على ((نزار)) أني



تسببت لـه في الأذى و أحمـل في رأسي المزيـد مـن القلـق عـلى ((جميلـة)) مـن ((رشـيد)) .. كُل هـذا ونسيتني. نسـيتُ نفـسي تمامًـا.

***

التَفـت إليَّ وكنـت مـا أزال واقفـة في مـكاني كمـن تسـمرت قدميهـا في الأرض، صرخ فيّ بأعـلى صوتـه، فزعنـي، فبكيـت مُجـددًا. اقـترب منـي، أمسـكني مـن شـعري، اقتـادني بعنـف إلى خـارج بـاب الشـقة ثـم دخـل وأغلقـه مـن خلفـه.

عنـد البـاب وقفـت لدقائـق بـدت لي وكأنهـا سـنوات.. وقفـت فاقـدة بوصلـة الاتجـاه، يسـيل الدمـع مـن عينـي بـلا توقـف، فجـأة انفتـح بـاب الشـقة المواجـه لبـاب شـقتي، ففزعـت .. التفـت بلهفـة في قلـق لاجدهـا «سُـميّة» صاحبـة الشـقة المجـاورة. كنـت في حالـة سـيئة يرثـى لهـا، ملابـسي شـبه ممزقـة، شـعري عـارٍ وجهـي أزرق مـليء بالدمـاء والكدمـات، لا يوجـد شِـبر في جسـدي إلا وفيـه آثـار كدمـة أو جـرح. ازداد بُكائـي لحظـة رؤيتهـا، كانـت حالـة الإعيـاء واضحـة تمامًـا في ملامحـي، نظـرت إلى الأرض في بـؤس شـديد فاحتضنتنـي وسـحبتني إلى الداخـل دون أن تنبـث بكلمـة واحـدة، ومـا أروع أن تكـون المواسـاة في بعـض المواقـف عـلى هيئـة صمـت. أعطتنـي بعضًـا مـن ملابسـها، جعلتنـي أحصـل عـلى حمـام مـاءٍ سـاخن لديهـا ثـم عرضـت عـليّ المسـاعدة، وقبـل أن أعلـق عـلى عرضهـا ارتفـع صـوت نغمـة الهاتـف المخصصـة لـ ((جميلـة)).

***

التقينـا عنـد مدخـل العـمارة حسـب اتفاقنـا، صعدنـا إلى شـقتها وكانـت مـا تـزال تكـرر طلبًـا واحـدًا فقـط. أن أقُـص عليهـا مـا حـدث وأسـبابه، لم تكـن لـدي طاقـة للنطـق بحـرفٍ واحـد، كانـت لـدي رغبـة في النـوم أو المـوت،



لكنها لم تصمت وعادت تكرر السؤال، أعرفها جيدًا لن تتوقف حتى تعرف كافة التفاصيل، وأمام عنادها وافقت أن أقص عليها لكن شريطة ألا تعطيني نصائح أو تضغط علي بأي كلمة مزعجة قد تجعلني أقتل نفسي بعدها.

ما إن انتهيت من سرد الأحداث أخبرتها أنني سأقيم لديها بضع أيام، تشفى فيهم بعض الإصابات وتتحسن حالتي ثم أتوجه برفقتها إلى شقة والدتنا ((فطوم)). وقد أكدت عليها ألا تخبر والدتنا بشيءٍ فهي لن تحتمل فيّ سوء، كنت على علم بأن إحساسًا بالذنب تجاهي يرافقها في كل يوم، يعكر مزاجها، يُزيد من حدة المرض والاكتئاب عليها. أكدت على ((جميلة)) أن تكتفي فقط بذكر أنني منشغلة مع ((نزار)) قليلًا وسوف أزور ((فطوم)) لاحقًا.

كانت ((جميلة)) في الشهر الثالث من الحمل، وقد جهزت لطفلها المرتقب قدومه غرفة كاملة .. يؤسفني أنني سبقته واقتحمتها وسأبيت فيها لعدة أيام. بينما دخلت لتجهيز الغرفة اتصلت هي على رشيد، طلبت منه الحضور على الفور. عند حضوره أخبرته ما حدث حرفًا حرفًا وكنت قد أكدت عليها ألا تفعل، لكنها فعلت مما جعلني أغضب، لكن ما باليد حيلة .. على المرء عندما يوضع بين أمرين كلاهما مُر أن يختار أقلهما مرارة.

❋ ❋ ❋

انتصف الليل .. مع ذلك ورغم الألم الضاجج به جسدي لم أستطع النوم، كنت في الفراش أتقلب كمن تستلقي على حجارة من سجيل، كل الأوضاع مؤلمة، كل جزء من جسدي فيهِ جُرح أو كدمة. لم يكن هذا



وحده ما جعل النوم يطير من عيني، إنما القلق، التساؤل الذي يدور في رأسي ولا يتوقف: كيف حاله وما الذي حدث!!

كان القلق يأكل رأسي، ينهش في عقلي، مما دفعني للاتصال به .. قوبل الاتصال بالرفض.. جاء الرد لاحقًا بعد ثوانٍ قليلة بِواحدة من رسائل الهاتف الجاهزة. كانت تقول: إنني مشغول الآن. سوف أتصل بك لاحقًا.

لثوانٍ قليلة قبل النوم شردت، خيّل لي أن الحياة مع ((نزار)) أوشكت على الانتهاء، فكرتُ أنها فرصة مناسبة للتمسك بالانفصال وإنهاء هذه القصة. ثم أنا و((زين))ما نزال على وفاق، وما يزال بيننا تفاهم. لا أنا التي تغيرت ولا هو الذي تبدل. من أجل ذلك رأيت أن أنهي لعبة القط والفأر، لا داعي لوجود قفل برقم سري للهاتف ولا داعي لحذف السجلات أولًا بأول أو جعل رقمه مجرد رقم مجهول في الهاتف أو يُحذف ثم تتم كتابته في كل مرة أرغب في أن أتصل عليه، لذا قمت بحفظ رقمه باسمه القديم كما كان. ((عزيز صدري)). بعدها وضعت الهاتف على الوسادة بالقرب من رأسي خشية أن أنام. حتى إذا ما اتصل استفقت سريعًا على صوت الرنين.

***

صباحًا: جلست عند حلفة السرير، مدت أصابع يدها تحركها ببطء تجعلها تتجول بين خصلات شعري المتناثرة على الوسادة برفقٍ وهدوء. فتحت عيني .. ابتسمت إليها .. بادلتني الابتسامة في ود، كانت ترتدي روبًا أسود يكشف كثيرًا من جسدها الضاجج بالأنوثة، مع بشرتها البيضاء بدت لي وكأنها آية في الجمال، أن يبدأ النهار برؤية وجه حسن يبتسم في وجهك لهي نعمة من الله. شيء يريح النفس كثيرًا. أخبرتني وهي تشير إلى صينية الإفطار الموضوعة على المِنْضَدَةُ.



- أعددت لكِ الأفطار الذي تحبينه.

كانت الصينية تحتوي على طبقين أحدهما ممتلىء بقطعٍ من الكِيك المصنوع من الزُّبْدُ الفلاحي الطازج كما التي تصنعه ((أُم بربارة)) تمامًا، أما الآخر فكان قد امتلىء هو الآخر بالقشدة المخلوطة بعسل النحل المُصفى .. خلطة شهية للغاية تبدو لي دائِما لذيذة الطّعم.

شعرت بالبهجة، سرى في دمي شيئًا من الامتنان تجاه ما فعلته. نهضت عن السرير.. اعتدلت.. جلست بصعوبة، كان جسدي ما يزال يؤلمني بشدة من آثار ليلة الأمس وما كان فيها، مددت يدي أمسكت قطعة من الكيك، قمت بوضع قليلًا من القشدة الممزوجة بالعسل عليها ثم بدأت في تناولها، بينما مدت ((جميلة)) يدها أخذت الهاتف من على الوسادة وبدأت تتجول فيه وهي تتحدث إليّ تمازحني برقة شديدة تخبرني أن لديها سمة حنين في قلبها لأيام كنا فيها ننام متجاورتين في غرفة واحدة. تبتسم في عذوبة وهي تحكي كيف كنا ننام تحت الأغطية ومع ذلك نظل نتحدث إلى بعضنا البعض وقتًا طويلًا من أسفل الغطاء إلى أن يغلب أحدنا النعاس ويذهب في النوم.

فجأة تبدلت نبرة صوتها .. زَفَرت في غضب وهي تومىء برأسها تستنكر ما تقرأه.. نظرت إليها مدققة النظر فيها أنتظر منها أن تنطق بشىء يوضح سبب الغضب الذي بدا لي فجأة في صوتها. كانت ملامح وجهها قد تبدلت، تلاشت الابتسامة وحل محلها كثير من الضيق، بدت في ملاحها علامات الانزعاج مع الغضب. وهي تقول ..

- قلت لكِ سابقًا .. احذري .. أنت تلعبين بالنار، زين ليس شخصًا مناسبًا .. و لم تستمعي إليّ. اتخذتيني عدوة.. الآن فقط أصبحتي رخيصة، ينظر إليكِ وكأنك عاهرة.



كنت أمضغ قطعة شهية من الكيك المغمس بالعسل والقشدة، ما إن اختتمت جملتها بكلمة ((عاهرة)) حتى استشعرت وكأن ما أمضغه مُسمم، أو مُغمس من وعاء مليء بالقاذورات. توقفت اللقمة في حَلقي. اعترتني حالة من الدهشة الشديدة مع الاستغراب مما تقوله وقد اعترتني حالة من القلق. أفكر سريعًا ما الذي رأته في الهاتف جعلها تقول تلك الكلمات.

في تردد سألتها ..

- ما الذي جعلك تقولين ذلك يا جميلة؟!

لم ترد على السؤال، اكتفت بتوجيه نظرة مليئة بالخيبة والقرف إليّ قبل أن تمسك الهاتف بين أصبعيها الإبهام والسبابة وتضع الشاشة أمام عيني مباشرة. كانت الشاشة مفتوحة على نافذة الرسائل الواردة من «عزيز صدري». وقد كتب فيها رسالة نصية تقول: أتيت بالأمس فقط لأثبت لنفسي أنكِ تغيرتي. أصبحتي رخيصة، مجرد خائنة لزوجها، والآن لا أريدك في حياتي، أفهمي أن لدي زوجة وأطفالًا، من فضلك أريد لحياتي الاستقرار وأن تبقى نظيفة كما هي بدونك.

كانت الرسالة واضحة تمامًا، اسم المرسل ((عزيز صدري)) كما دونته بالأمس، اعترتني حالة من الذهول مع الحيرة، مستحيل، أقول لنفسي:

- لا يمكن أن يكون هذا هو الشخص الذي عرفته لسنوات.

وأرد عليها:

- ومَن مِنَّا بقي على حاله.

لم تعطني ((جميلة)) فرصة في التفكير، صرخت في وجهي تطالبني أن أعود إلى رشدي، أن استخدم عقلي، بكت وصرخت، وقفت تنظر إليّ في غضب واتهمتني أن السيد ((جمال الدين)) قد مات قلبه مُمتلئًا بالحزن



بسببي، نظرت داخل عيني مباشرة ثم قالت: إن ((زين)) محقٌّ في أن يراني رخيصة. عندما تقوم امرأة متزوجة بالاتصال على شخص ما كانت تربطها به علاقة غرامية تطلب منه أن يأتي إليها عند منزل زوجها، فله كل الحق أن يراها مجرد مومس وعاهرة.

اكتفيت بالصمت، لم أستطع الرد، كنت كمن وضعوا قلبها في الزيت المغلي فتوقف وماتت في لحظتها لم تستطع إخراج ولو صرخة استغاثة واحدة، أو كمن تمكنت منها الكهرباء، أحترق من الداخل ولا أستطيع النطق. فقط تسيل الدموع من عيني بلا توقف. لحظتها قامت بفتح غطاء الظهر للهاتف وهمت بإخراج شريحة الاتصال من داخله وأتلافها، ثم ضربته بكل قوتها في الحائط لينزل على الأرض محطمًا من قوة الضربة وقد أصبح قطعًا صغيرة لا تصلح لشيء.

لم يكن الهاتف هو الذي تحطم، بل قلبي، أحلامي، آخر أمل في أن أكون جزءً من حياته، مؤسف أن تحارب وتجاهد في سبيل شيء ما تظن أنه حقك لكنه رغم كل ما تفعله يخذلك. فتحبط وتستسلم، ثُم تشعر بأنك مُتعب من كل شِيء ومن اللا شيء، تود لو أنه بإمكانك أن تُغمض عينيك فقط، تغادرك الروح وينتهي كُل هذا.

❋❋❋

على مدار أسبوع استلقيت في السرير تقتلني الوحشة، نائمة على هيئة الحرف (د). أرتدي عباءة سوداء وكأنني في عزاء على روحي، لم تجف الدموع من عيني دقيقة، حسرتي مثل حسرة الغُراب الذي قالوا بأنه يجلب الشؤم والحظ السيّء، وتناسوا بأن جثثهم ستكون مُلقاةً على السطح لولا نبشِه، إنهم يذكرون جيّدًا بأنه لصّ وسارق مُحترف، وينسون بأن الأرض حتمًا ستتعفّن بأجسادهم الميّتة لولاه.



رغم تلك الحالة .. لم تتوقف أو تمل ((جميلة)) من محاولات إقناعي بالعودة إلى ((نزار))، أخبرتني أنه لا مفر من العودة، إنني من أخطأت وأن أي رجل شرقي في مكانه كان ليقتنلي على ما فعلته، ولأجل من؟ لأجل شخص اتهمني بأنني عاهرة.

ويبقى تكرار الكلام أشد من السحر فأمام إصرارها وجدت نفسي أتراجع عن العناد وأوافقها، ما ساعد في ذلك أن رسالته كانت عالقة في مخيلتي ليست فقط كرسالة نصية مقروءة بل كانت تتردد في رأسي بنبرة صوته وكأنه قد ألقاها على مسامعي وجهًا لوجه. كما أنني لم أرغب في الذهاب إلى ((فطوم))، كنت أخشى عليها أن يصيبها سوء، وعليّ إن فقدتها هي الأخرى وشعرت للحظة أنني السبب في ذلك.

مساءً .. عاد ((رشيد)) من الخارج مصطحبًا ((نزار)) في يده، كان حاملًا صندوقًا صغيرًا، هدية وصفها بأنها بسيطة لزوجته وابنة عمه الجميلة ((منة الله)). فتحتها وكانت عبارة عن هاتف جديد يحوي على شريحة اتصال جديدة بدلًا من التي حطمتهم ((جميلة))، يبدو أنها لم تترك شيئًا للصدفة، رتبت لكل شيء جيدًا.

جلس أمامي، توسل إليّ أن أسامحه وأعود برفقته إلى شقتنا، أخبرني أنه يشتاقني، لا يستطيع أن يتخلى عني، وأكد على كلامه كل من ((رشيد)) و ((جميلة)). أمام ثلاثتهم والضيق المتملك قلبي من ((زين)) .. صمتّ. لم أعطِ ردًا بالموافقة أو الرفض. مما جعلهم يعتقدون كما السائد أن ((السُّكُوت علامة رضا)).

لا أعرف كم الغباء والحماقة لدى من قال ذلك .. الِامْتِنَاعُ عَنِ الكَلَامِ لم يكن أبدًا علامة رضا، إنما هو جواب لقلة الحيلة، للتعب من التبرير



والعتاب، إنما هو دليلٌ على الاستسلام، إن السُّكُوت قد يكون دليلًا عن كل المشاعر السيئة المكبوتة إلا الرضا. ويُقال إن أكثر الأشخاص تعرضًا للمرض النفسي في حياتهم هم هؤلاء الذين يكتمون أوجاعهم، من يكتفون دائمًا بأن يكون عتابهم على هيئة سكوت.

❋ ❋ ❋



(٩)

كثيرًا ما يفرض الواقع على المرء أن يقف أمام عدة اختيارات جميعها شديدة الألم، ولا شيء أشد ألمه ألمًا من اختيار المرء أن يبتر بعضه لينقذ بعضه الآخر، لأن هذا أشد أنواع الاختيارات بؤسًا وتحطيمًا للنفس، ويبقى العزاء الوحيد أن من يفعل ذلك دائمًا ما يكون مضطرًا.

كانت ((فطوم)) تتصل عليّ عند كل صباح، تشتكي وحدتها في غيابي واشتياقها للاطمئنان عليَّ. كنت أطمئنها على حالي وأتحجج لها في كل مرة بكذبة جديدة، لم يكن لديّ اختيار سوى العودة معه، خشيت إن رفضت وذهبت إليها أن تموت قهرًا، لذلك عدت معه، لأسبوعين كاملين كنت كأي امرأة غبية لاتزال متشبثة بأمل أن يعود من هجرها، يعتذر فأسامحه.. كنت أظنه سوف يتصل، ظننته كان مندفعًا عند إرساله تلك الرسلة القاسية وسوف يعود لينقذني من الحياة مع شخص لا أفهمه، لا أحبه، لا أشعر معه بالأمان.. لكنه أبدًا لم يسأل وهذا جعل روحي تنطفأ أكثر وأكثر ومكانته في قلبي تتضاءل. وأمام إيماني بأنه لا جدوى من البقاء ولا أهمية للاستمرار في علاقة إن لم تشعُر بأنك على قيد الحياة فيها. استسلمت. ارتضيت بالأمر الواقع. من أجل ذلك تراجعت عن استخدام حبوب منع الحمل وكنت قد واظبت على استخدامها حفاظًا على ألا أحمِل طفلًا من ((نزار))، قررت تنفيذ نصائح ((فطوم))، ربما



أنه حقيقي، وإن الله سوف يصلح من شأنه عندما نرزق بطفلٍ يراه أمام عينيه.

مع مرور الأيام عدت إلى حالة الصمت القديم، فقدت القدرة على الكلام والمجاهدة في سبيل النجاة، قررت أن أصبح زوجة مطيعة وصالحة، مجرد خادمة، رغم ذلك لم أجد شيئًا قد تغير للأفضل، إنما وجدته لشهور طوال ينصرف عني وكأنني زهرية في المنزل ليس لها إلا بضع حوائط تحميها من الناس، بدأ يمارس حياته الاعتيادية، يقضي يومه خارج المنزل ثم يعود مرهقًا، يأخذ من جسدي ما يرغبُ فيه ثم ينام حتى منتصف النهار ليبدأ من جديد في إعادة ما يفعله كل يوم.

لم تكن مجرد بضع شهور عادية انقضت في سلام.. ففي أولها غادر العم «رؤوف» الحياة وترك السيدة ((أُم بربارة)) وحدها بدونه بعد زواج كان قد دام 60 عامًا كاملة، حضرت جنازته في الكنيسة بجوارها، لم أكن لاتركها وحدها وهي التي لم تتركني أبدًا، كانت تعتز بي منذ الوهلة الأولى التي عرفتني فيها، واستمرت في معاملتي وكأنني ابنتها طوال تلك السنوات الفائتة، كما أنها واظبت أثناء زواجي على زيارتي من وقتٍ لآخر وإحضار الكتب والروايات الجديدة، أو ما أطلبه منها، كما أنني كنت كلما ضاقت عليّ الحياة أهرب إليها، أجلس برفقتها ما استطعت سرقته من الوقت، أفضفض لها بما يجول في قلبي من ألم وتحرص هي أن تعطيني بعضًا من خبرتها في الحياة. كنت أئتمنها على كل شيء. في الحقيقة لم يكن هناك أحد أقرب إليّ منها ومن القطة ((منكوشة)) التي هرمت هي الأخرى وأخشى أن تتركني وحيدة. في نفس الشهور رزقت ((جميلة)) بصبي جميل يشبهها تمامًا، أطلقت عليه ((جمال الدين)) تيمنًا باسم والدنا رحمة الله عليه، أمَّا في آخر تلك الشهور حدثت المصيبة، ماتت



((فطوم))، دخلت في نوبة سكر قضت عليها، غادرت الحياة وتركتني وحيدة تمامًا لأصبح يتيمة الأب والأم مع رجل غير مسئول وما أسوأها حياة التي تحياها مع شخص عديم المسئولية.

***

بعد أسابيع من وفاتها .. كنت في المطبخ عندما ارتفع صوت جرس الباب، خرجت باتجاهه لاستكشاف من يدق الجَرَس. فتحت الباب .. وجدتها تقف أمام عيني مباشرة، ما تزال كما هي جميلة الملامح بوجه باش للغاية، ضئيلة الجسد، لم يغيرها الزواج والحصول على طفلين. كانت ترتدي الاسود، فهمت أنها قد أتت لزيارتي بغرض تأدية واجب العزاء.

عانقتني في رثاء وكان قلبي يدق دقات غير منتظمة وأنا أدخلها من باب الشقة، جلسنا متقابلتين، كلما نظرت إليها أرتجف، إن المرء قد يحب شارع بطوله، عائلة بأكملها، أو حتى مدينة لأجل شخص ما نحبه ويعيش فيها، فما بالكم بأن تجلس أمامي شقيقته التي تشبهه تمامًا، تبادلنا أطرف الحديث، سردت قصة الأيام التي ابتعدنا فيها عن بعضنا في دقائق.. عن زواجها من ابن خالتها وأطفالها، عن فقدانها والدتها السيدة فريدة وما مروا به، اعتذرت عن تقصيرها في حقي ولو بالسؤال واعتذرت لها لنفس السبب. رغم معرفتي المسبقة بأن لا داعي للاعتذار فالحياة سوف تسرقنا من أصدقائنا وعائلاتنا سواء شئنا أو رفضنا، فكل فترة ومرحلة عمرية ولها أشخاص مناسبون لها.

لساعتين كاملتين تحدثنا في كل شيء إلا أنني تعمدت ألا أقترب من سيرته، رغم أنه كان حاضرًا في رأسي وخاطري طوال الساعتين، كانت تحمل شيئًا من رائحته، ملامحه، ضحكته تبدو واضحه كلما ضحكت..



ولأن إخفاء الاشتياق وجعٌ آخر وأنا اكتفيت أوجاع تجرأت وسألتها على استحياء بصوتٍ بدا فيه الكثير من الأسى :

- كيف حاله؟! أمازال يتذكرني بخير؟!

- مثلُكِ لا تُنسى، ومثله لا يَنسى شخصًا أحبه بصدق.

ترقرقت الدموع من عيني على الخدين وأنا أسألُها :

- أتمنى لو أعرف لماذا تخلى عني مرتين!!

ما الذنب الذي اقترفته في حقه ليفعل فيّ ما فعله. كنت أظنه الإنسان الوحيد الذي سيبقى لي سندًا ومتكئًا في كل وقت، حتى لو لم نكن زوجين، كان يكفيني أن نبقى صديقين، أو يعتبرني مثلكِ، شقيقته.

بدت في ملامحها ردَّة فعل مُحيرة، بدت لي مُستغربة لما تسمعه، مُندهشة، نظراتها تشي أن هناك شيئًا لا تصدقه. سألت باستغراب :

- مَن تخلى عن مَن!!

كانت تعرف قصتنا بالكامل منذ بدايتها قبل سنوات، كما أنها بالطبع تعرف شقيقها عن ظهر قلب، فقالت بجدية وقد بدا لي أنها تخبرني :

- زين لا يكذب.

- لكن هذا ما حدث يا مومو.

- ما الذي حدث؟!

- أرسل إليَّ رسالة سيئة للغاية.

قال فيها إنني أخرب عليه حياته وإنه يراني ...

- ...

- يراني ...

- كيف يراك .. تكلمي؟!



- قال إنه يراني عاهرة.

- مُستحيــــــل .. ((زيـن)) لا يُخطـيء في حـق امـرأة حتـى الغريبـة، فـما بالـك لـو كانـت هـذه المـرأة ((هبـة الله)). إنـه يعتبرك بعـد الله في الأرض. أقسِـم بجميـع أسـماء الله المقدسـة أنـه أَقسَـم لي ذات مـرة بأنـك كبـده وأغلى عنـده مـن الدنيـا ومـا فيهـا.

- صدقيني إن ....

قاطعتني بلهفة :

- انتظـري انتظـري .. كانـت هـذه المشـكلة قبـل سـنة؟! أليس كذلـك!! ومـا حـدث كان العكس، أنـت أرسـلتي إليـه رسـالة قلتـي فيهـا إنـه يخـرّب عليـكِ حياتـك. يتسـبب في تشـويه سَّـمْعَة زوجـك وعائلتـك، إنـه لـو كان رجـلًا مـا أتي أسـفل بيتـك وهـو يعـرف أن زوجـك يكرهـه.

- هـذا لم يحـدث، لم يحـدث ولـن يحـدث، أمـوت قبـل أن أوجـه لـه رسـالة تؤذيـه.

تناقشـنا لعـدة دقائـق حـول مـا حـدث في محاولـة منـا للوصـول إلى الحقيقـة.. فجـأة قـررت مومـو أن تقطـع الشـك باليقـين، أخرجـت هاتفهـا مـن حقيبـة اليـد خاصتهـا، فتحـت نافـذة دردشـة وكتبـت إليـه تطلـب منـه دون نقـاش أو جـدال أن يأخـذ صـورة كاملـة للرسـالة الأخـيرة التـي وصلتـه مـن هاتـف ((منـة الله)) قبـل سـنة، التـي تخـبره فيهـا أنـه يخـرب حياتهـا ثـم يرسـلها إليهـا في الدردشـة.

قالـت وهـي تنتظـر تعليقـه أنـه مـازال محتفظًـا بالرسـالة يرفـض حذفهـا لتذكـره دائـمًا بالخيبـة في حبـه لـكِ .. بعـد ثـوانٍ قليلـة وصلـت الصـورة. مـدت يدهـا باتجاهـي تعطينـي الهاتـف.. أخذتـه منهـا وكلتـا يـدي ترتعشـان،



وكأنني على وشك الإصابة بالشلل.. تفقدت الرسالة.. كانت حقيقية تمامًا، المرسل ((هبة الله))، رقم الهاتف تحت اسم المرسل هو نفسه رقمي الخاص في هذا الوقت والتي قامت ((جميلة)) باتلافه يومها.

استأذنتها في إرسال نسخة من الرسالة المصورة إلى نفسي ثم فعلت .. بعدها أكدت عليّ أن ما من أحدٍ أحب امرأة مثلما أحب زين المغربية هبة الله. قالت على لسانه:

- لقد أحببتها بطريقة وددت لو يحبني أحدٌ بالطريقة نفسها.

بعد دقائق استأذنت المغادرة إلى منزلها خشية أن تتأخر على زوجها وطفليها، أوصلتها حتى باب المصعد ثم عدت للشقة .. جلست صامتة لدقائق بينما عقلي يصرخ، بداخله حالة من الحيرة الشديدة. أتساءل ماذا حدث؟! أشعر برائحة غدر وخيانة في الأمر.

***

تفقدت الرسالة لعدة مرات، نفس الأخطاء الكتابية، الهاء المربوطة بديلة التاء، الزَّاي بديلة الذال ونقطة نهاية الجملة بين الجمل وليست الفاصلة، فتحت موقع التواصل الاجتماعي، تفقدت منشوراتها الخاصة، ثم فتحت نافذة الدردشة بيننا وتفقدتها هي الأخرى، فوجدت نفس الأخطاء الكتابية.

شعرت أن دمائي تحترق.. لقد غدرت بي دون أن تكترث لما سوف يحدث لقلبي نتيجة ما تفعله، ارتديت ملابسي ثم غادرت الشقة متوجهة إليها.

عند باب شقتها وقفت أدق جرس الباب بعصبية لم أعهدها في نفسي من قبل، كان الغل قد ملأ نفسي منها وكنت أزفر غضبًا، فَتَحت الباب،



دفعتها بشيء من الخشونة للخلف أبعدتها عنه ثم دخلت منه مباشرة خلفها وأغلقته من خلفي بقوة، وَقَفَت مستغربة تنظر اليّ في دهشة. لم أعطها فرصة أن تسأل .. أمسكت معصم يدها وسحبتها خلفي حتى غرفة ابنها، أجلستها تمامًا حيثما كنت أجلس ليلتها .. فتحت الهاتف على نافذة الرسائل، فتحت لها الرسالة المصورة ثم أمسكت الهاتف بين أصبعي الإبهام والسبابة ووجهت الشاشة إلى وجهها تمامًا كما فعلت معي ليلتها.

أخبرتها: نفس الرسالة التي وصلتني من ((زين)) تقول إنني عاهرة أفسد حياته كانت قد وصلته في نفس الليلة من هاتفي ذاته .. تقول إنه خائن، فاسد، يفسد حياتي .. أقسم بجميع أسماء الله المقدسة، وبرحمة السيد((جمال الدين)) والأُم ((فطوم)) و ((زين))، لو لم تخبريني حقيقة ما حدث تلك الليلة لأعتبرتك في تعداد الأموات وقاطعتك ما تبقى من عمري.

نظرت إليّ مفزوعة للحظات ثم بكت، فأعدت القسم مجددًا، أكدت عليها لو لم تقص عليّ الحقيقة سأخرج من شقتها وقد أعتبرتها ماتت، قلت لها : ليلتها حاولت التواصل معه لكنه كان مشغولًا، أرسلت إليه رسالتين وأنتظرت الرد، عندما تأخر الرد وضعت الهاتف على الوسادة جهة اليمين من رأسي بيني وبين الحائط ثم نمت، لكن عندما دخلتي أنت بالإفطار وجعلتيني أستفيق من النوم كان الهاتف على يسار رأسي بين جسدي والمِنْضَدَةُ.

الآن أخبريني تفاصيل ما حدث ليلتها.

صمتت للحظات قبل أن تقول:

- كل شيء فعلته كان لمصلحتك .. كان بدافع الحب والخوف عليكِ. ما حدث يومها هو أن ((رشيد)) غادر الشقة باتجاه العمل في الصباح الباكر، بعد نزوله دخلت عليك الغرفة فوجدتك نائمة كالأموت، كنت



على يقين من إنك سوف تحاولين التواصل معه وكنت أود أن أنهي هذا الأمر نهائيًا لكي تنتبهي لحياتك وزوجك.

أخذت الهاتف من جانب رأسك دون أن تشعري، فتحت الرسائل، وجدت ما كتبتيه له وما رد به عليك، كتبت له الرسالة على أنها منك، أخبرته أن كل ما حدث كان اختبارًا لرجولته وشهامته وأنه قد رسب في الاختبار، وأنه الآن يدمر سيرتك وحياتك أمام الناس وطلبت منه أن يبتعد عنك.

كنت أود فقط أن أبعده عنكِ فهو متزوج وأنت متزوجة.

بعدها كان من الضروري أن أكمل ما فعلته حَاولَت أَنْ أُقْبُرَ الْمَوْضُوعَ، لذا قمت بحذف الرسائل وحذف رقمه من الهاتف، ثم سجلتُ رقمًا آخر أمتلكه أنت لا تعرفين عنه شيئًا بنفس اللقب الذي أعطيتيه أنتِ له ((عزيز صدري)).

قمت بكتابة الرسالة على هاتفي من الرقم الآخر وأرسلتها إليكِ، فظهرت لكِ على الهاتف أنها واردة من ((عزيز صدري))، أخذت الهاتف معي إلى المطبخ خشية أن تستفيقي من النوم وتمسكي به فتكتشفي الأمر، أعددت لك الإفطار ثم عُدت، وضعت الهاتف على يسار رأسك لكي يكون قريبًا من يدي عندما أحاول الحصول عليه كنت أعرف أنكِ ستنهضنين من النوم مرهقة فلن تلاحظي تبدل مكانه، ثم قمت بإفاقتك من النوم.

افتعلت قصة الإفطار كي أجعلكِ مشغولة ثم أمسكت بالهاتف وافتعلت أنني اكتشفت الأمر مصادفة، أمسكت الهاتف بين أصبعي وفتحت لك الرسالة كي ترينها من بعيد ولا تفتشي في الرسائل، بعد أن تأكدت من رؤيتك للرسالة جيدًا قمت بإخراج الشريحة وإتلافها ثم

ضربت الهاتف في الحائط، حتى لا تكتشفي حقيقة ما حدث وحتى لا تكن هناك وسيلة اتصال بينك وبينه قد تتسبب في كشف ما حدث.

نظرت إليها في حسرة والدموع تترقرق بغزارة على الخدين دون توقف، لم أكن أتخيّل أنها قد تفعل ذلك، لقد حطَمَت آخر أمل كان بيني وبينه، تسببت أن أعيش شهور طوال في بؤس وقهر. صرخت فيها أسألها:

- لماذا؟

كانت الإجابة مرعبة أكثر عندما نظرت إليّ بحقد لم أعهده فيها وقالت:

- لأنه منذ البداية كان يجب أن يحبني أنا وليس أنتِ، أن يتعلق بـ ((جميلة)) ، وليس ((منة الله))، عندما افتعلت حادثة الحافلة كنت فقط أحاول لفت انتباهه إليَّ، وعندما ذهبت إلى السيدة ((فريدة)) كنت أود أيضًا لفت انتباهه وانتباهها هي الأخرى، لكنه عوضًا عن ذلك لم يرَ غيرك، أنتِ سرقتي انتباهه وقلبه لأنه ساذج، وغبي.

- .. .. ..

لذلك.. عندما علمت بمجيئه لخطبتك، وعلمت أن ((فطوم)) لم تخبر والدنا لأي منا قد أتى، تسللت خلسة إلى جوار والدك بينما كنتم تتحدثون معًا في الغرفة أنت و ((فطوم))، واعترفت له أنني أعيش قصة حب مع ((زين)) وأنه آتيً لخطبتي، وتوسلت إليه أن يوافق لأنني أحبه جدًا، حتى إذا ما أتى ((زين)) وطلبك أنتِ، وقف والدنا عاجزًا عما يفعله، هل يوافق أن يزوج حبيب ((جميلة))إلى شقيقتها ((منة الله))، ويكسر قلبها ببقائه أمامها طيلة الوقت؟ بالطبع لا، لذلك قام والدنا بالتحجج أنكِ ماتزالين صغيرة ورفضه نهائيًا في المرة الثانية.

***



(10)

وقفتُ باكيةً أمام القبر، أشتكي إليهم ما فعلته ابنتهم معي، يتملكني أحساسٌ عارم بالغضب من أختي ((جميلة)) التي تسببت أنانيَّتُها وعدم ثقتها بنفسها بهذه الحالة التعسة التي وصلت اليها، ويتملكني الغضب من والديَّا اللذين لم يحاولا بذل أيّ جهد للتفاهم معي، لأرضاءي، للحيلولة دون حدوث هذه الإساءة، غاضبة من التقاليد الموغلة في القِدَم والتي تنص أن أهليَّة المرأة في طاعتها العمياء لمن حولها.

لكن الغضب الأكبر كان موجَّهًا إلى نفسي، إذْ كان في مقدوري أن أقول ((لا)) أن أفعل شيئًا ما لمساعدة نفسي، لكنني لم أفعل شيئًا. كانت الأمور تنحو دومًا على هذا النحو. ففي لحظات القلق الشديد، و في اللحظة التي أوشك فيها أن أتخذ قرارًا وأفعل شيئًا ما من شئنه أن ينقذني من الغرق، أجد نفسي وقد انكمشت على نفسي لا أقوى على عمل أيّ شيء، كأنَّ يدًا خفيَّة تمنعني من ذلك، وما كانت هذه اليد إلَّا سلبيتي المفرطة، ومن هنا، هذا المكان الذي وضعت نفسي فيهِ، كنت أراقب العالم من حولي وهو يتحول إلى غمامة قاتمة السواد، ويستبد الوجوم بها كأنَّ مصابيح كهربائَّة أُطفئت، واحدًا في إثر الآخر.

وبلا حول لي ولا قوة لي، وقفت أتساءل ما الذي فعلته في حياتي



ليصادف ربيع عمري كل هذا الخراب والأسى، اللعنه علي ((برنارد شو)) يوم قال ((الجميع سوف يؤذيك بطريقة ما)). وكأنها لعنة أطلقها فطالت الجميع.

بعد أن قرأت لهم الفاتحة وبعض آيات القرآن الكريم دعوت لهم، بعدها سلكت طريق العودة إلى شقتي بشعور مليء بالخيبة. أثناء الطريق وَرَد إليّ اتصال من ((نزار))، لم أجبه، كرر اتصاله عدة مرات وكررت الرفض في كل واحدة منهم، كنت في حالة سيئة لا تسمح لي بالتحدث مع أحد، ثم إني لا أعرف ما الذي جعله يتذكر أن له زوجة، كنت أعتقد والله أنه لا يملك رقم هاتفي من الأساس، الرجال الآن يتحدثون عبر الشات أو الهاتف مع كل أهل الأرض إلا زوجاتهم. مبدأ ما تملكه أهمله متفشٍ فيهم.

عودته المبكرة للمنزل تعني نزير شؤم، فهو لا يعود قبل منتصف الليل أما أن يعود قبل الغروب فهو أمر لم أعتده وفي كل مرة فَعَل كانت هناك مصيبة على وشك الحدوث. دخلت من باب الشقة، وجدته جالسًا في الصالة يزفر غضبًا. صرخ في وجهي فور رؤيتي: «أين كنتِ». تسمرت في مكاني، نظرت إليه في حزن، دقت في رأسي موسيقى حزينة فأشفقت نفسي على نفسي، ترقرقت الدموع من عيني على الخدين ببطء شديد قبل أن أقول له بصوت منخفض للغاية ترافقة ابتسامة بائسة: «كنت في المقابر».

لم يعلق .. تركته في الصالة، دخلت إلى غرفة النوم، حصلت على بعض من الملابس ثم توجهت إلى الحمام، حصلت على دقائق أسفل الماء الدافيء، في محاولة مني لتهدئة روحي ولو قليلًا.

❊❊❊



خرجت من الحمام .. كنت في حالة من الشجن قد تملكتني تمامًا، عبرت الصالة، منها إلى غرفة النوم دون ملاحظة أن مكانه خاليًا، كنت أعتقده ما يزال جالسًا في مكانه.

دخلت غرفة النوم مرتدية بعض قطع من الملابس الداخلية الخفيفة وقد وضعت فوطة قطنية فوق شعري أجففه، أشعلت لمبات الإضائة، فوجدته جالسًا عند حافة السرير شبه عارٍ إلا من قطعة ملابس وحيدة، قال بصوت جاف.

- اطفئي الأنوار.

دون أن أنبث بكلمة فعلت له ما أراد ثم تحركت صوب خزانة الملابس بغية إكمال ارتدائي بما يتناسب مع انخفاض درجة الحرارة. فخرج صوته مجددًا.

- أريدك كما أنت.

نظرت إليه بشيء من القرف، أردت سؤاله.

- حتى و أنا في هذه الحالة لا تشفق عليّ!!.

لكنني ارتأيت أن سؤاله لن يفيد بشيء، فالمرء الذي لا يملك حسًّا إنسانيًّا لا شيء يثنيه عن فعلٍ دنيء يرغب فيهِ. ثم إنه سوف يحصل على ما يبتغيه سواء وافقته أو رغمًا عني. كنت أشعر بالقرف فأنا لا أشمئز إلا من أولئك الذين يعبدون شهوتهم حتى يكاد أحدهم يتخلّى عن كرامته لأجل لذة لا تزيد عن القليل من الدقائق. وللأسف في أي علاقة كل شيء يمكن إصلاحه إلا الشعور بالقرف لا يمكن التخلص منه إلا بالتخلص من الشخص نفسه.

بنفس مكسورة ذليلة توجهت إلى السرير. صعدت فوقه ووضعت



لـه جسـدي في الوضـع الـذي يحبـه دون أن أنبث بكلمـة واحـدة. اعتـدل في الوضـع الملائـم ثـم فعـل مـا يرغـب فيـه، استمر لبضـع دقائـق كنت فيهـم أشـعر بالغثيـان وشـيء مـن القـرف المضاعـف، كانـت الدمـوع تسـيل مـن عينـي وشـعور الحسرة عـلى روحـي يتملكنـي.

فـور انتهائـه ممـا يفعلـه تراجـع خطـوات للـوراء، اقـترب مـن خزانـه الملابـس أخـذ منهـا مـا يرغـب فيـه ثـم غـادر الغرفـة باتجـاه الحـمام. بعـد دقائـق قليلـة سـمعت صـوت بـاب الشـقة وقـد انفتـح ثـم أغلقـه بقـوة بعـد أن خـرج منـه.

***

جلسـت في الصالـة وحيـدة تمامًـا إلا مـن ((منكوشـة)) الجالسـة بـين يـديَّ، لا توجـد لـدي كتـب جديـدة، لا توجـد قهـوة، لا يوجـد أي شيء أشـعر معـه بالونـس. رحلـت ((فطـوم))، كرهـت غـدر ((جميلـة))، زوجـي لا يفهمنـي، لم يعـد لـديّ مـكان أذهـب إليـه، حتـى قلبـي مزدحـم لا يوجـد فيـه مـكان أزره، فقـد ملأتـه بالأوغـاد والخيبـات وخلفـت فيـه المـرارة.

قفـزت ((منكوشـة)) مـن بـين يـديَّ إلى الأرض هرولـت باتجـاه البـاب، وقفـت خلفـه تمامًـا وأخـذت تنظـر إليّ وإلى البـاب وقـد ارتفـع صـوت موائهـا، بـدت لي سـعيدة، نظـرت إليهـا مسـتغربةً لم أفهـم سـبب مـا تفعلـه، إلى أن دق جـرس البـاب، فتحركـت باتجاهـه وقـد اعترتنـي حالـةً مـن الدهشـة، فتحـت البـاب لأجدهـا واقفـة أمامـي وقـد حملـت بـين يديهـا صندوقًـا صغـيرًا مصنوعًـا مـن الـورق المقـوى، لا تـزال مبتسـمة بملامـح باشـة رغـم مـا فعلتـه بهـا السـنين، ابتهجـت عنـد رؤيتهـا لم أكـن قـد رأيتهـا منـذ شـهرين كاملـين، إنهـا دائـمًا تـأتي في أشـد الأوقـات سـوادًا فتبدلهـا وتجعـل الدمـاء تسـري في أوردتي.



حملت عنها الصندوق، رغم أنه كان صغيرًا إلا أنهُ كان ثقيلًا، لا أعرف كيف لعجوز مثلها أن تحمل كل هذا الثقل وتصعد به السلالم.

في الصالة جلسنا متجاورتين لما يقرب من الساعة وبضع دقائق، احتفيت بها كثيرًا، صنعت لها الشَّاي، وقدمت لها بعضًا من قطع الكيك كان ((نزار)) قد أحضرها قبل يومين وبقت في الثَّلَّاجة كما هي، أخبرتني بصوت ملئه الشجن أنها لم تعد قادرة على المعيشة وحدها بعد رحيل العم ((رؤوف))، وأنها قررت أن تعود إلى مدينة مولدها ((بني مزار)) في محافظة ((المنيا)) حيث أساس نشأتها وعائلتها.

أوصتني كثيرًا بنفسي، قالت :

- يا بنتي لا أحد يدري ما أصابك، لا أحد يدري كيف هي معركتك الخاصة مع الحياة، لا أحد يدري ما انتهك أمانك، براءتك، عفتك، بشريتك، لا أحد يدري من أنت وبأي الآلام العظيمة قد مررتي. أعلم أنك تعيشين مرغمة مع ابن عمك، أنكِ لم تحبينه يومًا وأن قلبك ما يزال معلقًا بـ((زين))، لكنه الآن متزوج وله حياة كاملة، فإن كان هناك سبيل للتافهم مع ابن عمك فاسلكيه، وإن لم يكن فاسلكي سبيلًا للنجاة ولا تستمعي توجيهات أحد يبث في قلبك الخوف، يمكنك النجاة الآن وأنت ما تزالين صغيرة ولم ترزقي بالأطفال.

يا بنتي لقد عشت مع زوجي هنا لأكثر من ثلاثين عامًا بسبب خطأ واحد فعلناه لأننا تزوجنا رغمًا عن العائلة، لم نقف لنواجههم بل هربنا، والهروب لم يكن في يوم ما حلًا لمشكلة، والمشكلة لم تكن أننا أخطأنا، المشكلة والمعضلة الحقيقية أننا عندما عرفنا أين الصواب خشينا مرضى المجتمع، والقيل والقال فوقفنا عاجزين، بقينا عالقين في المنتصف إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.



كانت وكأنها تتحدث بلسان الجدة ((حسيبة)) عندما قالت..

- إن العالم يا بنتي آل لغابة كبيرة، لن ينفعك أحد إن لم تنفعي نفسك، إن المرء يضيع ويتحطم كلما ضحى بشيء من راحته في سبيل راحة من لا يكترثون إليهِ.

ثم أخبرتني أن هناك مكتبة لبيع الكتب قد أُفتُتِحت في ((شارع العريش)) على بعد مائتين متر من السكن القديم، وأنها قد اشترت لي بضع روايات منها وقامت بفتح الصندوق وبدأت في إخراجهم منه، كنت سعيدة للغاية وأنا أقلب في الروايات، كانت تعرف ذوقي مسبقًا، لكن السعادة كانت ناقصة لأنني سأقرأ هذه الكتب دون وجود من كنت أناقشه فيهم، ثم أنها هي الأخرى سوف ترحل مبتعدة إلى ((بني مزار)). لكن على أية حالٍ، هذه الكتب سوف تنقذني، فالقراءة تنقذ الإنسان من كل شيء، حتى من نفسه.

- وزوجك !! ألَّا يهوِّن عليكِ شيئًا ؟!

- ليس لي زوج.

- أتكرهينه ؟!

- لا أكره أحد .. لكن لا رغبة لي في المعيشة معه.

- بسبب العُنف !!أليس كذلك ؟!

- العنف ليس أسوأ شيءٍ في العالم.

- ماذا إذن ؟!

- اللامُبالاة .. فليس أسوء من مُشاركة أيامك مع شخصٌ لا يُبالي.

- إذًا .. عامليه بالمثل .. المُعاملة بالمثل ليست عقاب، بل هي حقّ.

- الوجع يجعلني أكتفي بالصمت .. الصمت أحيانًا يخفف وطأة الألم.



- الوجع لا يمر بالصمت بل يتغذى عليه، الألم لا يزول بالكبت بل يكبر، الأنين لا ينقضي بالهرب بل يتفاقم. لذا عليكِ المواجهة. الحل يكمن في المواجهة حقًا .. فالمرء يتعرض للأذى بقدر ما يسمح هو بذلك، ولا أحد ولا شيء قادر على أذيّتك أكثر من نفسك.

لأول مرة استمع إليها غير مُبالية .. لا شيء في يدي أفعله .. فأنا اشعر بالعجز التام.. في نهاية جلستنا و عندما قررت المُغادرة قالت ما أسمته ((وصيتي الأخيرة)) :

- يا أبنتي .. ليست المشكلة دائمًا في أن نخسر، معظم الأحيان تكون المشكلة في أننا نحافظ على الأشياء التي تؤذينا ظنًا منّا أن خسارته لا تُعوض، لا يوجد شيء لا يعوض إلا نفسك، وإن المرء ليدرك في لحظة ما أن ما من شيء سيجعله أفضل إلا ما يفعله لنفسه، لا حب الآخرين ولا وقتهم ولا عطاياهم.

قلت بصوت ملئه اليأس وكثير من الحزن:

- فات الأوان .. لقد انتهيت، خذلوني جميعًا .. لم أجد أحلامي وهذا سبب كافٍ لأن أحزن، لم تجدني أحلامي أيضًا وهذا سبب إضافي لأن أحزن، لم يقف معي أحد في مواجهة سوء هذا العالم.

- مُخطأة تمامًا .. أولًا : يقول الرب {**اللهّ لنا ملجأ و قوه عوناً في الضيقات و جد شَديداً، لِذلِكَ لاَ نَخْشَى وَلَوْ تَزَحْزَحَتِ الأَرْضُ، وَلَوِ انْقَلَبَتِ الْجِبَالُ إِلَى قَلْبِ الْبِحَارِ.** «} مزمور ٤٦:١ لذا لا تيأسي أبدًا، وأحسني معيَّة الله. ثانيًا : عليكِ أن تؤمني أن كل إنسانٍ وحيد في مواجهة قدره، ثم بعد ذلك يموت، ولأننا سنصل للموت لا محالة علينا ألا نخاف أن نغامر، نقاوم في سبيل النجاة بأنفسنا، وأن نتقبل حقيقة أن هذه هي الحياة.



أنهت حديثها وكانت تنظر في عيني كعادة كل مرة نتحدث، تتأمل وقع الكلمات عليّ. ولما وجدتني مُتقبلةً مقتنعة بما تقول، مدت يدها أمسكت رواية ثم وضعتها بين يديَّ وقالت ..

- لا بد أن تقرئي هذه الآن، هذا هو الوقت المناسب.

- O Alquimista ل «بأولو كويلو». من إصدار العام 1988

- نعم .. الخيميائي .. اقرئيها لتكتشفي الكنز. لكن احرصي أكثر على قراءة ما بين السطور. لطالما كان ما بين السطور دائمًا هو الأهم.

❋ ❋ ❋



(١١)

ليلتها .. لم تغمض لي عين حتى تنفس الصبح، غياب ((نزار)) أتاح إليّ فرصة التأمل فيما دار بيني وبين جدتي العجوز ((أُم بربارة))، كانت وصاياها تستحق ألا تمر عليّ كأي حديث عابر، كانت تستحق أن أتأملها بعناية، وأن أتفكر فيها وأعيدها على نفسي مرة بعد مرة.

بعد مرور ما يقرب من ساعتين متواصلتين من التفكير المستمر شعرت بالرتابة والملل مع قلة الحيلة وشيء من العجز، كنت في حيرة شديدة من أمري، كلما أعدت وصاياها على نفسي أتساءل ما الذي ينبغي عليّ فعله للنجاة.

أأطلب الطلاق من ((نزار))؟!

وإن حدث ماذا أفعل بعدها وأنا وحيدة تمامًا.

أأستمر معه؟!

أي حياة هذه التي تقتسمها امرأة مع شخص لا يؤمن حتى بأبسط حقوقها الإنسانية.

أتصالح مع ((جميلة))؟!

وكيف أغفر لها خداعها ..

كل شيء كان بلا جدوى، أشعر بالعجز، أعرف أن ما أحياه بالكامل خطأ في خطأ.. لكن ماذا أفعل؟ أي طريق عليّ أن أسلكه للنجاة، هذا ما



لم أجد له إجابة، ما يزال هناك شيء ناقص ليؤكد لي أين أضع قدمي وأي اتجاه عليّ أن أسلكه الآن.

مع ازدياد الحيرة شعرت ببعض الصداع، ولكي أصبح بخير كان عليّ أن أتوقف عن التفكير ولو قليلًا، وأن أتخلص من الطاقة السلبية التي سيطرت على مشاعري.

نهضت من مكاني، توجهت مباشرةً إلى المطبخ، أعددت لنفسي فنجالًا من القهوة ثم عدت إلى لصالة مرة أخرى، أحتضنت((منكوشة)) التي أصبحت قطة عجوز هي الأخرى ثم أمسكت برواية ((الخيميائي / O Alquimista)) وشرعت في قراءتها.

كنت أقرأ فيها بنهم شديد، أشعر بلذة شديدة، كمن تستمتع بسماع مقطوعة موسيقية لـ ((بيتهوفن)) في أجواء باردة تحت قطرات المطر، بدت لي أعجوبة فلسفية رغم صغر حجمها وقلة عدد صفحاتها، كونها تتحدث عن قصة الراعي الأندلسي الذي يجوب البلاد بحثًا عن الكنز فيزور ((المغرب)) والصحراء الكبرى ثم يذهب إلى أهرامات ((مصر)) جعلها شيقة أكثر في عيني. غير أن قصتها كانت وكأنها موجهة إليّ سواء من العم العزيز ((بأولو كويلو)) أو من السيدة العجوز ((أُم بربارة)).

لم أتركها حتى انتهيت من قراءتها، ثم قررت أن أفعل ما كان يفعلة ((زين)).

أحضرت ورقة بيضاء من أجل أن أكتب فيها رأيي الشخصي في الرواية وما الذي استفدته منها. أمسكت بالقلم وبدأت اكتب فى منتصف الورقة من الأعلى : ((مراجعة / review)). ثم كتبت أسفله..

- رواية: الخيميائي - O Alquimista



- للمؤلف البرازيلي : باولو كويلو
- سنة الإصدار : العام 1988م
- التقييم : 4 نجمات والكثير من الدهشة

قصة العمل: تحكي الرواية قصة الراعي ((سانتياغو)) الذي استفاق من نومه أسفل شجرة الجميز الموجودة في رواق كنيسة قديمة في الريف الأندلسي ولديه رغبة كبيرة في السعي خلف حلمه المتمثل في رؤية تكررت له كثيرًا أثناء النوم، مضى في البحث عن حلمه الذي فسرته إليه إحدى العرافات أنه كنز مدفون قرب أهرامات ((مصر)). بدأ رحلته من ((إسبانيا)) عندما التقى الملك ((ملكي صادق)) الذي أخبره هو الآخر عن الكنز. فتخلى عن أغنامه في مقابل الحصول على الأموال اللازمه لرحلته ثم عبر مضيق جبل طارق، مارًا بالمغرب، حتى بلغ ((مصر)) وكانت تواجهه طوال الرحلة إشارات غيبية.

في طريقه للعثور على كنزه، تقع له أحداث كل حدث منها استحال عقبة تكاد تمنعه من متابعة رحلته، إلى أن يجد الوسيلة التي تساعده على تجاوز هذه العقبة. يسلب مرتين، يعمل في متجر للبلور، يرافق رجلًا إنجليزيًّا ((يريد أن يصبح خيميائيًا))، يبحث عن أسطورته الشخصية، يشهد حروبًا تدور رحاها بين القبائل، إلى أن يلتقي ((الخيميائي)) عارف الأسرار العظيمة الذي يحثه على المضي نحو كنزه. في الوقت نفسه يلتقي ((فاطمة)) حبه الكبير، فيعتمل في داخله صراع بين البقاء إلى جانب حبيبته، ومتابعة البحث عن كنزه. تنصحه ((فاطمة)) بالمضي وراء حلمه وتعده بانتظاره في الصحراء.

خلال هذه الأحداث يفترق عن رفيقه الإنجليزي الذي يرغب في أن يكون خيميائيًا ليتابع بعدها طريقه وحيدًا حتى يصل أخيرًا إلى الأهرامات



ليكتشف أن ما ينتظره هو علامة أخرى تدله أن الكنز الحقيقي كان في المكان الذي استفاق فيه من نومه بعد الرؤية. عند شجرة الجميز في الكنيسة القديمة. فيعود مرة أخرى إلى الكنيسة، يحفر أسفل الشجرة ويجد كنزًا في صندوق. لقد كان الكنز أسفل أقدامه منذ البداية، لكنه كنز فانٍ. الكنز الحقيقي كان في الرحلة، فيما تعلمه منها، الكنز الحقيقي في المعرفة، في الذات.

***

- وجدتها ..

قلتها في نفسي بعد الانتهاء من كتابة المراجعة لرواية ((الخيميائي))، نعم وجدتها، الإجابة على سؤالي والتي أبحث عنها منذ سنوات، منذ قرأت ما قاله العم ((جورج برنارد شو)) : ((الجميع سوف يؤذيك بطريقة ما عليك فقط أن تجد من يستحق أن تعاني لأجله))، نعم، لقد كان محقًا والجميع طالني منهم نصيب من الأذى، بقي فقط أن أجد من يستحق أن أتحمل الأذى لأجله، ولم أعرف من هو ذلك الشخص.

الآن وجدتها.. عرفته .. لقد ترك لي العم ((باولو كويلو)) الإجابة على سؤالي في نفس العام الذي ولدت فيه بداخل رواية ((الخيميائي))، الشخص الوحيد الذي يستحق أن تتأذى لأجله هو أنت، أنت فقط من يرافقك في أشد الأوقات سوادًا وبؤسًا، في الشدة والمرض، في الألم والحزن. حتى في القبر أنت فقط من سيرافقك.

***

كانت الساعة قد دقت العاشرة صباحًا عندما اتصلت عليه. أخبرته دون مقدمات عن رغبتي في التحدث إليه للأهمية القصوى. قال إنه مشغول لمدة ساعة من الآن، بعدها سوف يعاود الاتصال عليّ.



قبل أن أنزل بالهاتف عن أذني كان باب الشقة قد انفتح، دخل منه ((نزار)) وأغلقه من خلفه بقوة. نظر إليّ بحدة وكأنني أنا من كانت تتسكَّعَ خارج البيت طوال الليل، والآن عدت مخمورة برائحة نتنة.

تركته في الصالة دون أن أكترَثَ لعودته، توجهت إلى غرفة النوم، فأتي من خلفي. كنت واقفة بالقرب من خزانة الملابس عندما اقترب وأمسك بمعصم يدي وسحبني خلفه دون أن ينبث بكلمة. تركت له نفسي فسحبني وأجلسني عند حافة السرير ثم جلس أمامي.

عاد إلى نفس الحديث مرة أخرى. تكلم بجدية على عكس كل مرة كان يتحدث في رجاء يحاول اقناعي. قال إنه قد ملَّ من العمل عند أصدقائه ويرغب في امتلاك عمله الخاص به وأنه اتفق مع ((رشيد)) على أن يقيما مشروعًا جيدًا، وقاموا بعمل دراسة جدوى تأكد لهم أنه مربح تمامًا. طلب مني أن أسحب له من البنك الوديعة التي تركها السيد ((جمال الدين)). أو على الأقل نتخلى عن شقة شارع العريش والتي كانت معنا بموجب قانون الإيجار القديم ونحصل على مقابل جيد جراء تخلينا عنها.

قاطعته .. لم أعطه فرصة أن يكمل ما يقوله .. نظرت إليه نظرة جافة أبديت له فيها الكثير من الجدية والضيق ثم سألته منفعلةً ..

– وما دخلي بما تحكي عنه!! أعتقد أنك الرجل وأنك وضعتني في المنزل مجرد خادمة عليها أن تعيش سجينة بين حِيطان الشقة. تأكل وتشرب في صمت في مقابل أن تعمل على نظافة المكان وتقبل بوجودك خارج المنزل معظم ساعات اليوم ثم تعود في آخره فاقدًا للوعي برائحة الخمور والمخدرات النتنه. تحصل على رغبتك فيها دون حتى الاكتراث لرغبتها أو احترام أنوثتها ثم تعطيها ظهرك وتنام.



تأجَّج غضبًا فصفعني بقوة شديدة التفت فيها رأسي للاتجاه الآخر من فرط قوتها وسالت على إثرها الدماء من بين شفتيَّ على الفور. ثم انهال عليّ بأقذر الشتائم في الأم والأب ووصفني بما لا يليق على الإطلاق حتى شعرت أن فمه لا تخرج منه كلمات إنما روث بهائم وفضلات من الزبالة.

التفت إليه وأنا أمسح الدماء عن شفتيَّ، نظرت في عينيه مباشرة وأخبرته بشكلٍ واضح بأنه وعاء من القذارة، مريض بالدناءة، مشوه الروح، فاسد السريرة، خبيث لا رجاء منه، ومليء بالفحش والفجور، وأنني سوف أنفصل عنه سواء وافق على ذلك أو رغمًا عنه.

لحظتها ارتفع صوت رنين الهاتف، كانت الساعة قد مضت، مد يده وأمسك به ثم فتح المكالمة. جاء صوت((زين))واضحًا وهو يقول :

- معكِ يا هبة الله.

رفض الاتصال، ألقى الهاتف على السرير وهو ينظر إليّ في ضيق وكأنه صفع على وجهه، ثم مد يده أمسك شعر رأسي جذبني منه بكل قوته نحو الأرض، انهال عليّ ضربًا بقدميه وكلتا يديه، وجه إليّ الصفعات واللكمات والركلات لدقائق دون توقف .. سالت الدماء من بين شفاتي والأنف، تعبت وأنا أحاول صد الركلات، حاولت النهوض والهرب جريًا من أمامه فضربني بقدمه في ظهري ضربة قوية أفقدتني توازني وأنا أجري فاندفعت بشدة نحو الأمام ثم سقطت وارتطمت رأسي في زاوية الحائط.

***

كانت ((سُميّة)) وزوجها قد وقفا في الخارج ما بين باب شقتهم وشقتنا يستمعون صوت صراخي الواصل إليهم بوضوح .. مترددين..



يفكرون في اقتحام الشقة والدخول لإنقاذي أو التريث قليلًا ربما أتصالح مع ((نزار))، عندها فتح ((نزار)) الباب وكانت كلتا يديه ملطخة بالدماء من إثر محاولته كتم الدماء المنبثقة من رأسي بغزارة وعندما فشل، هرب من الشقة.

اندفعا مسرعين إلى الداخل، كنت ممددة على الأرض أصارع الموت، تعرضت لكسر مضاعف في الجمجمة والكثير من الكدمات في وجهي وأنحاء متفرقة من الجسد. حاولوا مساعدتي، أشرت إليهم باتجاه الهاتف الذي كان ما يزال يرتفع صوت رنينه حيث كان((زين))ما يزال يكرر اتصاله.

هرولت ((سُميّة)) باتجاه الهاتف، احضرته ووضعته في يدي، بينما كان زوجها يطلب سيارة الإسعاف من هاتفه الشخصي. بعد أن وضعت الهاتف في يدي قبلت الاتصال ثم وبصوت متعب للغاية تخنقه الدموع والألم قلت له مستغيثةً..

- أنقذني.

***

في المستشفى .. أخبروهم أنني في احتياج شديد وبسرعة لعملية ترميم جمجمة سوف تتكلف مبلغًا كبيرًا يجب إيداعه في خزينة المستشفى، كما أنهم في احتياج لمتبرع بالدماء على أن تكون فصيلة دمائه ((O- - أو السالبة)) المماثلة لفصيلة دمائي حيث إنها لا تقبل التوافق الا مع مثيلتها.

وقفت ((سُميّة)) برفقة زوجها وآخرين من سكان العمارة مُلتفين حول الطبيب، عاجزين، لا يعرفون كيفية التصرف في الموقف، كان المبلغ الذي أخبرهم عنه كبيرًا عليهم غير أن فصيلة الدم المطلوبة نادرة، أخرجت ((سُميّة)) هاتفي الذي احتفظت به معها وأعطته إلى زوجها



وهـي تخـبره ان يبحـث فيـهِ عـن رقـم ((جميلـة))، بغيـة التواصـل معهـا وإخبارهـا بـما حـدث لعلهـا تـأتي فتُحَـل المشـكلة.

قبل أن يصلوا إلى رقم ((جميلة)) في الهاتـف إذا بـه يظهر ويدخل بينهم دون استئذان، فـرق جمعهـم بكلتـا يديـه ووقـف أمـام الطبيب مباشرةً، أخبره أن ضعـف المبلـغ المطلـوب سـوف يوضـع في خزانـة المستشـفى نقـدًا خـلال دقائـق قليلـة. وأن دمـاءه بالكامـل هـو في الحقيقـة جـزء مـن دمائهـا.

أخبره الطبيب:

- حتـى لـو حـدث ذلـك نحتـاج لمتـبرع آخـر بالـدم، فسـوف تحتـاج إلى كيسـين مـن الدمـاء وبـما أن فصيلـة دمائهـا نـادرة فالأمـر لـن يكـون سـهلًا.

رد عليهِ وهو ينظر في عينيه مباشرة:

- سوف أتبرع لها بالدماء مرتين.

شرع الطبيـب في إخبـاره باسـتحالة مـا يطلبـه و ... لكنـه قاطعـه بجديـة أخـبره أنـه سـوف يتـبرع مرتـين متتاليتـين وسـوف يتحمـل أي مسـئولية تنتـج لـه عـن ذلـك، فأخـبره الطبيـب أنـه سـوف يكتـب إقـرارًا عـلى نفسـه بذلـك.

❋❋❋

كانـت ((جميلـة)) نائمـةً عـلى كـرسي بالقـرب مني عندمـا اسـتعدت وعيي، فَرِحَـت كثـيرًا وأخبرتنـي أنهـا كانـت قلقـة بشـدة عـلى مـدار ثلاثـة أيـام وهـي تنتظـر أن أسـتفيق مـن الغيبوبـة.. شـددت المرضـة عـليّ مؤكـدةً ألا أتحـدث نهائيًـا ثـم هرولـت نحـو الخـارج تسـتدعي الطبيـب المُتابـع لحالتـي.

أخـبرني الطبيـب أننـي في حالـة جيـدة للغايـة، وأن الخطـر قـد زال تمامًـا، ثـم أرجـع الفضـل لشـقيقي الـذي حـضر في الوقـت المناسـب وأنهـى جميـع الإجـراءات المطلوبـة ووفـر المصاريـف الكاملـة لإجـراء العمليـة والإقامـة



والأدوية. ليس ذلك فقط بل خاطر بحياته من أجل إنقاذك عندما تبرع لكِ بالدماء مرتين غير مكترثٍ بما قد يتعرض له من أذى جراء ذلك.

سألته باستغراب وأنا التفتُ أنظر إلى جميلة:

- شقيقي!!

نظرت إليّ في قلة حيلة وهي تزفر في يأس قائلة :

- زين زين زين.

***

سمح الطبيب بمغادرة المُستَشفى، كان بإمكاني الذهاب إلى شقة ((فطوم)) رحمها الله، وكانت المكان الوحيد الذي يجب عليّ الذهاب إليه، كنت أود لو أنني قد غفرت ل ((جميلة)) فأذهب إليها، لكن بعض الأخطاء لا تُغتفر أولها الغدر، لذلك قررت فعل عكس ما هو متوقع تمامًا، ذهبت باتجاه شقة ((نزار)) في شارع العريش.

كانت الشقة في حالة سيئة للغاية كما تركتها، بدا لي أنه لم يعد إليها منذ ما حدث .. اتصلت عليه عدة مرات حتى قام بفتح الاتصال .. أخبرته أنني بخير ولا يجب عليه أن يبقى خائفًا أو قلقًا .. فأنا لا أرضى فيهِ مكروه، ثم طلبت منه العودة، أخبرته أنني أريد أن أجلس معه.

أخبرني أنه في مكان قريب وسوف يحضر في وقت أقصاه أقل من ساعة، لكنه تأخر لما يقرب من الساعتين ونصف، قمت فيهم رغم الوهن الذي أشعر به في جسدي بتنظيف الشقة وترتيبها جيدًا، ثم أعددت له شيئًا يأكله .. عند حضوره كنت في المطبخ ما أزال أعد له طعامًا. نظر إليّ وقد بدا مُرتابًا بشدة قد أوجس في نفسهِ خيفة مني .. سلمت عليه وطمأنته بالقول ..



- إنني بخير تمامًا، لم أشتكيك للشرطة ولا يوجد أحد من عائلتي ليدافع عني .. في حقيقة الأمر أنت كل عائلتي هُنا. وأنت فقط من يجب عليهِ أن يكون سندًا وظهرًا يحميني.

- ...

لم ينبث بكلمة .. جلس أمامي مُكتفيًا بالصمت وقد بدت في ملامحه علامات الخجل من نفسه.. استغليت فرصة شعورة بالخجل وأخبرته برفق ولطف أننا لم نخلق لنكون أعداءً .. ربما كل ما حدث بيننا كان مُقدرًا، ربما قلة الخبرة لدينا كانت سببًا أننا لم نتفاهم. لكن في نهاية الأمر نحن أبناء عُمُومَةُ وكما يقول المصريين ((عُمر الدم ما يبقى مياه)).

مددت يدي أمسكت بمَظْرُوف كنت قد جهزته ووضعته على أريكة بالقرب مني قبل مجيئة .. أعطيته له وأخبرته.

- كنت تريد الحصول على وديعة البنك، والتي هي كل ما بقيّ لي من عمك ((جمال الدين)) على الاقل في ((مصر)) .. تعتقد أنني منعتها عنك بُخلًا أو نذالة في حق زوجي!! لا يا ((نزار)) .. منعتها عنك لأنك أضعت من قبل إرثك عن والدك.

- ...

- الآن بيدك مظْرُوف فيهِ تحويل للوديعة بالكامل إليك، فيهِ وثيقة بيع نهائية لشقة عمك وزوجتة ((فطوم))، فيهِ أيضًا تبرئتك من كل حقوقي الزوجية كاملةً، ولا أريد منك شيئًا سوى أن تطلقني بعد ذلك تكون بخير، طلقني يا ((نزار)) ثم كن بخير فقط.. وإن كنت لا تؤمن بحقوقي الإنسانية فهب لي حقوقي كمؤمنة بدين محمد، أو حقوقي في صلة الدم بيننا وارحمني وطلقني.



نظر إليّ مستغربًا وهو يردد :

- كن .. بخير .. فقط.

هل حقًا يفرق معك إن كنت بخير أو غير ذلك!!

- بالطبع .. بالطبع يفرق معي جدًا .. يا نزار أنت لست رجلًا غريبًا تزوجني والآن ننفصل .. أنت في المقام الأول ابن عمي.. شقيق الطفولة وعشرة السنين .. إن آذاك شيء طالني أذاه.

- ...

- يا نزار .. يا نزار .. لم أقبل أن يرفع الشخص الوحيد الذي أحببته في الأرض يده عليك .. صفعك فأعدت له الصفعه في لحظتها رغم أن الله في السماء يعرف أنني ما أحببت في حياتي أحدًا مثلما أحببته، إنك ابن عمي، ابن عمي يا نزار.

((ابن عمي يا نزار))، نطقتها ثم ترقرقت الدموع من عيني على الخدين .. فنظر إلى الأرض لثوانٍ قليلة قبل أن يرفع وجهه ينظر إليّ مرة أخرى وقد ملأت عينيه الدموع وسالت بغزارة على خديهِ ثم قام بتقطيع المَظْرُوفُ بما يحتويه من أوراق دون أن يفتحه .. بعدها .. مد يده أدخلها في جيب بنطلونه أخرج منهُ ورقة مُطبقة بحجم الكف ومد يده بها إليّ وهو يقول.

- لا أريد منكِ شيئًا ..

لقد انفصلنا رسميًا قبل أن آتي إليكِ الآن.

ولا أريد منكِ سوى أن تغفري لي كل ما كان.

***



لأيـام طويلـة جلسـت وحيـدة .. مُشـبعةٌ بالوحشـة كشـجرة عاريـة في صحـراء قاحلـة بعيـدة يقـف عـلى أحـد أغصانهـا غـراب جائـع .. الغـراب تشـبيه جيـد.. نعـم كنـت غـراب في عـين نفسـي .. أشـعر دائِـمًا أننـي سـيئة، منبـوذة، ضعيفـة، مكروهـةً مـن الجميـع تمامًـا مثلـه .. لكـن في حقيقـة الأمـر الغـراب لا يحـق لـه أن يشـعر بالحـزن أو الضعـف .. عـلى العكـس هـو الطائـر الوحيـد الـذي يحـق لـه السـعادة فـلا أحـد يسـعى لمطاردتـه وحبسـه في منـزل .. قـد يكـون سـوءك سـببًا لحريتـك أحيانًـا. وقـد نعتقـد أحيانًـا أن الرابـح خـاسر لكـن الأيـام قـد تثبـت العكـس.

لقـد أدركـت أننـي لسـتُ ضعيفـة ولا يجـب عـليّ أن أكـون كذلـك .. إننـي قبـل هـذه اللحظـات كنـت أشـعر بشيء مـا يشـبه الامتـلاء باليـأس، كثـيرًا مـن المشـاعر السـلبية .. إننـي خليـط مـن أشـياء عشـوائية كثـيرة، مصعـد مزدحـم، محاولـة فاشـلة، أرض قاحلـة، شـجرة مقطوعـة، لوحـة إرشـادية في طريـق مهجـور، أصبـع قـدم ارتطـم بطـرف بـاب، هـدف تسـلل، شـتيمة عابـرة، سـاعة معطلـة، نكتـه قيلـت في مراسـم عـزاء، تلويحـة وداع، بقايـا حـرب، غابـة تحـترق، منـزل مهجـور، رسـالة غـير مقـروءة، روايـة غـير مكتملـة، خـبر سيء للغايـة، اسـتفهام أمـام إجابـة، قـرط في أذن فتـاة ميتـه، إشـارة مـرور معطلـة، مدينـة ألعـاب فارغـة، بيـت مكسـور في قصيـدة، صفعـة خيبـة مفاجـأة، قنبلـة سـوف تنفجـر بعـد خمسـة دقائـق ..لكـن الآن وفي هـذه اللحظـة مؤمنـة وبيقـين تـام أننـي كل شيء عـدا هـذه الأشـياء التـي ذكرتهـا.

❋ ❋ ❋



(12)

الشقاء الحقيقي يكمن في اكتشاف الأمور المعقدة، والوقوف بعجز أمامها أو انتظار أن يصلحها لنا شخص آخر فقد علمتني الحياة أن الإنسان لا يمكنه الاعتماد إلا على نفسه فقط .. لذلك إذا كان ثمّة فرصة لاعتذار واحدٍ وأخير، فسيكون هذا الأسف بغزارته مُقدمًا لذاتي التي أرّقتها في كل شيءٍ مأهول بالتيه والوحدة.

إن الخسارة الوحيدة التي خسرتها كانت خسارتي لنفسي في ظلّ التماهي مع الأشياء. لكن دائمًا ما يزال هناك المزيد من الوقت. وعلى المرء أن يصحح خطأه حتى ولو لم يتبقَ له من العمر إلا ساعة واحدة.

***

كان الليل قد انتصف عندما اتصلت عليه.. أبلغته جزيل الشكر على ما فعله لأجلي في المستشفى ثم أخبرته بما حدث مع ((جميلة)) و ((نزار)) ، بعدها سألته إن كان بالفعل قد أحبني يومًا ما؟ فكانت إجابته أنه لم يحب أحدًا أبدًا أبدًا مثلما أحبني.

أخبرته بأنني أحمله كل ما حدث لي طوال تلك السنوات الصعبة، إنه المسئول الأول عن كل شيء، إنني مسئولة منه، كان يجب أن أكون زوجته في حمايته .. وإنني حتى هذه اللحظة أطالبه بتنفيذ وعده الذي قطعه لي على نفسه قبل سنوات بعدم التخلي عني مهما حدث.



قال إنه ما يزال يراني مثل أول مرة، وما يزال يحبني بنفس المقدار من الحب الذي حمله في قلبه لي قبل سنوات .. فسألته :

- تتزوجني ؟!

- نعم.

- ستدفع لي مهرًا ؟!

- ما تطلبينه ..

- أريد فقط أجرة الحافلة التي دفعتها لك على مدار وقتٍ طويلٍ عندما كنت أحجز لك مقعدًا بالقرب مني في انتظار أن تظهر.. لكنك لم تأتِ .. وفي كل مرة لم تأتِ فيها بكيت.. أريد منك تعويضًا عن كل مرة اشتريت لك فيها ((الشباكية)) من الخالة ((أُم بربارة)) ولكنك لم تأتي لتحصل عليها.. تعويضًا عن كل مرة تأذيت فيها ولم أجدك لتدافع عني، عن كل مرة شممت فيها رائحة عطرك ولم تظهر.. فبكيت.

أخبرني بجدية عن جاهزيته لفعل كل شيءٍ وأي شيءٍ لتعويضي تمامًا عما كان.. لكنني لم أكن أرغب في شيءٍ على الإطلاق، فقد أدركت مؤخرًا أن الأيام قد عصفت بنا حتى وجدنا الذي كنا نتلهف لحدوثه لا أهمية له، أو أنه لم يعد يصلح، كنت أرغب فقط في سماع كلمةٍ واحدةٍ، أرغب في الاطمئنان بأنني كنت دائمًا في قلبه لا شيء أكثر من ذلك، لذلك أخبرته:

- حياتي مَعْقُودةٌ بك، فأنتَ بدايتي وآخرتي والله يعرف ما في قلبي، الله يعرفهُ، لذا أرجوك كن حريصًا على نفسك وكن بخير، وإن احتجت إليَّ يومًا، فأنا ذاهبة لأفعل كما فعل الراعي ((سنتياغو)).

عندها.. بدون وداع أنهيت المكالمة، ثم قمت باتلاف شريحة الهاتف.

***



لم يكن هناك شيء آخر يسعى أن يسلبه منها، لم يتبق لها شيء سوى أنوثتها وبطبيعة الحال كان قد استهلكها تمامًا، شبع منها مرة بعد مرة، وكأي حقير مليء بالدناءة بدأ في السعي خلف علاقات مع غيرها.

كانت عنيدة، لم تكن تتقبل أن تشاركها امرأة أخرى في زوجها، عندما شعرت بالأمر بدأت تترقبه وتتجسس عليه، كانت مرتابة في خروجه وتغيبه عن المنزل كثيرًا، في كل مرة تسأله يخبرها أنه يقوم بالتجهيز للمشروع الذي اتفقا عليه، لم ترَ مشروعًا، لم تسمع منه منذ أكثر من سنة ونصف إلا الكلام والوعود.

ثم اكتشفت مصادفة في واحدة المرات الذي نسي فيها هاتفه بالقرب منها أنه يتحدث مع امرأة أخرى منفصلة عن زوجها منذ فترة وأنه في ذلك اليوم قد خطط لزيارتها وأهلها لكي يتقدم للزواج منها رسميًا.

دققت في البحث داخل المحادثة حتى توصلت لعنوان الفتاة ثم توجهت إليها حاملة على كتفها الصغير ((جمال الدين)). كانت تتوقع بذهابها خلفه سوف تُغضب أهل العروس فتمنعه عن الزواج لم تكن تدرك ما ينتظرها وأن ما بني على باطل فهو باطل.

استقبلوها جميعًا أسوأ استقبال.. قاموا بصب الشتائم عليها ثم قام بصفعها أمامهم أكثر من مرة قبل أن يلقي عليها يمين الطلاق ليفهموا أنه قد فعل ذلك من أجل ابنتهم. ظن ((رشيد)) أنه قد ربح معركة جديدة والآن سيكافأ بالحصول على فريسة جديدة. لكنه نسي أن المكر السيء لا يحيق إلا بأهله وأن الله قد قال : ((وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ)).

***

انصرفت خائبة، بعد أن خسرت كل شيء. لم يكن لديها مكان تذهب إليه بعد أن طردها من الشقة ومنعها من الحصول على أي شيء من مستحقاتها حتى ملابسها الخاصة، لم يكن لديها مكانًا تذهب إليه أو أموالًا تلجأ بها إلى محامٍ يرفع عليه دعوة تطالب فيها بحقوقها وحقوق ابنها وحتى إن امتلكت، هيهات أن تحصل على شيء. لذلك لجأت إلى ((نزار)) الذي استقبلها بكل ود وترك لها الشقة لأيام.

لشهور عدة تكفل بها وابنها، جعلها تعيش في شقته بينما يعيش برفقة أحد أصدقائه من الذين يعمل معهم، في نهاية الأمر عرض عليها الزواج وأمام الوهن والقهر التي تتعرض له مطلقة في مجتمع لا يعترف بالشفقة وأبسط الحقوق الإنسانية لم يكن أمامها سوى أن توافق فلم يكن لديها خطط أخرى على أية حال.

كانت ثلاث سنوات ونصف قد انقضت على مرور تلك الأيام السيئة عندما اتصلت ((جميلة)) هاتفيًا تخبرني أنها أخيرًا رزقت بفتاة تشبهني تمامًا، توسلت إليها لو تسميها ((فطوم)) لكنها قالت إنها و ((نزار)) قد اتفقا فيما بينهما على هبة الله، ثم أخبرتني تقول:

- نزار لا ينفك يتحدث عنكِ بكل خير، يدعو لكِ كثيرًا الآن أصبح هو الآخر مثقفاً مثلكِ حتى إنه لا يعود للمنزل أو يخرج منه باتجاه العمل إلا وقد حمل بين يديه رواية أو كتابًا، وفقه الله جدًا في المشروع الذي افتتحه بالنقود التي أرسلتيها إلينا، أصبح لدينا سيارة ورصيد في البنك، ربما ليس كثيرًا لكنه مناسب.

- وأنت ؟ ألا تقرئين !!

- أنا .. أنا أود فقط أن أنسى، وأن يغفر الله لي ما فعلته معك، أشعر بالذنب دائمًا، أبكي كثيرًا كلما تذكرت أنني سببًا في تخريب حياتك، وكلما



جاء إلى هنا يسأل عنكِ أخبرناه ((لا نعرف شيء عنها)).

– قلنا أن ننسى ما حدث، لقد كان ذنبًا ترك في الماضي وانقضى، علينا أن ننسى.

– لا يوجد شيء اسمه ذنب قد ترك في الماضي، ذنوبنا لا تتركنا، لن يبقى شيئًا فالماضي .. أعرف أن قلبك لم يصفَ إلينا بعد. لكنني موقنة أنه مليء ببياض الثلج ويومًا ما سوف تغفرين ما فعلناه بك.

– هل تقرئين !!

– نعم .. مؤخرًا .. بين يدي الآن رواية الجريمة والعقاب لِ د و ستو يفسكي .

– أوه.. العم دوستويفسكي رائع دائِمًا ..

لكن حتمًا تحاولين الانتحار إذا قرأت ((الجريمة والعقاب)) وأنت في وسط الشعور بالذنب، لا تقرأي أشياء سوداوية وأنت في حالة سيئة، اقرأي أشياء مليئة بالأمل.

– مثل ماذا !!

– ربما عليكِ أن تقرأي ل ((أميل زولا)).. وليكن مثلا رواية ((جر مينال)).

قالت ممازحة ..

– زولا !!

هل هو شخص يبيع الأمل.

– ههههه لا أحد يبيع الأمل يا ((جميلة))، نحن من يجب علينا أن نصنع الأمل لانفسنا. لكنها رواية مبهجة.. يقول فيها : ((هكذا رأى السماء والهواء الطلق وأخذ نفسًا عميقاً عندما رأى شمس نيسان تدفيء



الأرض وتتدفق الحياة من الوديان، البراعم الخضراء الزاهية لونها تتفتح والمحاصيل تنمو، الحياة شيء جيد، الكرة الأرضية المسنة تريد قضاء ربيع آخر)) أعتقد في هذا شيئًا من الأمل.

تناوبنا الحديث والضحك فيما بيننا لوقت طويل، أذكر أننا لم نكن متفاهمتين هكذا من قبل، ربما يحدث الكثير من التفاهم عندما تنفصل الأشياء وتتباعد ولو قليلًا، القرب الدائم لا يعني التفاهم، الأشياء المألوفة في كل يوم لأعيننا وأرواحنا تصاب بالبهتان، أم الأشياء البعيدة دائمًا لها شوق وولع في قلوبنا.

أثناء المكالمة عاد ((نزار)) من الخارج، عند معرفته إنني على الخط مع ((جميلة)) طلب منها على الفور أن يتحدث اليّ.. حصل منها على الهاتف وبعد تبادل الترحاب بيننا قال ..

- زارني مجددًا .. لا يزال يبحث عنكي..

لا يمر أسبوع إلا وعاد يسأل عن خبر.

- رغم انقضاء هذه السنوات؟

- مثلك لا تنسى، أعتقد أنني أكثر الناس شهادة بذلك.

- هههههه أعلم أعلم، ليحفظك الله يا نزار.

- لم تعطني إجابة، بماذا أخبره؟ يريد خبر.. يرفض تصديق أنك قد فارقتي الحياة، حتى إنه دقق في الأمر وحاول التواصل مع السفارة ليعرف إن كنتي بالفعل قد توفيتي أم إننا نكذب، لكنهم لم يعطوا له إجابات واضحة.

- يجب عليه نسياني يا نزار، يجب عليه نسياني، لديه الآن حياة متمثلة في زوجة وأطفال، لا أستطيع أن أخرب عليه حياته.



- لن ينساك. في كل مرة يأتي يسأل عنكِ وعن من هو ((سنتياغو)). أرى عينيه لامعة بدموع صادقة، من يحب بصدق لا ينسى وأنت أكثر العارفين بذلك.

- إذًا.. سأخبرك بشيء تفعله معه.

- ...

- رواية الخيميائي - O Alquimista، الخَاصَّة هل ما تزال تحتفظ بها؟

- بالطبع .. كما هي منذ تركتيها.

- خذ الرواية، اذهب إليه، أعطها إليه في يده دون أن تنبث بكلمة واحدة، فإن عاد إليكَ سائلًا!! أعطه إجابات حقيقية .. لِ**يَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا**.

❊ ❊ ❊



(14)

لم يكن ما بيننا عيشٌ وملح، إنما كتب وقهوة وكثيرًا من الموسيقى، كان بيننا وصَالٌ عقليًّا، وقلبيًّا، وروحيًّا، كان ما بيننا وعي وتفاهم، لذلك كنت واثقة من مقدرته على فهم ما قصدته عند إرسال الرواية إليه، لقد كان يبحث عن الراعي ((سنتياغو)) لأربعة سنواتٍ كاملةٍ، دون أن يعرفه أو يفهم كيف يصل إليه، الآن وبعد أن حصل على الرواية سوف يتعرف عليه وعلى ما فعله فيفهم الرسالة.

لأيامٍ قليلةٍ جلست فوق السطح أنتظر مجيئه، كنت مدركةً أنه ما يزال علىً قيد حب هبة الله، لذلك سوف يأتي، كل يوم أفتح صندوق ((مريمة))، آخذ منهُ كتاباً أو مخطوطة، أؤنس وحدي بهم، ولـمَّا كانت أيامٍ شتويةٍ الأجواء فيها باردةً، كنت أخذ جزءً من الحطب الذي تركته الجدًة ((حسيبة)) قبل سنوات وقالت إنه إرث ((منة الله))، فأقوم بإشعال النيران فيه وأجلس بقربهِ أتدفأ عليه في انتظار حضوره.

***

كان الطفل ذو الأربع سنوات قد نزل على السلالم الزرقاء كعادة كل صباح، مهرولًا باتجاه الممر الضيق المؤدي نحو الشاطيء، من خلفهِ تجري ((ماريانا)) صديقتي الأنجولية الشابة ذات الثلاثين عامًا والمعنية برعايته، اصطدم الصغير في شاب غريب عند آخر الممر، تفاجأ بنفسه بين قدميه فوقف مُحدقًا فيهِ.



كان الشاب يشبهه تمامًا، لكنه طويل، عريض المنكبين، له نفس عينا الطفل، تبادلا الابتسامات قبل أن ينحنى الشاب يجلس على ركبتيه وهو يدقق النظر فيه ويسأله :

- ما اسمك؟!

- زين.. زين زين زين.

تبدلت ملامح الشاب وكأنه قد صُفع فجأةً على وجهه، عندها ظهرت ((ماريانا)) تجري باتجاه الطفل، ودون أن تنظر إلى الشاب تأسفت له عما إن كان الصبي قد أزعجه، أخذت بيد الصغير تضمه بين ذراعيها، قبل أن تلتفت إلى الشاب وتدقق فيه النظر هي الأخرى بطريقة مُلفتة.

سألها مُستغربًا :

- هل من مشكلة؟!

ردت بكلمةٍ واحدةٍ على هيئة سؤال :

- زين ؟!

لم يكن مجهولًا لديها، فلم يكن باستطاعتي أن أكتم كل هذا الحب في قلبي وحدي دون مشاركته مع أحدٍ يهون عليَّ، وكنت مذ تعرفت عليها في مكتبة ((تطوان)) أعتز بها كصديقة وأُخت، كانت المسئولة عن إدارة المكتبة ولمست فيها مدى وعيها وثقافتها، وعندما اكتشفت تخليهم عنها في المكتبة أصابني سوء، بحثت عنها فيما بعد حتى توصلت إليها ووجدتها دون عمل، فطلبتها للعمل معي على رعاية ((زين)) الصغير، ثم ومن حينٍ لآخر كنت أقص عليها بعض الأشياء التي تؤرقني، أخبرتها عنه مرارًا، وأنه في يومٍ من الأيام سوف يأتي ويسأل عني.

***



لم تسألني إن كان عليها أن تسمح له بالدخول، أتت بهِ إليَّ مُباشرةً، كانت تعرف أنه من أهل قلبي مِن كثرة ما قصصت عليها عن شهامته معنا في ((مصر))، كنت قد أخبرتها في الصباح الباكر لهذا اليوم بأنه سيكون مختلفًا تمامًا عن كل أيام العمر، كنت أستشعر قربه، فرائحته دائما ما تسبقه إلى قلبي.

جلس أمامي مباشرة، تعانقت أعيننا اللامعة بدموع الفرح كما لم تتعانق منذ سنوات، تبادلنا الابتسامات لثوانٍ قليلة قبل أن تهزمنا الدموع وتترقرق على خديّ كل منا.. ثم سألني السؤال الأبدي الذي يبقى بلا إجابة دائمًا :

- لماذا ؟!

- لأنك خُنت عهدي، تخليت عني .. لذلك كان عليك أن تشعر بالوحدة في غيابي والجوع إليّ والتشرد دون صوتي، كان عليك أن تعيش في المنفى وتتقطع بك الأسباب فالخيانة ذنب لا تغسله التوبة ولا يغفره الندم ..

- من قال إنني خنت عهدكِ يومًا؟!

- الدنيا كلها خانتني.

- من الطفل ؟ زين !!

- زين!! إنه أهم الأسباب التي جعلتني أتخلى عنك.

- ....

❋ ❋ ❋

بعد أن طلقني ((نزار)) بفترة قليلة انقطعت العادة الشهرية، كان من المفترض أن تأتي كعادة موعدها، لكن ذلك لم يحدث، وبالتدقيق في الأمر اكتشفت أنني حامل، ولـمَّا كان الغضب والحقد يملئان قلبي تجاهكم جميعًا وهو أولكم، جعلت الأمر في طيّ الكتمان، أخفيته لشهرين كاملين، ثم جاء غدر ((رشيد)) بـ ((جميلة))، وطلقها بعد أن سرق أموالها وسلبها مجوهراتها الخاصة، بعدها طردها من الشقة.

فكرت فيمن ألجأ إليه، قادني حُسن التوفيق إلى السيد ((ناصر عتوشي)) أحد أصدقاء والدي القُدامي وزميله في العمل منذ زمنٍ طويلٍ، والذي أُنتُدِبَ بديلًا له بعد تقاعده.

ذهبت إليه، أخبرته بما كان، فأخذني ولجأنا سويًا إلى الشرطة، أخبرونا بما أنها قد أعطته كل شيءٍ بكامل إرادتها فلا لوم عليه، فالقانون لا يحمي المغفلين، أمَّا عن حقوقها كزوجةٍ منفصلةٍ فعليها أن تلجأ للإجراءات القانونية بتوكيل محامٍ ورفع قضية عليه لدى محكمة الأسرة.

لم يكن ما قالوه لنا مُجديًا، لذا اصطحبني العم ((ناصر عتوشي)) وتوجهنا بعدها إلى صديق له يدعى ((أنس الحداد))، كان يعمل في السفارة المغربية، القائم بأعمال المواطنين المغربيين في ((مصر))، تحدثنا إليهِ وبعد أن فرغنا من سرد ما حدث معنا قام بإرسال اثنين من القوات الخاصة المعنية بحماية السفارة في مهمة سرية، علمنا بعد ذلك أنها كانت متمثلة في الوصول إلى ((رشيد)) واختطافه من منزله على أن يأتيا به إلى مبنى قديم تابع للسفارة، وهناك أجبروه على رد حقوق ((جميلة)) كاملةً إليّ على أن أقوم بعد ذلك بإيصالها إليها.

بعد حصولي على مستحقاتها كاملةً لم أعد بها إليها أو أخبرها، فالغضب كان مايزال يُعميني غير أنَّ الحمل قد بدأ يظهر عليَّ، فازداد



حجم بطني لدرجةٍ فاضحةٍ للأمر، لذلك غادرت ((القاهرة)) باتجاه ((شفشاون)) دون أن أخبر أحدًا.

***

أطلقوا عليَّ لقب ((عذراء شفشاون)) بعد أن عُدت إليهم أحمل طفلًا ورفضت إخبار أحد منهم بأي شيءٍ عنه، لدرجة ظن بعضهم فيّ السوء، فأخبرتهم أنني لست مريم لكنني أخت هارون، فكما لُقبت السيدة ((العذراء مريم)) بِ أُخت هارون، أي شبيهتهُ في الصلاح والعبادة، أنا أيضًا لم أكن امرأة سوءٍ ولم أكن أبدًا بغيَّ.

***

بعد شهور حنَّ قلبي واشتقت إلى ((جميلة))، اشتقت أيضًا أن أطمئِن على أحوال نزار، نزار .. ابن عمي يا ((زين))، عرفت أن ((جميلة)) تعيش في منزله، وأنهُ قد تكفل بها، فتحدثت إليه، أخبرته أن يكمل في رجولته وشهامته ويصون لحمه فيتزوج مِن ابنة عمه، عندما أخبرني بأنه لا يستطيع التكفل بحياة زوجية كاملة، أخبرته أنني سأرسل إليهِ مبلغًا يستطيعا من خلاله إتمام الزواج، وبعد أن يتزوجا أرسل إليهما مبلغًا كبيرًا يبدءا به حياتهما.

بعد أيامٍ كانا قد تزوجا بالفعل، أرسلت إليهما ما يساوي وديعة ((جميلة)) وذهبها بدون أن أخبرهما عن ماهيته، أخبرتهما أنها أموال وديعتي الشخصية وقد أرسلتها إليهما على سبيل القرض، من أجل أن يفتتحا مشروعًا مناسبًا يرزقا منه.

أما عن ((زين)) الصغير فقد سجلته في سجلات مواليد ((شفشان)) باسم والده ((نزار))، لم يكلفني الأمر سوى مبلغ صغير للغاية اعتبروه مكافأةً لهم من أجل مباركة المولود، لكنني حرصت حتى الآن على إخفاء



وجوده عن ((نزار))، كعقاب له على كل ما أذاقني من ويلاتٍ ومذلة، لكن أظن أن وقت كشف كثير من الحقائق قد اقترب.

***

تصافينا .. وقص كل منا ما لديه على الآخر، أخبرني بأنه نزيل أحد الفنادق القريبة وأن رحلته قصيرة مدتها خمسة أيامٍ فقط، طلبت منه أن يمكث بيننا لكنه رفض، قال إن ذلك غير لائق وقد كان محقًا، فعرضت عليه أن يظل معنا ما تبقى من النهار ثم نتناول العشاء سويًا بعد ذلك يغادر كيفما شاء.

بعد العَشاء صعدنا مرة أُخرى إلى سطح المنزل، أخرجت له صندوق الجدة ((حسيبة)) جعلته يلمس الكتب القديمة التي يعود عمرها لأكثر من خمسمائة عامٍ كاملة، ثم قصصت عليه قصة الصندوق بدء من سقوط غرناطة على يد القشتاليين، وتجميع ((أبو جعفر)) للكتب والمخطوطات من المساجد والمكتبات وأخفائها في بيت جبل ((عين الدمع))، توريثها ل ((سليمة))، وكيف أنهم اتهموها بالسحر والشعوزة وأحرقوها حية، وما فعلته ((مريمة))، كيف استطاعت المحافظة على الصندوق، إلى أن وضعته بين يدي ((عليّ)) حفيدها من ابنتها عائشة، وطلبت نقله إلى الجامع الأزهر في القاهرة، وكيف انتهت الأمور ب ((عليّ)) في شفشاون كزوج لفتاةٍ من قبيلة ((بني حسان)).

انتهينا من الحديث عن صندوق ((مريمة)) بعدها أشرت إليه على سفن الصيد الزرقاء التي تتوسط الماء في البحر، كان مكتوب عليها اسم ((زين))، كان هذا عملي الخاص الذي لجأت إليه بعد العودة من ((مصر))، حيث جلست مع أحد الأقارب وتشاورت معه في كيفية استغلال ما أملكه من نقود، فأشار إليَّ بأن نلجأ إلى سفن الصيد الحديثة،

قال إن شركة صينية قد افتتحت مصنعًا كبيرًا لصناعة مُعلبات الأسماك، وأصبح الصيد مهنة مربحة أكثر من السابق، وبعد تفكير وافقته واشترينا سفينة صيدٍ متطورةٍ للغاية، والآن أصبح لدينا أربعة.

كنت أتحدث كثيرًا بينما كان ينظر إلي في شوقٍ ليس له أخر، وكأنه يحاول أن يتشبع من ملامحي التي غابت عنه كثيرًا، في نهاية اليوم أخبرني :

- لا أطيق العيش بدونك.

- وأنا أيضًا يا ((زين)) .. لقد مررت بالكثير من المحن والأوقات الصعبة ورغم كل شيء تمنيت كثيرًا أن تكون معي وتربت على قلبي كنت بحاجة لوطن وأنتَ وطني دائمًا.

- إذًا .. فلنعد سويًا.

- آسفة يا ((زين)) .. آسفة .. لم يعد الأمر مُتاحًا .. لا أستطيع .. من التعقل أن يدرك المرء أن ثمة أشياء يتعلق بها، يحبها، ويتمناها لنفسه، لكنه أبدًا لا يحصل عليها .. فلو حصل عليها لأذاها أو أذته .. إنها سنة الحياة، فلا أحد يستطيع أخذ كل شيء.

- لقد قطعت لأجلكِ قارة بأكملها.. عبرت فوق ثلاث دول كبرى كي آتي إليكِ وأخبركِ بأنني لا أستطيع النجاة في هذه الحياة بدونك.

- أرجوك .. لا تصعب عليَّ الأمر.

رغم أنه كان جادًا قويًا لكنه بكى، ترقرقت دموع عينيه أمام رفضي، فسألته :

- أين الطَرْحَة ؟!

حجاب الرأس؟!

تلك التي أعطيتها لك يوم عراكك مع نزار.



- ..
- أضعتها يا زين؟! أضعتُها !!
- إن أتيت لكِ بها ..
تعودين معي إلى القاهرة ؟!
- ...
- تعودين !!
- لا .. لكنها قد تجعلني أفكر في الأمر.

نظر إلي لثوانٍ قليلة وقد كانت عيناه ما تزال تلمع بالدموع، ثم أدخل يده بين طيات ملابسه وأخرجها.. كانت مايزال محتفظًا بها في صيغتها الأولى، كما هي ملطخةً بالدماء ورائحة العرق، وكان ذلك أكثر شيءٍ قد أبهجني منذ سنواتٍ طوال.

***

في اليوم الأول، حضر إليّ في الصباح .. جلسنا متجاورين كما أيام الجامعة، كانت ملامحه مليئة بالقلق، أعرف جيدًا ما كان يشعر بهِ، حاولت تخفيف القلق والتوتر عنه، لكن شيئًا لم يكن ليفلح في ذلك، هو يريد فقط أن نعود سويًّا.

في نهاية اليوم الأول قال لي :

- عندما قررت أن أعترف لكِ بالحب.. جلست ثلاث ليال أبحث عن طريقة أخبرك بها كيف أحبك .. إلى أن قرأت ُ بيتِ شعرًا لِ ((أمل الشيخ)) يقول فيهِ :

- أنااا .. أنا من أحبك دون إذنٍ مسبقٍ .. أرأيتِ حبًا جاء باستئذانِ،
إن يكتب الله الوصال فأنتِ لي .. و إذا افترقنا دُمتِ في شرياني.



في اليوم الثاني جلسنا معًا لساعات .. قضى نصفها صامتًا يتأمل ملامحي، وقضيت أغلبها يترقرق الدمع من عيني .. و في نهاية اليوم قال لي :

- أتعرفين .. إن أصعب موقف مر عليّ طيلة حياتي.. كان يوم تقابلنا على والدكِ في الحافلة.. انخلع قلبي .. كنت أتمنى الموت على أن يصيبك مكروه بسببي.

في اليوم الثالث .. تذكرنا عندما مرضت الأم ((فطوم))، وعرف بالأمر من أم ((بربارة)) فخرج باحثًا عن الدواء النادر ولم يعد إلا وأحضره معه. يومها تقابلنا عند مخرج العمارة، وتحدثنا معًا، كان الحب بيننا ما يزال في أوجه رغم الفراق.

أما في اليوم الرابع، فتحدثنا عن ليلة عراكه مع ((نزار)) قال إن أجمل ما حدث في ذلك اليوم، أنني صفعته على وجهه من أجل ابن العم .. قال ((من لا خير له في أهله لا خير له في أحدٍ آخر))، بعدها تطرقنا إلى يوم المستشفى.. وكيف أنه عرض نفسه للخطر من أجلي، وتبرع بالدم مرتين في يومٍ واحد ..

في اليوم الخامس .. لم يكن عقلي يتوقف عن التفكير.. في النهاية توصلت إلى أن القوة الحقيقية لا تكمن دائمًا في التمسك بالأشياء إنما من الممكن أن تكون في التخلي عنها .. لكن ماذا إن كانت هذه الاشياء غير قابلة للاستبدال؟! وماذا إن كانت لا تعوض؟! إن كانت هذه الأشياء قد تمسكت بنا بكل ما أوتيت من قوة.

منتصف اليوم الخامس.. خرج من الفندق قبل ساعاتٍ من موعد إقلاع طائرته وأتى إليَّ حاملًا شنطته في كتفه وقلبه في يده، انتظرته عند



باب المنزل وقد أعددت له صندوقًا صغيرًا قمت بلفه بعنايةٍ شديدةٍ، كان ينتظر مني أخذ قرار نهائي بشأننا، ولم يكن لدي قرار غير الفراق، وأن يمضي كل منا إلى سبيله في حياته الشخصية وننسى.

أعطيته الصندوق وأخبرته بأن لا يفتحه إلا عند وصوله مطار بوخالف الدولي، وأخبرته أن الطريق طويل وما في الصندوق سوف يساعده في تهوينه عليه، كنت أبكي بحرقة، والكلمات تخرج من بين شفتي متقطعةً وأنا أقول له بأنني لن أنساه ما حييت، وأنني سأظل ((عذراء شفشاون)) حتى الفناء، ليس لأنني قد عدت إليهم أحمل طفلًا صغيرًا لا يعرفون عنه شيئًا، إنما لأن المرأة تظل عذراء وإن تزوجت ألف مرة من رجل غير الذي تحبه.

لم يعلق بكلمة، نظر في عيني بجمودٍ تامٍ وكأن روحه قد فارقته قبل أن يلتفت وينزل على السلالم الزرقاء حتى ثلثيها، بعدها التفت ينظر إليَّ مُجدَّدًا وقد كانت عيناه غارقتين تمامًا بالدموع، لم أستطع تحمل رؤيته يبكي ولم يكن لدي شيءٍ أفعله، لذا دخلت من الباب وأغلقته بيننا إلى الأبد.

***

خلف الباب انهرت باكيةً، شعرت كما لو أن قلبي يحترق مجددًا، وكأنني قتلته بيدي بدمٍ باردٍ، ففقدت الوعي وسقطت على الأرض مغشيًا عليَّ، بعد دقائق كانت ((ماريانا)) قد قامت بإفاقتي مُجددًا، ثم جلست أمامي تتحدث إليَّ بكلماتٍ كثيرة لا أتذكر منها إلَّا قول :

- لا يمكن للمرء أن يحصل على حبٍّ حقيقيٍّ لأكثر من مرة واحدة في الحياة، لذلك يجب علينا عند الحصول على هذه المرة أن نتمسك بها بكل قوتنا، كما علينا ألَّا ننسى قول السيد ((أوسكار وايلد)) :



((عندما يحب الرجل فإنه يمنح شيئًا من حياته لمن يحب، ولكن عندما تحب المرأة فإنها تمنح كل حياتها لمن تحب)). لذا لا تتخلي عن رجُلٍ فعل لأجلكِ ما فعله ((زين)).

***

كانت صالة المسافرين في مطار ((ابن بطوطة الدولي)) مُمتلئةً عن آخرها عندما جلس على كرسيهِ بين الجموع وقام بفتح الصندوق، أخرج منه الكتاب، بدأ في إزالة الأشرطة التي لُف بها بعناية، كان كتابًا لونه أزرق، كُتب على غلافه من الخارج ((عذراء شفشاون - أُختَ هارون))، وأشير أسفل العنوان بأنها ((رواية)).

كنت قد دونت فيه بحرصٍ شديد كل القصة من البداية إلى النهاية، ما إن قرء العنوان ترقرقت الدموع من عينيه مجددًا، أخفض رأسه مُنحنيًا ينظر نحو الأرض بخيبة أملٍ كبيرة لئلا يلاحظ أحد دموعه، بعد ثوانٍ قليلة .. توقفت أقدام شخصين أمامه مباشرة، كانت قدمي طفلٍ صغيرٍ تجاورها قدمي امرأةٍ ثلاثينيةٍ ناضجة صُبغت أظافرها باللون الأحمر اللامع ثم وقبل أن يرفع عينيه ينظر إليهم، لحق بهم شخصٌ من عمال المطار كان يدفع أمامه إحدى حاملات الحقائب، وُضع عليها صندوقًا قديمًا يبدو أثريًا، كان مصنوعًا من خشب الزيتون، لونه زيتونيّ جميل، يحمل نقش غصون وزهور وعصافير، كل عصفورين متقابلين متلامسين.

رفع عينيه ببطءٍ شديد، وقد مُلئت بالدموع عن آخرها ..

عند رؤيته لنا لم يصدق نفسهُ، باغته بالسؤال بصوتٍ يخنقه البُكاء :

- هل تؤمن بالحب؟!

رد بصوتٍ مُنخفض تخنقه الدموع :

- يقول ((هاروكي موراكامي)) :

((قد يحدث أن يستطيع الحب إعادة بناء العالم)).

مُشككةً في كلامه :

- لكن العم ((ساراماغو)) يقول :

((الزمن الذي يمكن أن يكون الحب فيه أساس كل بناء لم يحن بعد)).

رد مُجدَّدًا وقد لمعت عينيه اكثر بالدموع :

- العم ((جورج أورويل)) يقول :

((ربما لم يرغب المرء في الحب بقدر رغبته في أن يفهمه أحدهم))،

وأظننا دائمًا ما فهمنا بعضنا البعض يا هبة الله.

ابتسمت إليهِ في صمت وقد هبطت أنامل يدي أسفل عينيه تمسح دمعة هزمته ونزلت منه .. لم أجد ما أقوله، أو ربما لم أود البحث عما أُقوله فتحدث إليَّ مُجدَّدًا قال :

- يقول (باولو سورنتينو)) :

((الحُب هو استحالة أن يكون لحبيبكَ بديلًا))، كما تقول ((فريدا كاهلو)) : ((اختاروا شخصًا ينظر إليكم بطريقه وكأنكم معجزة))، وأنا والله ما رأيتكِ يومًا إلا مُعجزة.

ابتسمت في براءة وعذوبة وبملامِح قد بدا فيها الخجل الشديد قلت :

- إذًا ..أتسمح لي بمرافقتك كي أقرء لك الرواية؟!

- لا يوجد رجلٌ أكثر سعادةً وحظًا من ذلك الذي يجدُ امرأة تقرأ له، أو تُشاركه ما يقرؤهُ، ثم إنني لطالما أحببت صوتك وأنت تقرئين.. فأقرئي.

- أتعرف .. سأعود معك لسببين .. الأول : لأنك ليّن، وأنا لم أحب في



إنسان صفة أكثر من اللين، وكما قال أحد الصالحين : سلامٌ على كُل ابن آدم ليّن إذا صادق، هين إذا خاصم، رفيق في الشدة، رقيق في النصيحة، لا يشقى في صُحبته أحد . والثاني لأن الجدة ((حسيبة)) قالت ذات مرة : إن الرجُل الذي يستطيع جبر خاطر امرأة، هو رجُل لا يعوض، وأنا أتيتُ إليكَ الآن، لأنك هذا الرجل .. لأنك لم تكسر بخاطري يومًا ما.

(يحدُث أن تُظن أنها النهاية .. و أنّ كُل شيئًا قد انتهى.. لكن في حقيقة الأمر تكون هذه هي البداية)..

تمّت

❋ ❋ ❋



المعلومات في الجُزء الأول من بداية العمل، الذي يتحدث عن غرناطة استعنت بها من رواية ((ثلاثية غرناطة)) للكاتبة العظيمة ((رضوى عاشور)). لكن!! تم تعديلها بما يتماشى مع سير أحداث رواية ((عذراء شفشاون)) ... لذا وجب التنويه. وأيضًا الشُكر لروح الكاتبة العظيمة: ((رضوى عاشور)). فلولا ((ثلاثية غرناطة)) ما أحببت القراءة، وما فكرتُ في الكتابة.





الحساب الشخصي للكاتب في فيس بوك:

Ahmed F. Jibril / أحمد جبريل

www.facebook.com /writer.Jibriil

الحساب الرسمي لدار ((ن للنشر والتوزيع)) في فيس بوك :

www.facebook.com /Dar.Noon.Publishing



noon_publishing@yahoo.com

0235860372- 01127772007